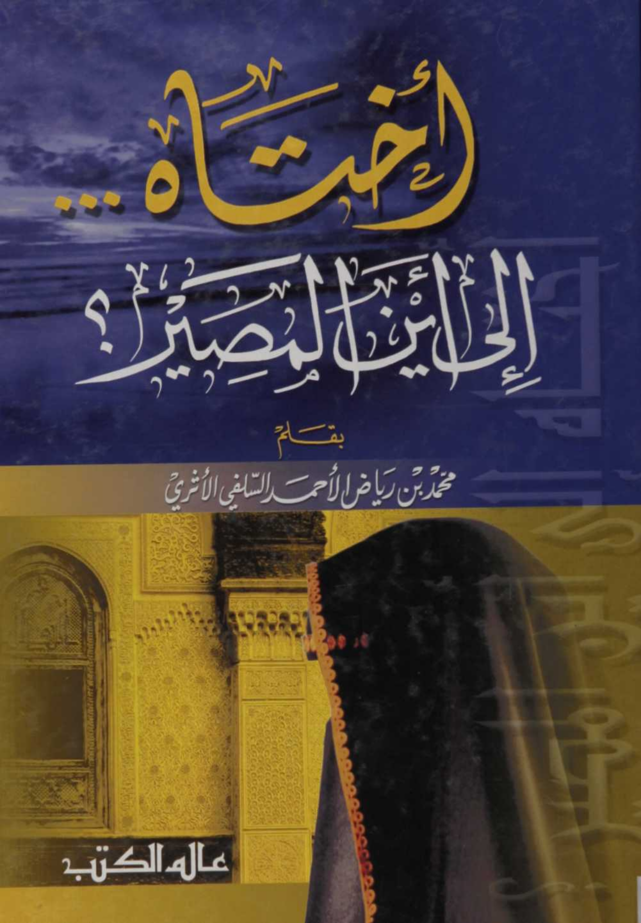


أخيّاه..
إلى أين المصير؟
بقلم
محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري
عالم الكتب



عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ ـ ١١، برقياً: نابعلبكي
تلفون: ٣١٥١٤٢ ـ ٨١٩٦٨٤ (٠١)
خليوي: ٠٣/٣٨١٨٣١
فاكس ٣١٥١٤٢ (٩٦١١)

WORLD OF BOOKS
FOR PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION
BEIRUT - LEBANON
P.O BOX: 11-8723, CABLE: NABAALBAKI
TEL.: 01-819684 / 315142
CELL. 03-381831, FAX: (9611) 315142
E. mail: alamko @ dm.net.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد فإن أصدق الحديث كلام الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

فلا يخفى على عاقل أن هذه الحياة الدنيا ما هي إلا مرحلة نقطعها، وأن بعدها موتاً، وأن وراء الموت قبراً وحياة برزخية، وأن وراء القبر أهوالاً عصيبة وحساباً عظيماً، ثم بعد ذلك إما إلى جنة وإما إلى نار.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ

هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى
جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ
فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا
تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ
نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا
تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ
ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ١٩ ـ ٣٥].

لذلك فحري بكل عاقل يرجو النجاة في هذه الدنيا وفي الآخرة أن يتفكر في هذه الأهوال الصعاب، وأن يتذكر أن النجاة إنما تنال برحمة الله ثم بصالح الأعمال.

وفي هذا الكتاب تذكرة وعظة، أذكر بها نفسي أولاً وأخواتي ثانياً، بالموت وسكرته، والقبر وضغطته، والقيامة وأهوالها، وشدائدها وكروبها، والمصير الذي ستؤول إليه النفس: الجنة أو النار.

فجمعت هذه التذكرة في هذا الكتاب، لعل النفوس بعد سماع ذلك تؤوب، وتقبل وتتوب، وتلتجىء إلى علام الغيوب، نادمة على المعاصي والذنوب.

وأسميته:

أختاه.. إلى أين المصير؟

أسأل الله تعالى أن يتقبل مني عملي هذا وأن يجعله في ميزان حسناتي يوم ألقاه، كما أسأله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، أن يبصر المسلمين والمسلمات بأمور دينهم، ويجنبهم الفواحش والفتن ما ظهر منها وما بطن، ويثبتهم على صراطه المستقيم، إنه جواد كريم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتب

محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الموت
هادم اللذات

الحمد لله المستحق لغاية التحمد، المتوحد في كبريائه وعظمته الولي الحميد، الغني المغني المبدىء المعيد، المعطي الذي لا ينفذ عطاؤه ولا يبيد، المانع فلا معطي لما منع ولا راد لما يريد.

خلق الخلائق وأوضح لهم أحسن طريق، وهداهم إلى الأمر الرشيد، وصورهم فأحسن صورهم، وبشر من أطاعه بالجنة والنعيم والتخليد، وحذر من عصاه من العذاب الشديد.

وحثهم على ذكره وحمده وشكره ووعدهم بالمزيد، فقال جل وعلا وهو أصدق القائلين، وأوفى الواعدين: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وحكم على خلقه بالفناء فما لأحد عنه محيص ولا محيد، فكم أبكى الموت خليلاً بفراق خليله، وكم أيتم طفلاً فشغله ببكائه وعويله.

أوحش المنازل من أقمارها، ونفر الطيور من أوكارها، وعوضهم من لذة العيش بالتنغيص والتنكيد.

فالملك والمملوك والغني والصعلوك والقوي والضعيف، تساوت قبورهم في القفر والبيد.

لـعـل إنـاء مـنـه يـصـنـع مـرة   فـيـكـل مـن أراد ويـشـرب

وينقل من أرض لأخرى وما درى فواها له بعد البلا يتغرب

فجدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة موعده، والجنة أو النار مورده. أن لا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تأهب إلا له، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا انتظار ولا تربص إلا له.

وحقيق بالعاقل أن يعد نفسه من الموتى ويراها من أصحاب القبور، فإن كل ما هو آت قريب قال الله جل وعلا: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١] وقال تبارك وتعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

واعلمي يا أمة الله أنه لو لم يكن في الموت إلا الإعدام وانحلال الأجسام ونسيانك أخرى الليالي والأيام، لكان والله لأهل اللذات مكدراً، ولأصحاب النعيم منغصاً ومغيراً، ولأرباب العقول الراجحة عن الرغبة في هذه الدار زاجراً ومنفراً، وللمنهمك في الدنيا وزخارفها منذراً ومزعجاً ومحذراً.

قال مطرف بن الشخير: إن هذا الموت نغص على أهل النعيم نعيمهم، فاطلبوا نعيماً لا موت فيه، فكيف ووراءه يوم يعد فيه الجواب وتدهش فيه الألباب، وتفنى في شرحه الأقلام والكتاب.

ولم يمرر به يوم فظيع أشد عليه من يوم الحمام
ويوم الحشر أفظع منه هولاً إذا وقف الخلائق بالمقام
فكم من ظالم يبقى ذليلاً ومظلوم تشمر للخصام
وشخص كان في الدنيا فقيراً تبوأ منزل النحب الكرام
وعفو الله أوسع كل شيء تعالى الله خلاق الأنام

ومن كلام بعضهم: يا ابن آدم: لو رأيت ما حل بك وما أحاط بأرجائك لبقيت مصروعاً لما بك، مذهولاً عن أهليك وأصحابك.

يا ابن آدم: أما علمت أن بين يديك يوماً يصم سماعه الآذان، ويشيب لروعه الولدان، ويترك فيه ما عز وما هان، ويهجر له الأهلون والأوطان.

يا ابن آدم: أما ترى مسير الأيام بجسمك، وذهابها بعمرك، وإخراجها لك من سعة قصرك إلى مضيق قبرك، وبعد ذلك ما لذكر بعضه تتصدع القلوب، وتنضج له الجوانح وتذوب، ويفر المرء على وجهه فلا يرجع ولا يؤوب، ويود الرجعة وأنى له المطلوب.

قال الله جل وعلا وتقدس: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وقال تبارك وتعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر: ٥٦ ـ ٥٨].

الموت يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة ناب الليث والظفر
فالعمر يفنى وإن طالت مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الضراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي؟ أقال الله عثرتنا ... من الليالي وغالتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن النظر
تسر بالشيء لكن كي تغر به ... كالأيم ثار إلى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل دنياك عن خبر
هوت بداراً وفلت غرب قاتله ... وكان غضباً على الأملاك ذا أثر
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبني يونان من أثر
وألحقت أختها طمساً وعاد على ... عاد وجرهم منها ناقض المرر
وما أقالت ذوي الهيئات من يمن ... ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
ومزقت سبأ في كل قاصية ... فما التقلا رائح منهم بمبتكر
وأنفذت في كليب حكمها ورمت ... مهلهلاً بين سمع الأرض والبصر
ولم ترد على الضليل صحته ... ولا ثنت أسداً عن ربها حجر
ودوخت آل ذُبيان وإخوانهم ... عبساً وغصت بني بدر على النهر

وألحقت بعدي بالعراق على ... يد ابنه أحمر العينين والشعر
وأهلكت إبرويزاً بابنه ورمت ... بيزدجرد إلى مرو فلم يحر
وبلغت يزدجرد الصين واختزلت ... عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
ولم ترد مواضي رستم وقنا ... ذي حاجب عنه سعداً في ابنه الغير
يوم القليب بنو بدر فنوا وسعى ... قليب بدر بمن فيه إلى سقر
وأخفرت في الأمين العهد وانتدبت ... لجعفر ابنه والأغند الغدر
وما وفت بعهود المستعين ولا ... بما تأكد للمعتز من مرر
وأوثقت في عراها كل معتمد ... وأشرقت بقذاها كل مقتدر
وروعت كل مأمون ومؤتمن ... بذيل زباء لم تنفر من الذعر
وأعثرت آل عباد لعالهم ... وأسلمت كل منصور ومنتصر
بني المظفر والأيام ـ لا نزلت ... مراحل والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت ... بمثله ليلةً في غابر العمر
من للأسرة أو من للأعنة أو ... من للأسنة يهديها إلى الثغر
من للظبا وعوالي الخط قد عقدت ... أطراف ألسنها بالعي والحصر
وطوقت بالمنايا السود بيضهم ... فأعجب لذاك وما منها سوى الذكر
من لليراعة أو من للبراعة أو ... من للسماحة أو للنفع والضرر
أو دفع كارثة أو ردع آزفة ... أو قمع حادثة تعيي على البشر
ويب السماح وويب البأ لو سلما ... ونصرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية ... تعزى إليهم سماحاً لا إلى المطر
ثلاثة ما رأى السعدان مثلهم ... واخبر ولو عززا في الحوت بالقمر
ثلاثة كذوات الدهر منذ نأوا ... عني مضى الدهر لم يربع ولم يحر
ومر من كل شيء فيه أطيبه ... حتى التمتع بالآصال والبكر
أين الجلال الذي غضت مهابته ... قلوبنا وعيون الأنجم الزهر
أين الإباء الذي أرسوا قواعده ... على دعائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذي أصفوا شرائعه ... فلم يرد أحد منها على كدر
كانوا رواسي أرض الله منذ مضوا ... عنها استطارت بمن فيها ولم تقر

كانوا مصابيحها دهراً فمنذ خبوا صار الخليقة يالله في مرر
من لي من بهم إن أظلمت نوب ولم يكن ليلها يُفْضِي إلى سحر
من لي ولا من بهم إن أطبقت محن ولم يكن وزرها يدعو إلى صدر
على الفضائل إلا الصبر بعدهم سلام مرتقب للأجر منتظر
يرجو عسى وله في أختها أمل والدهر ذو عتب شتى وذو غير
رَرَّطَتُ آذان من فيها بفاضحة على الحسان حصى الياقوت والدرر
سيارة في أقاصي الأرض قاطعة شقاشقاً هدرت في البدو والحضر
مطاعة الأمر في الألباب قاضية من المسامع ما لم يقض من وطر

* * *

(الاستعداد للموت)

وقد ذكّر الله سبحانه العباد بالموت ليستعدوا له بالأعمال الصالحة، والتوبة والاستغفار عما مضى من الأوزار، لأن الموت إذا جاء ختم عمل الإنسان وانتهى وقت العمل وحان وقت الحساب.

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ٩ - ١١].

ففي هذه الآيات يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك، الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾، أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات، ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة كبذل المال في جميع المصالح.

وقال: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾ ليدل ذٰلك على أنه تعالى، لم يكلف العباد من النفقة ما يعنتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم، ويسره، ويسر أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذٰلك الموت الذي إذا جاء، لم يمكّن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال:

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ﴾ متحسراً على ما فرّط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾، أي: لأتدراك ما فَرَّطْتُ فيه.

﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق جزيل الثواب.

﴿وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هٰذا، الحج وغيره.

وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المحتوم لها ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر فيجازيكم على ما عملتم من النيات والأعمال.

ويقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ١٦ ـ ٢٢].

فيخبر تعالى، أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله، وما يسرُّه، وتوسوس به نفسه.

وأنه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو: العظم المكتنف لثغرة النحر، وهٰذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وكذٰلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهٰذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾، أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات، ﴿وَ﴾ الآخر ﴿عَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قَعِيدٌ﴾ بذٰلك متهيء لعمله الذي أعد له، ملازم لذٰلك.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ من خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ثُم يقول تعالى: ﴿وَجَآءَتْ﴾ هٰذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي لا مرد له ولا مناص، ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾، أي: تتأخر وتنكص عنه.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾، أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهٰذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال.

ولٰكن أكثر الناس غافلون، ولهٰذا قال: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾، أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هٰذا الكلام، توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً، أي: لقد كنت مكذباً بهٰذا، تاركاً العمل له ﴿فَ﴾ الآن ﴿كَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الذي غطى قلبك، فكثر نومك، واستمر إعراضك، ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه، من أنواع العذاب والنكال.

أو هٰذا خطاب من الله للعبد، فإنه في الدنيا، في غفلة عما خلق له، ولٰكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وسنه، في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهٰذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذٰلك اليوم العظيم.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

وهذا تذكير من الله تعالى لعباده بالعمل ليوم القيامة، فكل العباد سيرجعون إلى الله تعالى وسيحاسبهم على ما عملوه في هذه الحياة الدنيا، وسيجازيهم على ما كسبوا من خير أو شر... فماذا أعددت لذلك اليوم يا أمة الله.

وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧].

فقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ أي فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة.

والحال أنا أقرب إليه منكم بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي فهلا إذ كنتم تزعمون أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجزيين ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي إلى بدنها ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها.

فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاء به محمد ﷺ وإما أن تعاندوا فتعلم حالكم وسوء مآلكم.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنعام: ٦١ - ٦٢].

فقول تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، ﴿وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه، ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك، إلا بحسب المراسيم الإلهية، والتقادير الربانية.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية، وما فيها من الخير والشر ﴿رُدُّوا إِلَى اللَّهِ

﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير. ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب.

ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبته في اللوح المحفوظ، ثم أثبته ملائكته في الكتاب، الذي بأيديهم.

فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء، في جميع أحوالهم وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين، العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة مَنْ ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!

أما والله لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونه بالشرك والكفران، ويتجرأون على عظمته بالإفك والبهتان، وهو يعافيهم ويرزقهم لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه، ولمقتوا أنفسهم أشد المقت، حيث انقادوا لداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

وقد أمرنا رسولنا ﷺ بذكر الموت فقال بأبي وأمي هو: «**أكثروا من ذكر هادم اللذات**» وفي رواية: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش ألا وسعه عليه ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه**».

فقوله عليه الصلاة والسلام: «**أكثروا ذكر هادم اللذات؛ الموت**» كلام مختصر وجيز، قد جمع التذكرة، وأبلغ في الموعظة، فإن من ذكر الموت حقيقةَ ذِكرِه؛ نغَّص عليه لذّته الحاضرة، ومنعَهُ من تمنّيها في المستقبل، وزهَّده فيما كان منها يؤمل، ولكن النفوس الراكدة، والقلوب الغافلة تحتاج إلى تطويل الوعّاظ، وتزويق الألفاظ، وإلا ففي قوله عليه الصلاة والسلام: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات**» مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ما يكفي السامع له، ويشغل الناظر فيه.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كثيراً ما يتمثّل بهذه الأبيات:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوماً خزائنُه ... والخلدَ قد حاولتْ عادٌ فما خلدوا
ولا سليمان إذ تجري الرياحُ له ... والإِنسُ والجن فيما بينها تردُ
أينَ الملوكُ التي كانت لعزّتها ... من كلّ أوبٍ إليها وافدٌ يفد
حَوضٌ هنالك مورود بلا كَذب ... لا بد من وِردِه يوماً كما وَردوا

إذا ثبت ما ذكرناه؛ فاعلمي يا أمة الله أن ذكر الموت يورث استشعار الانزعاج عن هذه الدار الفانية، والتوجّه في كل لحظة إلى الدار الآخرة الباقية؛ ثم إن الإِنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة، ونعمة ومحنة، فإن كان في حال ضيق ومحنة، فذكر الموت يسهل عليه بعض ما هو فيه، فإنه لا يدوم، والموت أصعب منه، أو في حال نعمة وسعة فذكر الموت يمنعه من الاغترار بها، والسكون إليها، لقطعه عنها. ولقد أحسن من قال:

اذكر الموت هادم اللذات ... وتجهز لمصرعٍ سوف يأتي

وقال غيره:

واذكر الموت تجد راحةً ... في ادكارِ الموت تقصير الأمل

وأجمعت الأمة على أن الموت ليس له سن معلومة، ولا زمن معلوم، ولا مرض معلوم. وذلك ليكون المرء على أهْبة من ذلك، مستعداً لذلك.

وكان بعض الصالحين ينادي بليل على سور المدينة: الرحيل، الرحيل. فلما تُوفّي فقد صوتَه أميرُ المدينة فسأل عنه، فقيل: إنه قد مات، فقال:

ما زال يلهج بالرحيل وذكره ... حتى أناخ ببابه الجمّالُ
فأصابه متيقظاً متشمراً ... ذا أهْبة لم تلهه الآمال

وقال أحد الصالحين لابنه: يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجاك.

تؤمل في الدنيا طويلاً ولا تدري ... إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر

فكم من صحيح مات من غير علة ... وكم من مريض عاش دهراً إلى دهر

وقال آخر:

قصر الآمال في الدنيا تفز ... فدليل العقل تقصير الأمل

إن من يطلبه الموت على ... غرة منه جدير بالوجل

والعجب أن الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب المجالس التي تلذ له ويأنس بها مع أولاده وأصدقائه وأقربائه وأخبر أن جندياً أتى ليحضره ويدعوه إلى أمر من الأمور لتنكد وتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه.

وهو في كل لحظة بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع وهو عنه في سهوٍ وغفلةٍ وما لذلك سبب إلا الجهل والغرور واشتغال القلب بالدنيا.

وقيل في الاستعداد للموت هو أن يتوب الإنسان توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا بأن لو قيل له إنك تموت الساعة ما وجد عنده ذنباً يحتاج إلى توبة منه فيسأل النظرة من أجله.

فإن كان يجد ذنباً يحتاج إلى توبة منه فيسأل النظرة من أجله. كسرقة وغصب مال أو أرض أو غيبة أو معاملة لا تجوز أو يأكل من حرام أو مشتبه أو عنده شيء من آلات اللهو والمعازف، أو مصرّاً على شرب الخمور والدخان... إلخ من المعاصي الكثيرة.

فإنه لم يستعد للقاء الله عز وجل لأنه لا يستشار ولا يؤخذ رأيه في إخراج روحه والموت يأتيه فجأة، فإن جاءه الموت وذلك الذنب عنده لم يأمن من أن يغضب الله عليه.

وكيف يكون مستعداً للقاء الله من هو مقيم على ما يغضب الله من المعاصي ولا يأمن أن يأتيه الموت أغفل ما كان، والموت آتيه لا محالة كما قال الحق سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

يا من تمتع في الدنيا ولذتها ... ولا تنام عن اللذات عيناه

شغلت نفسك فيما ليس تدركه ... تقول لله ماذا حين تلقاه

وقال آخر:

الناس قد علموا أن لا بقاء لهم ... لو أنهم عملوا مقدار ما علموا

وقال جل وعلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال جل وعلا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝﴾ [الرحمن: ٢٦] إلا أنه ليس للموت وقت معلوم عند الناس فيخاف في ذلك الوقت ويؤمن منه في سائر الأوقات.

تغنم من الدنيا بساعتك التي ... ظفرت بها ما لم تعقك العوائق

فلا يومك الماضي عليك براجع ... ولا يومك الآتي به أنت واثق

وقال آخر:

من كان لا يطأ التراب بنعله ... وطىء التراب بصفحة الخد

من كان بينك في التراب وبينه ... شبران فهو بغاية البعد

لو كشفت للناس أغطية الثرى ... لم يعرف المولى من العبد

فليس يأتي في الشتاء دون الصيف فيخاف من الشتاء ويؤمن في الصيف ولا بالعكس ولا يأتي في النهار فيؤمن بالليل ولا بالعكس.

وليس وقت من العمر معلوم عند الناس فيأخذ أبناء الخمسين فيأمنه من دون ذلك وليس له علة دون علة كالحمى والسل فيأمنه من لم يصبه ذلك.

فحق على العالم بأمر الله عز وجل وأنه الذي انفرد بعلم ذلك الوقت أن لا يأمنه في وقت من الأوقات وأن يكون مستعداً له أتم الاستعداد.

ومن فوائد ذكر الموت ـ يا أمة الله ـ أنه يورث الاستشعار بالانزعاج عن هذه الدار الفانية المملوءة بالأكدار والأنكاد والهموم والغموم.

ويحثك ذكر الموت على التوجه في كل لحظة إلى الآخرة بالاستعداد لها ثم إن الإنسان لا ينفك عن حالتي ضيق وسعة ونعمة ومحنة.

فإن كان في حال ضيقة ومحنة فذكر الموت سهل عليه بعض ما هو فيه إذ لا مصيبة إلا والموت أعظم منها وهو ذائقه ولا بد.

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾.

عجباً لمن يبقى ذخائر ماله ... ويظل يحفظهن وهو مضيع
ولغافل ويرى بكل ثنية ... ملقى له بطن الصفائح مضجع
أتراه يحسب أنهم ما أسأروا ... ومن كأسه أضعاف ما يتجرع

وإن كان في حال سعة ونعمة فذكر الموت يمنعه من الإغترار بالدنيا والركون إليها لتحقق عدم دوامها وتحقق ذهابها عنه وانصرامها.

قال الله جل وعلا وتقدس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣].

أيا صاح كن في شأن دنياك هذه ... غريباً كئيباً عابراً لسبيل
وعد من أهل القبر نفسك إنما ... بقاؤك فيها من أقل قليل

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أهل بيته: أما بعد فإنك إن استشعرت ذكر الموت في ليلك ونهارك بغّض إليك كل فان.

وقال بعض العلماء: الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يَرميكَ كُلّ يومٍ بسهامِهِ ويخترمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق ويستكمل جميع أجزائك، فكيف تبقى سلامتك مع وقوع الأيام بك وسرعة الليالي في بدنك لو كشف لك عما أحدثت الأيام فيك من النقص لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت ممر الساعات بك ولكن تدبير الله فوق كل تدبير.

قال بعضهم يرثي أخاً له:

يا صاحبي إن دمعي اليوم منهمل ... على الخدود حكاه العارض الهطل
وفي الفؤاد وفي الأحشاء نار أسى ... إذا ألمّ بها التذكار تشتعل
على الأحبة والإخوان إذ رحلوا ... إلى المقابر والألحاد وانتقلوا
كنا وكانوا وكان الشمل مجتمعاً ... والدار آهلة والحبل متصل
حدا بهم هادم اللذات في عجل ... فلم يقيموا وعن أحبابهم شغلوا

ولم يعوجوا على أهل ولا ولد ... كأنهم لم يكونوا بينهم نزلوا
إني لأعجب للدنيا وطالبها ... وللحريص عليها عقله هبل
وغافل ليس بالمغفول عنه وإن ... طال المدى غرَّه الإمهال والأمل
ناسٍ لرحلته ناس لنقلته ... إلى القبور التي تعيا بها الحيل
فيها السؤال وكم هول وكم فتن ... للمجرمين الألى عن ربهم غفلوا
وفي القبور نعيم للتقي كما ... فيها العذاب لمن في دينه دخل
قل للحزين الذي يبكي أحبته ... إبك لنفسك إن الأمر مقتبل
فسوف تشرب بالكأس الذي شربوا ... بها إن يكن نهل منها وإن علل
فاغنم بقية عمر مر أكثره ... في غير شيء فمهلاً أيها الرجل

واعلمي يا أمة الله أنه ما من مخلوق مهما امتد أجله وطال عمره إلا والموت نازل به وخاضع لسلطانه.

ولو جعل الله الخلود لأحد من الخلق لكان الأولى بذلك الأنبياء والرسل المطهرين المقربين.

وكان أولاهم بذلك صفوة أصفيائه وخيرته من خلقه سيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤] وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠].

فالموت حتم لا محيص ولا مفر منه يصل إلينا في أي مكان كما قال الله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

ولو نجا أحد من الموت لبسطة في جسمه أو قوة في بدنه أو وفرة في ماله أو سعة في سلطانه وملكه لنجا من الموت كثير من الناس.

وإلا فأين عاد وثمود وفرعون ذو الأوتاد؟ أين الأكاسرة وأين القياصرة والصناديد الأبطال؟ ذهبوا في خبر كان.

سل المدائن عمن كان يملكها ... هل أنست منهم من بعدهم خبراً

فلو أجابتك قالت وهي عالمة　　بسيرة الذاهب الماضي ومن غبرا
أرتهم العبر الدنيا فما اعتبروا　　فصيرتهم لقوم بعدهم عبرا

وقال آخر:

نبكي على الدنيا وما من معشر　　جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الأُلى　　كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا
من كل من ضاق الفضاء بجيشه　　حتى ثوى فحواه لَحْدٌ ضيق
فالموت آت والنفوس نفائس　　والمستغر بما لديه الأحمق

فالموت لا يخشى أحداً من الخلق، ولا يبقى على أحد منهم، ويهجم على الكبير والصغير والقوي والضعيف، والمعالج والمعالج، والغني والفقير، والرئيس والمرؤوس، وكل عنده على السوى كما قيل:

هو الموت مثر عنده مثل معدم　　وقاصد نهج مثل آخر ناكب
ودرع الفتى في حكمه درع غادة　　وأبيات كسرى من بيوت العناكب

وقال آخر:

إذا نزل المقدور لم تلف للقطا　　نهوضاً ولا للمخدرات إباء

فمتى لزم ذلك العبد وداوم عليه بتدبر وتفكر بقلب حاضر في كل وقت عظمت معرفته بالموت وفجأته، وأنه نازل به كما نزل بمن مضى قبله لا محالة، فإذا عظمت معرفته بذلك قصر أمله، فإذا قصر أمله حذر قلبه من الموت، ارتقب الموت فإذا كان مرتقباً له سارع إلى الاستعداد له والاستباق إلى الخيرات قبل الفوات.

لا شي يبقى سوى خير تقدمه　　ما دام ملك لإنسان ولا خلدا
فامهد لنفسك والأقلام جارية　　والتوب مقتبل فالله قد وعدا

وقال آخر:

يا راقد الليل مسروراً بأوله　　إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
كم قد أبادت صروف الدهر من ملك　　قد كان في الدهر نفّاعاً وضرّارا
يا من يعانق دنيا لا بقاء لها　　يمسي ويصبح في دنياه سفارا

هلا تركت من الدنيا معانقة ... حتى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها ... فينبغي لك أن لا تأمن الدارا

واعلمي ـ أختي المسلمة ـ أن الإكثار من ذكر الموت مستحب مرغب فيه، وله منافع وفوائد جليلة منها قصر الأمل، والزهد في الدنيا، والقناعة منها باليسير، والرغبة في الآخرة، والتزود للآخرة بالأعمال الصالحة، والاعتناء بالوصية والمبادرة فيها، والابتعاد عن المعاصي.

قف بالقبور وقل على ساحاتها ... من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكرم منكم في قعرها ... قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أما السكون لذي العيون فواحد ... لا يستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن ... تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل في روضة ... يفضي إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرم الطاغي بها متقلب ... في حفرة يأوي إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ... في شدة التعذيب من لدغاتها

وقال آخر:

وما زالت الدنيا طريقاً لهالك ... تباين في أحوالها وتخالف
ففي جانب منها تقوم مآتم ... وفي جانب منها تقوم معازف
فمن كان فيها قاطناً فهو ظاعن ... ومن كان فيها آمناً فهو خائف

وقال آخر:

حتى الذي اتخذ الدنيا له وطناً ... لم يدري أن المنايا عنه تزعجه
من كان يعلم أن الموت مدرجه ... والقبر منزله والبعث مخرجه
وأنه بين جنات ستبهجه ... يوم القيامة أو نار ستنضجه
فكل شيء سوى التقوى به سمج ... وما أقام عليه فهو أسمجه

ثم إن الناس في هذا المقام على أقسام: منهم المنهمك في الدنيا المحب لشهواتها فهذا يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت وإن ذكر به كرهه ونفر واشمأز منه وتناساه وربما كره الذي ذكر الموت وتباعد عنه.

وقسم منهمك أيضاً وغارق في بحور الدنيا ولا يذكر الموت وإن ذكره فذكره له تأسفاً على دنياه ومفارقتها.

وأقرب علاج لهذا القسم أن يطيلوا التفكر ليلهم ونهارهم في أهل هذه الحياة وهم إذا فكروا في ذلك عرفوا قطعاً أنهم تاركوها ولا بد وليس ذلك بعد مائة سنة بل هم في كل لحظة مهددين بفراق الدنيا مرغمين لا مختارين ويتركون كل شيء وحينئذ يستوي من يملك الملايين والعمارات والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والأراضي والملايين والبلايين مما ذكر، ومن لا يملك منها إلا ثوبهُ فقط يستويان في أن كلا منهما كأنه لم ير هذا الوجود ولكنهما يختلفان اختلافاً عظيماً في برزخهما وفي آخرتهما.

ومن الدواء النافع لمن أصيب بمرض حب الدنيا أن ينظر بعينه إلى من في المستشفيات من المرضى الذين تنوعت أمراضهم ويود أحدهم لو ملك الدنيا وبذلها لمن يشفيه من مرضه أو يخففه عنه.

من عاش لم يخل من هم ومن حزن ... بين المصائب من دنياه والمحن
وإنما نحن في الدنيا على سفر ... فراحل خلف الباقي على الظعن
وكلنا بالردى والموت مرتهن ... فما نرى فيهما فكاً لمرتهن

وقال آخر:

وقل غناء عنك مالاً جمعته ... إذا كان ميراثاً وواراك لاحد

وكذلك ينظر إلى الموتى الذين يموتون كل يوم في المستشفيات وغيرها من مثله في السن وأقل وأكبر وينظر إلى الذين يموتون حوله من أبنائه وإخوانه وأحبابه وجيرانه ومن تقع عليهم عينه قائلاً لنفسه: أي فرق بينك وبين هؤلاء؟ فإذا أذعنت واعترفت أنه لا فرق بادرها بقوله إذا ستكونين مثلهم.

فمع تكرار هذا تتبدل حاله بإذن الله وتهون عليه الدنيا ويسهل عليه إخراج الأعمال الخيرية مهما كثرت.

أختي المسلمة إن هذا المنظر تنصدع له القلوب إنصداعاً لا تهون بها الدنيا

فقط ولذلك كان بعض السلف إذا شيع جنازة رجع لا يعي، وربما مكث أياماً مريضاً من هذا الذي نزل به وأذهله حتى عن نفسه.

ولـم أرى كـالأمـوات أفـجـع مـنـظـراً ... ولا واعـظـي جـلاسـهـم كـالـمـقـابـر

وكيف لا يكون هكذا وهو يرى أحد إخوانه جثة هامدة ويودعوه في تلك الحفرة المظلمة لا ينازعهم عند ادخالهم له في أي تصرف يتصرفونه فيه وقد كان قبل ذلك تضيق عنه الدنيا على سعتها.

ليت شعري ساكن القبر المشيد ... هل وجدت اليوم فيه من مزيد
وهل الباطن فيه مثل ما ... هو في الظاهر تزويقاً وشيد
وهل المضجع فيه لين ... أو سعير مالها فيه خمود
وهل الأركان فيه بالتقى ... نيرات أو بأعمالك السود
ليت شعري ساكن القبر المشيد ... أشقي أنت فيه أم سعيد
أقريب أنت من رحمة من ... وسع العالم إحسانا وجود
أم بعيد أنت منها فلقد ... طرقت دارك بالويل البعيد
ولقد حل بأرجائك ما ... ضاق عنه كل ما في ذا الوجود
أيها الغافل مثلي وإلى ... كم تعامي وتلوي وتحيد
أدن فاقرأ فوق رأسي أحرفاً ... خرجت ويحك من قلب عميد
صرعته فكرة صادقة ... وهموم كلما تمضي تعود
وندامات لأيام مضت ... هو منها في قيام وقعود
وغداً ترجع مثلي فاتعظ ... بي وإلا فامض وأعمل ما تريد
قد نصحناك فإن لم تره ... سيراه بصر منك حديد

* * *

كأني بنفسي وهي في السكراتي ... تعالج أن ترقى إلى اللهواتي
وقد زم رحلي واستقلت ركائبي ... وقد آذنتني بالرحيل حداتي
إلى منزل فيه عذاب ورحمة ... وكم فيه من زجر لنا وعظاتي
ومن أعين سالت على وجناتها ... ومن أوجه في الترب منعفراتي

ومن وارد فيه على ما يسره ومن وارد فيه على الحسراتي

* * *

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

* * *

الحمد لله ثم الحمد لله ماذا على الموت من ساه ومن لاه

ماذا يرى المرء ذو العينين من عجب عند الخروج من الدنيا إلى الله

* * *

إذا ما صار فرشي من تراب وبت مجاور الرب الرحيم

فهنوني أصحابي وقولوا لك البشرى قدمت على الكريم

والقسم الثاني من الناس تائب يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف، فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خشية أن يختطفه قبل تمام توبته، وقبل إصلاح الزاد، ولا يدخل هذا تحت قول النبي ﷺ: **«من كره لقاء الله كره الله لقاءه»** لأن هذا لا يكره لقاء الله بل يكره فوت لقائه.

تتضاءل الأبطال ساعة ذكره وتبيت منه في إباءة ضيغم

شرس المقاداة لا يزال ربيئة ومتى يحس بنار حرب يقدم

تقع الفريسة منه في فوهاء إن يطرح بها صم الحجارة يحطم

ضمآن للدم لا يقوم بريُه إلا المروق في الجسوم من الدم

جاءته من قبل المنون إشارة فهوى صريعاً لليدين وللفم

ورمى بمحكم درعه وبرمحه وامتد ملقى كالبعير الأعظم

لا يستجيب لصارخ إن يدعه أبداً ولا يرجى لخطب معظم

ذهبت بسالته ومر غرامه لما رأى خيل المنية ترتمي

يا ويحه من فارس ما باله ذهبت فروسته ولمّا يكلم

هذي يداه وهذه أعضاؤه ما منه من عضو غداً بمثلم

هيهات ما خيل الردى محتاجة للمشرفي ولا السنان اللهذم

هي ويحكم أمر الإله وحكمه والله يقضي بالقضاء المحكم

يا حسرة لو كان يقدر قدرها ... ومصيبة عظمت ولمّا تعظم
خبر علمنا كلنا بمكانه ... وكأننا في حالنا لم نعلم

واعلمي ـ رحمك الله ـ أن مما يعينك على الفكرة في الموت ويفرغك له ويكثر اشتغال فكرك به تذكر من مضى ـ رجالاً ونساءً ـ من الذين مضوا قبلك وتقدموا أمامك وكيف أتاهم الموت وفارقوا الدنيا.

ومنتظر للموت في كل لحظة ... يشيد ويبني دائماً ويحصن
له حين تبلوه حقيقة موقن ... وأعماله أعمال من ليس يوقن
عيان كإنكار وكالجهل علمه ... لمذهبه في كل ما يتيقن

كانوا يحرصون حرصك ويسعون سعيك، ويأملون أملك، ويعملون في هذه الدنيا عملك، وقصت المنون أعناقهم، وقصمت ظهورهم وأصلابهم، وفجعت فيهم أهليهم وأحباءهم وأقرباءهم وجيرانهم فأصبحوا آية للمتوسمين وعبرة للمعتبرين.

وتذكري أيضاً ما كانوا عليه من الاعتناء بالملابس ونظافتها ونضرة بشرتهم، وما كانوا يسحبونه من أردية الشباب وأنهم كانوا في نعيم يتقلبون، وعلى الأسرة يتكئون، وبما شاؤوا من محابهم يتنعمون.

وفي أمانيهم يقومون ويقعدون، لا يفكرون بالزوال، ولا يهمون بانتقال، ولا يخطر الموت لهم على بال، قد خدعتهم الدنيا بزخارفها، وخلبتهم وخدعتهم برونقها، وحدثتهم بأحاديثها الكاذبة، ووعدتهم بمواعيدها المخلفة الغرارة.

فلم تزل تقرب لهم بعيدها، وترفع لهم مشيدها، وتلبسهم غضها وجديدها، حتى إذا تمكنت منهم علائقها، وتحكمت فيهم رواشقها، وتكشفت لهم حقائقها، ورمقتهم من المنية روامقها.

فوثبت عليهم وثبت الحنق وأغصتهم غصة الشرق، وقتلتهم قتلة المختنق، فكم عليهم من عيون باكية، ودموع جارية، وخدود دامية، وقلوب من الفرح والسرور لفقدهم خالية. وأنشدوا في هذا المعنى:

وريان من ماء الشباب إذا مشى | يميد على حكم الصبا ويميد
تعلق من دنياه إذ عرضت له | خلوبا لألباب الرجال تصيد
فأصبح منها في حصيد وقائم | وللمرء منها قائم وحصيد
خلا بالأماني واستطاب حديثها | فينقص من أطماعه ويزيد
وأدنت له الأشياء وهي بعيدة | وتفعلت تدني الشيء وهو بعيد
أتيحت له من جانب الموت رمية | فراح بها المغرور وهو حصيد
وصار هشيماً بعدما كان يانعاً | وعاد حديثاً ينقضي ويبيد
كأن لم ينل يوماً من الدهر لذة | ولا طلعت فيه عليه سعود
تبارك من يجري على الخلق حكمه | فليس لشيء منه عنه محيد

قال أحد العلماء: اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه، وقلة ذكرهم له، والذي يذكره ليس يذكر بقلب فارغ بل بقلب مشغول بالدنيا وشهواتها ولا يفيد ذكر الموت في اللسان فقط.

فالطريق النافع بإذن الله أن تفرغي قلبك عن كل شيء إلا عن ذكر الله وما والاه وذكر الموت الذي هو بين يديك، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧].

فإذا أردت أن يؤثر فيك ذكر الموت فاجعلي نفسك كالتي تريد أن تسافر إلى محل خطرٍ أو إلى مفازة مخطرة أو كالتي تريد أن تركب في البحر أو في أي مركب من المراكب الخطرة فإنها لا تفكر إلا فيه.

فإذا باشر ذكر الموت قلبك، فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحك وسرورك، وينكسر قلبك، ويضعف اهتمامك بالدنيا وشؤونها ويقوى اهتمامك للآخرة.

فيا أمة الله:

واغفلت أمري بعدهم متثبطاً | فيا عجباً مني ومن غفلاتي
إلى الله أشكو جهل نفسي فإنها | تميل إلى الراحات والشهوات
ويا رُبّ خِلٍّ كنت ذا صلة له | يرى أن دفني من أجل صلاتي

وكنت له أنساً وشمساً منيرة ... فأفردني في وحشة الظلمات
سأضرب فسطادي على عسكر البلى ... وأركز فيه للمنزل قناتي
وأركب ظهراً لا يؤوب بركب ... ولا يمتطي إلا إلى الهلكات
وليس يرى إلا بساحة ظاعن ... إلى مصرع الفرحات والنزحات
يسير أدنى الناس سيراً كسيره ... بأرفع منعي من السروات
فطوراً تراه يحمل الشم والربا ... وطوراً تراه يحمل الحصيات
ورب حصاة قدرها فوق يذبل ... كمقبول ما يرمى من الجمرات
وكل صغير كان لله خالصاً ... يربى على ما جاء في الصدقات
وكل كبير لا يكون لوجهه ... فمثل رماد طار في الهبوات
ولكنه يرجى لمن مات محسناً ... ويخشى على من مات في غمرات
وما اليوم يمتاز التفاضل بينهم ... ولكن غدا يمتاز في الدرجات
إذا روّع الخاطي وطار فؤاده ... وأفرخ روع البر في الغرفات
وما يعرف الإنسان أين وفاته ... أفي البر أم في البحر أم بفلاة
فيا إخوتي مهما شهدتم جنازتي ... فقوموا لربي واسألوه نجاتي
وجدوا ابتهالاً في الدعاء واخلصوا ... لعل إلهي يقبل الدعوات
وقولوا جميلاً إن علمتم خلافه ... وأغضوا على ما كان من هفواتي
ولا تصفوني بالذي أنا أهله ... فأشقى وحلوني بخير صفاتي
ولا تتناسوني فقدماً ذكرتكم ... وواصلتكم بالبر طول حياتي
وبالرغم فارقت الأحبة منكم ... ولما تفارقني بكم زفراتي
وإن كنت ميتاً بين أيديكم لقاً ... فروحي حي سامع لنعاتي
أناجيكم حياً وإن كنت صامتاً ... ألا كلكم يوماً إلي سياتي
وليس يقوم الجسم إلا بروحه ... هو القطب والأعضاء كالأدوات
ولا بد يوماً أن يحور بعينه ... ليجزي على الطاعات والتبعات
وإلا أكن أهلاً لفضل ورحمة ... فربي أهل الفضل والرحمات
فما زلت أرجو عفوه وجنانه ... وأحمده في اليسر والأزمات
وأسجد تعظيماً له وتذللاً ... وأعبده في الجهر والخلوات

ولست بممتن عليه بطاعتي له المن في التيسير للحسنات

* * *

يا نائما والمنون تقضى وغالباً والحمام أوفى
جاءك أمر وأي أمر طم على غيره وعفى
هل بعد هذا المشيب شيء غير تراب عليك يحثى
فليس هذا الأمر سهلاً ولا بشيء عليك يخفى
من بعد ما المرء في براح يهتز تيهاً به وظرفا
ساكن نفس قرير عين يرشف ثغر النعيم رشفا
إذ عصفت في داره ريح تقصف كل الظهور قصفا
فبات في أهله حصيدا قد جعفته المنون جعفا
فعاد ذاك النعيم بؤسا وصار ذاك السكون رجفا
وسيق سوقاً إلى ضريح يرصف بالرغم فيه رصفا
وبات للدود فيه طعماً وللهوام العطاش رشفا
وليته لم يكن رهيناً بكل ما قد هفا وأهفا

واعلمي يا أمة الله أن كثرة ذكر الموت تردع عن المعاصي وتلين القلب القاسي، وتذهب الفرح بالدنيا وزينتها وزخارفها ولذاتها.

وتحثك على الجد والاجتهاد في الطاعات وإصلاح أحوالك وشؤونك والتنسخ من حقوق الله وحقوق خلقه، وتنفيذ الوصايا وأداء الآمانات والديون.

قال بعضهم: فضح الدنيا والله هذا الموت فلم يترك فيها لذي عقل فرحاً.

وقال آخر: ما رأيت عاقلاً قط إلا وجدته حذراً من الموت حزيناً من أجله.

وقال آخر: من ذكر الموت هانت عليه مصائب الدنيا.

وقال آخر: من لم يخفه في هذه الدار ربما تمناه في الآخرة فلا يؤتاه.

وقال آخر يوصي أخاً له: يا أخي إحذر الموت في هذه الدار من قبل أن تصير إلى دار تتمنى بها الموت فلا يوجد.

قال أحد العلماء: وأما ذكر الموت والتفكر فيه، فإنه وإن كان أمراً مقدراً مفروغاً منه، فإنه يكسبك بتوفيق الله التجافي في دار الغرور، والاستعداد والإنابة إلى دار الخلود، والتفكر فيما تقدم عليه وفيما يصير أمرك إليه.

ويهون عليك مصائب الدنيا ويصغر عندك نوائبها، فإن كان سبب موتك سهلاً وأمره قريباً فهو ذاك، وإن كانت الأخرى كنت مأجوراً مع النية الصالحة فيما تقاسيه، مثاباً على ما تتحمله من المشاق.

واعلم أن ذكر الموت وغيره من الأذكار إنما يكون بالقلب وإقبالك على ما تذكره. قال الله جل جلاله وتقدست أسماؤه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧] فأي فائدة لك رحمك الله في تحريك لسانك إذا لم يخطر بقلبك.

وإنما مثل الذكر الذي يعقب التنبيه، ويكون معه النفع والإيقاظ من الغفلة والنوم أن تحضر المذكور قلبك وتجمع له ذهنك وتجعله نصب عينيك من ولد أو أهل مال أو غير ذلك، فتعلم علماً لا يشوبه شك أنك مفارقة إما في الحياة أو في الممات، وهذه سنة الله الجارية في خلقه وحكمه المطرد.

وتشعر هذا قلبك وتفرغ له نفسك فتمنعها بذلك عن الميل إلى ذلك المحبوب والتعلق به والهلكة بسببه.

فعقبى كل شيء نحن فيه ... من الجمع الكثيف إلى شتات
وما حزناه من حل وحرم ... يوزع في البنين وفي البنات
وفيمن لم نؤهلهم بفلس ... وقيمة حبة قبل الممات
وتنسانا الأحبة بعد عشر ... وقد صرنا عظاماً باليات
كأنا لم نعاشرهم بود ... ولم يك فيهم خل مؤات

ثم اعلمي أختي المسلمة أنه ما من ساعةٍ تمر على العبد لا يذكر الله فيها إلا تأسف وتحسر على فواتها بغير ذكر الله ولذلك ينبغي للعاقل أن يجعل لسانه دائماً رطباً بذكر الله.

ويقال إن العبد تعرض عليه ساعات عمره في اليوم والليلة فيراها خزائن مصفوفة، فيرى في كل خزانة أمضاها في طاعة الله ما يسره. فإذا مرت به الساعات التي غفل فيها عن ذكر الله رآها فارغةً ساءه ذلك وتندم حين لا يفيده الندم.

وأما الساعات التي كان يذكر الله فيها فلا تسأل عن سروره فيها وفرحه بها حتى يكاد أن يقتله الفرح والسرور.

قال بعضهم: أوقات الإنسان أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية والطاعة، والمعصية.

ولله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية.

فمن كان وقته الطاعة لله فسبيله شهود المنة من الله عليه أن هداه ووفقه للقيام بها.

ومن كان وقته المعصية فعليه بالتوبة والندم والاستغفار.

ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر والحمد لله والثناء عليه.

ومن كان وقته البلية فسبيله الرضا بالقضاء والصبر والرضا رضى النفس عن الله، والصبر ثبات القلب بين يدي الرب.

أختي المسلمة: العمر إذا مضى لا عوض له وما حصل لك منه لا قيمة له. فعمر الإنسان هو ميدانه للأعمال الصالحة المقربة من الله تعالى والموجبة له جزيل الثواب في الآخرة. ولكن ما يعرف قدر العمر إلا نوادر العلماء.

قال الله جل وعلا وتقدس: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] وقال تبارك وتعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤] وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ الآيات [الذاريات: ١٦].

وهذه هي السعادة التي يكدح العبد ويسعى من أجلها وليس له منها إلا ما سعى كما قال جل وعلا وتقدس: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النجم: ٣٩].

فكل جزء يفوته من العمر خالياً من عمل صالح، يفوته من السعادة بقدره ولا عوض له منه.

فالوقت لا يستدرك وليس شيء أعز منه، ولأجل هذا عظمت مراعاة السلف الصالح رضي الله عنهم لأنفاسهم ولحظاتهم، وبادروا إلى اغتنام ساعاتهم وأوقاتهم، ولم يضيعوا أعمارهم في البطالة والتقصير، ولم يقنعوا لأنفسهم إلا بالجد والتشمير فللّه درهم ما أبصرهم بتصريف أوقاتهم.

تبغي الوصول بسير فيه تقصير ... لا شك أنك فيما رمت مغرور
قد سار قبلك أبطال فما وصلوا ... هذا وفي سيرهم جد وتشمير

قال بعضهم: أدركت أقواماً كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنانيركم ودراهمكم فكما لا يخرج أحدكم ديناراً ولا درهماً إلا فيما يعود نفعه عليه فكذلك السلف لا يحبون أن تخرج ساعة بل ولا دقيقة من أعمارهم إلا فيما يعود نفعه عليهم ضد ما عليه أهل هذا الزمان من قتل الوقت عند المنكرات.

تباً لطالب دنياً لا بقاء لها ... كأنما هي في تعريفها حلم
صفاؤها كدر سرورها ضرر ... أمانها غرر أبوارها ظلم
شبابها هرم راحاتها سقم ... لذاتها ندم وجدانها عدم
لا يستفيق من الأنكاد صاحبها ... لو كان يملك ما قد ضمنت إرم
فخل عنها ولا تركن لزهرتها ... فإنها نعم في طيها نقم
واعمل لدار نعيم لا نفاد لها ... ولا يخاف بها موت ولا هرم

وقال آخر:

رفعت عرشك في الدنيا وتهت به ... وما بها للبيب ترفع العرش
وبت فيها على فرش ملينة ... ولو عقلت لما لانت لك الفرش
وظلت تسعى لآمال وتفرشها ... وللمواريث ما تسعى وتفترش
كم كان قبلك من مأسور رغبته ... بالحرص تلدغ جنباه وتنتهش
يمسي ويصبح في حل وفي ظعن ... يضم هذا إلى هذا ويحتوش
عطشان للمال محماة جوانحه ... ألقى على صدره لسانه العطش
حتى إذا قيل قد تمت مطالبه ... وطاف من حوله أهلوه واحتوشوا
مدت إليه يد للموت باطشة ... خشناء لا دهش فيها ولا رعش

فقصعته وقدما كان ذا جيد ... وجهشته ولمّا يدر ما الجهش
فبات مستلباً وبات وارثه ... وقد تغطوا بذاك المال وافترشوا
أما سمعت بأملاك مضوا قدما ... شموا الأنوف بروض الملك قد عرشوا
إن دوفعوا دفعوا أو زوحموا زحموا ... أو غولبوا غلبوا أو بوطشوا بطشوا
جاءتهموا وجنود الله غالبة ... كتائب للمنايا كلها حبش
فضعضعت جنبات عزهم ورمت ... منارهم بظلام ما به غبش
لطالما أكلوا وطالما شربوا ... وطالما رفعوا الآجام واعترشوا
مروا ولا أثر منهم بدارهموا ... ولا حسيس ولا ركز ولا قش
قد كان للقوم آمال مبسطة ... فأصبحوا قبضوا الآمال وانكمشوا

* * *

(سكرات الموت)

أختي المسلمة: إن للموت سكرات يلاقيها كل إنسان حين الاحتضار، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩]، وسكرات الموت كرباته وغمراته، قال أهل اللغة: «السكر حالة تعرض بين المرء وعقله، وأكثر ما تستعمل في الشراب المسكر، ويطلق في الغضب والعشق والألم والنعاس والغشى الناشيء عن الألم وهو المراد هنا».

وقد عانى الرسول ﷺ من هذه السكرات، ففي مرض موته صلوات الله وسلامه عليه كان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه، ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت سكرات**» أخرجه البخاري.

وتقول عائشة رضي الله عنها في مرض رسول الله ﷺ: «ما رأيت الوجع على أحد أشدَّ منه على رسول الله ﷺ» متفق عليه.

وقد دخلت عائشة رضي الله عنها على أبيها أبي بكر رضي الله عنه في مرض موته، فلما ثقل عليه، تمثلت بقول الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى ... إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه، وقال رضي الله عنه: ليس كذلك، ولكن قولي: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩].

ولا شك أن الكافر والفاجر يعانيان من الموت أكثر مما يعاني منه المؤمن، ففي حديث البراء بن عازب وفيه: أن روح الفاجر والكافر تفرق في جسده عندما يقول لها ملك الموت: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، وأنه

ينتزعها كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتقطع معها العروق والعصب.

ووصف لنا القرآن الكريم الشدة التي يعاني منها الكفرة عند موتهم، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٣ ـ ٩٤].

فيقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، ممن كذب على الله. بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه. وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب، وتغيير الأديان، أصولها، وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله ـ ما هو من أكبر المفاسد.

ويدخل في ذلك، ادعاء النبوة، وأن الله يوحي إليه، وهو كاذب في ذلك. فإنه ـ مع كذبه على الله، وجرأته على عظمته وسلطانه ـ يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية، كل مَنْ ادعى النبوة، كمسيلمة الكذّاب، والأسود العنسي، والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم، أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع، كما شرعه الله. ويدخل في هذا، كل مَنْ يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه، أن يأتي بمثله.

وأي ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني، الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته؟!!

ولما ذم الظالمين، ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: شدائده، وأهواله الفظيعة، وكربه الشنيعة ـ لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب، والعذاب. يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيها عن الخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويذلكم والجزاء من جنس العمل.

فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل. ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تترفعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه. فإن هذا الخطاب، والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند الاحتضار، وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل، على أن الروح جسم، يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد، ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة، فإنهم إذا وردوها، وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال، ولا أولاد ولا جنود، ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء. فإن الأشياء، إنما تتمول وتحصل، بعد ذلك، بأسبابها، التي هي أسبابها.

وفي ذلك اليوم تنقطع جميع الأمور، التي كانت مع العبد في الدنيا، سوى العمل الصالح، والعمل السيِّيء، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسنها وقبحها، وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال. فهي التي تنفع، أو تضر، وتسوء أو تسر. وما سواها، من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعوارض خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ﴾ أي: أعطيناكم، وأنعمنا به عليكم ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا يغنون عنكم شيئاً. ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾.

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة، والأنبياء والصالحين، وغيرهم. وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم، وشركة في عبادتهم. وهذا زعم منهم، وظلم، فإن الجميع، عبيد الله، والله مالكهم، والمستحق لعبادتهم. فشركهم في العبادة، وصرفها لبعض العبيد، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها. فلم تنفع ولم تجد شيئاً.

﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الربح، والأمن، والسعادة، والنجاة، التي زينها لكم الشيطان، وحسّنها في قلوبكم، فنطقت بها ألسنتكم. واغتررتم بهذا الزعم الباطل، الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون. وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم، وأهليكم، وأموالكم.

وفي الصحيحين: أنه كان ﷺ يناول قميصه فيضعه على وجهه وهو في سكرات الموت وعرقه يتصبب ويقول: «**اللهم أعني على سكرات الموت، اللهم هوّن علي سكرات الموت، لا إله إلا الله إن للموت لسكرات**».

قال بعض العلماء رحمهم الله: فإذا كان هذا الأمر قد أصاب الأنبياء والمرسلين، والأولياء والمتقين، فمالنا عن ذكره مشغولين؟ وعن الاستعداد، له متخلّفين؟ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨]. وما جرى على الأنبياء ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ من شدائد الموت وسكراته، فله فائدتان:

إحداهما: أن يعرف الخلق مقدار ألم الموت وأنه باطن، وقد يطلّع الإنسان على بعض الموتى، فلا يرى عليه حركة ولا قلقاً، ويرى سهولة خروج روحه، فيغلب على ظنه سهولة أمر الموت، ولا يعرف ما الميت فيه، فلما ذكر الأنبياء الصادقون في خبرهم شدة ألمه، مع كرامتهم على الله تعالى، وتهوينه على بعضهم، قطع الخلق بشدة الموت الذي يعانيه ويقاسيه الميت مطلقاً، لإخبار الصادقين عنه، ما خلا الشهيد ـ قتيل الكفار ـ على ما يأتي ذكره.

الثانية: ربما خطر لبعض الناس أن هؤلاء أحباب الله، وأنبياؤه ورسله،

فكيف يقاسون هذه الشدائد العظيمة وهو سبحانه قادر أن يخفف عنهم أجمعين؟ فالجواب: «**أن أشد الناس بلاء في الدنيا الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**» كما قال نبينا عليه السلام، خرّجه البخاري وغيره. فأحبّ الله أن يبتليَهم تكميلاً لفضائلهم لديه، ورفعة لدرجاتهم عنده، وليس ذلك في حقهم نقصاً، ولا عذاباً. بل هو كما قال كمال رفعة، مع رضاهم بجميل ما يُجري الله عليهم، فأراد الحق سبحانه أن يختم لهم بهذه الشدائد، مع إمكان التخفيف والتهوين عليهم، ليرفع منازلهم، ويعظم أجورهم قبل موتهم.

كما ابتُلي إبراهيمَ بالنار، وموسى بالخوف والأسفار، وعيسى بالصحاري والقفار، ونبينا محمداً ﷺ بالفقر في الدنيا ومقاتلة الكفار، كل ذلك لرفعة في أحوالهم، وكمال في درجاتهم، ولا يفهم من هذا أن الله شدّد عليهم أكثر مما شدد على العصاة المخطئين فإن ذلك عقوبة لهم، ومؤاخذة على إجرامهم فلا نسبة بينه وبين هذا.

فتفكري يا من غرتك الدنيا في الموت وسكرته وصعوبة كأسه ومرارته، فيا للموت من وعد ما أصدقه، ومن حاكم ما أعدله، كفى بالموت مفرجاً للقلوب، ومتكئاً للعيون ومقدماً للجماعات وهادماً للذات، وقاطعاً للأمنيات.

فهل تفكرت يا أمة الله، في يوم مصرعك، وانتقالك من موضعك؟

هل تفكرت فيما ستلاقينه من السكرات والآلام؟

هل تفكرت وأنت تلهثين وراء هذه الدنيا، أنك لن تأخذي منها سوى الكفن؟

ورحم الله من قال:

نصيبك مما تجمع الدهر كله ... رداءان تلوى فيهما وحنوط

وقال آخر:

انظر لمن حوى الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

وتأملي يا أمة الله فيما يحدث للميت حال موته فنحن وإن كنا لا نشاهده ولا نراه ولكنا نرى آثاره، وقد حدثنا ربنا سبحانه وتعالى عن حال المحتضر فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٥].

فيقول تعالى: أي فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة.

والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا ولكن لا تبصرون.

ويقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٣٠].

فيعظ تعالى عباده، بذكر المحتضر حال السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر.

فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة.

ولهٰذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾﴾، أي: من يرقيه، من الرقية، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فتعلقوا بالأسباب الإلٰهية.

ولٰكن القضاء والقدر، إذا حتم وجاء فلا مرد له.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ للدنيا.

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾، أي: اجتمعت الشدائد، والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح من البدن، الذي ألفته، ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، ليجازيها بأعمالها ويقررها بفعالها.

فهٰذا الزجر الذي ذكره الله، يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها.

ولكن المعاند الذي لا تنفع فيه الآيات، لا يزال مستمراً على غيه، وكفره وعناده.

فيا أمة الله: انتبهي وبادري بالأعمال الصالحة، فإن العمر سريع الانصرام، والأيام والليالي تمر بنا مرّ السحاب، والدنيا ما هي إلا سراب، وصدق القائل في وصفها حيث قال:

حياة وموت وانتظار قيامة ... ثلاث أفادتنا ألوف معان

فلا تمهر الدنيا الدنية إنها ... تفارق أهليها فراق لعان
ولا تطلباها من سنان وصارم ... بيوم ضراب أو بيوم طعان
فإن شئتما أن تخلصا من أذاتها ... محطا بها الأثقال واتبعان

وقال آخر:

ألا كل حي هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

وقال آخر:

هي الدنيا تقول بملء فيها ... حذار حذار من فتكي وبطشي
فلا يغروكما مني ابتسام ... فقولي مضحك والفعل مبكي

وقال آخر:

أقول ويقضي الله ما هو قاضي ... وإني بما يقضي الإله لراضي
أرى الخلق يمضي واحد بعد واحد ... فيا ليتني أدري لما أنا ماضي
كأن لم أكن حياً إذا حث غاسلي ... وأسرع لفي في ثياب بياضي

أعوام سريعة المرور، وشهور تقتفي إثر شهور، وعبر بين ذلك تترى، فعلام الغرور، فلا تغتري بالدنيا يا فتاة الإسلام، فقد نهاك الله عن الاغترار بها، وبين لك مثلها، وأراك كيف تتقلب بأهلها، فعلينا يا أمة الله أن نستيقظ من نومنا ونحاسب أنفسنا على اكتسبته من الذنوب والمعاصي، فأي نفس منا لم تحمل ظلماً، وأي جارحة من جوارحنا لم تقترف إثماً، وأي عمل من أعمالنا يليق بذل المقام، وأي وقت من أوقاتنا تمحض للطاعة وخلا من الآثام، لقد جنينا على أنفسنا بالذنوب جناية عظيمة، فلنلين القلوب بذكر هاذم اللذات، لعلها تلين، ولنعظها بذكر القبر وفتنته فإنهما لحق اليقين، ولنذكرها ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦] ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠] ﴿۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝١١١﴾ [النحل: ١١١].

وفي دون ما عاينت من فجعاتها ... إلى دفعها داع وبالزهد آمر

فجد ولا تغفل وكن متيقظاً ... فعما قليل يترك الدار عامر
وشمر ولا تفتر فعمرك زائل ... وأنت إلى دار الإقامة صائر
ولا تطلب الدنيا فإن نعيمها ... وإن نلت منها غبه لك ضائر
أما قد نرى في كل يوم وليلة ... يروح علينا صرفها ويباكر
تعاورنا آفاتها وهمومها ... وكم قد نرى يبقي لها المتعاور
فلا هو مغبوط بدنياه آمن ... ولا هو عن تطلابها النفس قاصر

أختي المسلمة: لقد أوجدنا الله تبارك وتعالى في هذه الدنيا من عدم، وأسدى علينا تعالى فيها ألواناً شتى من أنواع النعم، وأبلغنا فيها بأوامر وزواجر، وأخبرنا أننا سنموت الميتة التي كتبها تعالى علينا، ثم سيحيينا في يوم البعث والنشور والجزاء، ويكون الحساب والثواب والعقاب على ما كان لتلك الأوامر والنواهي من أصداء وآثار في نفوسنا وواقع حياتنا ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ١ ـ ٢].

ولقد أنذرنا بذلكم أنذر الزمان، ووعظنا به من قبل مواعظ القرآن، التي كثيراً ما تقرع أسماعنا قرعاً والتي لو أنزلها على جبل لرأيتموه خاشعاً متصدعاً يقول سبحانه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة: ١ ـ ١١].

ويقول: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾ [الأنبياء: ١ ـ ٣].

فهل من مدكر، فلقد جاءنا ـ وأيم الله ـ من الآيات ما فيه مزدجر، جاءنا ما ينذر بتصرم الأيام وتقصم الأعمار قيد المنون ـ جاءنا ما ينذر ويذكر بنهاية كل منا، ورجوعه إلى الله ومساءلة الله له عما ولاه فيه مهما طال عمره أو كان أمره ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧﴾ [العنكبوت: ٥٧] ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ۝٢٤ مَا

لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الصافات: ٢٤ ـ ٢٦] ولا عجب، فلكم شهدت الدنيا كثيراً وكثيراً ممن عمروها أكثر مما عمرناها نحن ممن كانوا فيها أعزة أقوياء أغنياء قادرين على كثير مما يشاؤون من إصلاح وأمر ونهي فتعجلتهم أحداثها قبل ذلك، أو طوتهم المنون فحيل بينهم وبين ما يشتهون، لا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون، وأصبحوا مرتهنين ينتظرون وضع الموازين من لدن أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، الذي لا يظلم مثقال ذرة ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠] والذي يقول وقوله الحق: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وكم شهدنا نحن وفقدنا من أقران كانوا بالأمس معنا زينة المجالس، وبهجة القلوب، وأنس النفوس، يذكروننا بالله وأيامه قد ضمتهم اللحود وخلت منهم ثغر الإصلاح ومواطن الدعوة ومواقع الركوع والسجود، ولو نطقوا لقالوا: إخواننا تزودوا فإن خير الزاد التقوى فنحن سلفكم وأنتم في الأثر، ولقد جاءكم من الأنباء ما فيه مزدجر.

فاتقي الله ـ يا أمة الله ـ وتذكري يوم النقلة والرجوع إلى الله وماذا ستقدمين عليه به، يوم أن تودعي الثرى ويتخلى عنك الأهل والأصدقاء، يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون، يوم يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى، يقول يا ليتني قدمت لحياتي، تذكري ذلك دائماً تذكر التي تريد إصلاح ما بها من فساد، والاستزادة كثيراً مما هي فيه من خير وبر وهدى ورشاد. وخذي من قوتك وعزك لضعفك وذلك، خذي من سعتك وغناك لضيقك وفقرك، خذي من عافيتك وحياتك لبلائك وموتك، خذي ليوم تعنوا فيه الوجوه للحي القيوم، ويخيب فيه من حمل ظلماً، فوالله الذي لا إله غيره ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار.

يقول تعالى وقوله الحق: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ

﴿ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾
بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى
ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٥٥ ـ ٦١].

ذنوبك يا مغرور تحصى وتحسب ... وتجمع في لوح حفيظ وتكتب
وقلبك في سهو ولهو وغفلة ... وأنت على الدنيا حريص معذب
تباهي بجمع المال من غير حله ... وتسعى حثيثاً في المعاصي وتذنب
أما تذكر الموت المفاجيك في غد ... أما أنت من بعد السلامة تعطب
أما تذكر القبر الوحيش ولحده ... به الجسم من بعد العمارة يخرب
أما تذكر اليوم الطويل وهوله ... وميزان قسط للوفاء سينصب
تروح وتغدو في مراحك لاهياً ... وسوف بأشراك المنية تنشب
تعالج نزع الروح من كل مفصل ... فلا راحم ينجي ولا ثم مهرب
وغمضت العينان بعد خروجها ... وبسطت الرجلان والرأس يعصب
وقاموا سراعاً في جهازك أحضروا ... حنوطاً وأكفاناً وللماء قربوا
وغاسلك المحزون تبكي عيونه ... بدمع غزير واكف يتصبب
وكل حبيب لبه متحرق ... يحرك كفيه عليك ويندب
وقد نشروا الأكفان من بعد طيها ... وقد بخروا منشورهن وطيبوا
وألقوك فيما بينهن وأدرجوا ... عليك مثاني طيهن وعصبوا
وفي حفرة ألقوك حيران مفرداً ... تضمك بيداء من الأرض سبسب
إذا كان هذا حالنا بعد موتنا ... فكيف يطيب اليوم أكل ومشرب
وكيف يطيب العيش والقبر مسكن ... به ظلمات غيهب ثم غيهب
وهول وديدان وروع ووحشة ... وكل جديد سوف يبلى ويذهب
فيا نفس خافي الله وارجي ثوابه ... فهادم لذات الفتى سوف يقرب
وقولي إلهي أولني منك رحمة ... وعفوا فإن الله للذنب يذهب
ولا تحرقن جسمي بنارك سيدي ... فجسمي ضعيف والرجا منك أقرب
فما لي إلا أنت يا خالق الورى ... عليك إتكالي أنت للخلق مهرب

وصـلـي إلـهـي كـلـمـا ذر شـارق　　على أحمد المختار ما لاح كوكب

فيا من غفلت ولهت، تيقظي قبل فوات الأوان وانتبهي قبل هجوم هادم اللذات ومفرق الجماعات، ومذل الرقاب، ومشتت الأحباب، فيا له من زائر لا يعوقه عائق، ولا يضرب دونه حجاب، ويا له من نازل لا يستأذن على الملوك ولا يلج من الأبواب، ولا يرحم صغيراً ولا يوقر كبيراً ولا يخاف عظيماً ولا يهاب، ألا وإن بعد الموت ما هو أعظم منه من السؤال والجواب، ووراءه هول البعث والحشر وأحوال الصعاب، من طول المقام والازدحام في الأجسام والميزان والصراط والحساب.

غفلت وحادي الموت في أثري يحدو　　فـإن لـم أرح يـومـي فـلا بـد أن أغـد
أنـعـم جـسـمـي بـالـلـبـاس ولـيـنـه　　وليس لجسمي من لباس البلى بد
كـأنـي بـه قـد مـر فـي بـرزخ الـبـلـى　　ومـن فـوقـه ردم ومـن تـحـتـه لـحـد
وقد ذهبت مني المحاسن وانمحت　　ولم يبق فوق العظم لحم ولا جلد
أرى العمر قد ولى ولم أدرك المنى　　ولـيـس مـعـي زاد وفـي سـفـري بـعـد
وقد كنت جاهرت المهيمن عاصياً　　وأحـدثـت أحـداثـاً ولـيـس لـهـا رد
وأرخيت خوف الناس ستراً من الحيا　　وما خفت من سري غداً عنده يبدو
بـلـى خـفـتـه لـكـن وثـقـت بـحـلـمـه　　وأن لـيـس يـعـفـو غـيـره فـلـه الـحـمـد
فلو لم يكن شيء سوى الموت والبلى　　عن اللهو لكن زال عن رأينا الرشد
عـسـى غـافـر الـزلات يـغـفـر زلـتـي　　فقد يغفر المولى إذا أذنب العبد
أنـا عـبـد سـوء خـنـت مـولاي عـهـده　　كـذلـك عـبـد الـسـوء لـي لـه عـهـد
فـكـيـف إذا أحـرقـت بـالـنـار جـثـتـي　　ونارك لا يقوى لها الحجر الصلد
أنا الفرد عند الموت والفرد في البلى　　وأبـعـث فـرداً فـارحـم الـفـرد يـا فـرد

فيا أمة الله انتبهي قبل الرحيل وابكي على ذنوبك، وتوبي إلى مولاك.

تـفـيـض عـيـونـي بـالـدمـوع الـسـواكـب　　ومـالـي لا أبـكـي عـلـى خـيـر ذاهـب
عـلـى الـعـمـر إذ ولـى وحـان انـقـضـاؤه　　بـآمـال مـغـرور وأعـمـال نـاكـب
عـلـى غـرر الأيـام لـمـا تـصـرمـت　　وأصبحت منها رهن شؤم المكاسب
عـلـى زهـرات الـعـيـش لـمـا تـسـاقـطـت　　بـربـح الأمـانـي والـظـنـون الـكـواذب

على أشرف الأوقات لما غبنتها بأسواق غبن بين لاهٍ ولاعب
على أنفس الساعات لما أضعتها وقضيتها في غفلة ومعاطب
على صرفي الأيام في غير طائل ولا نافع من فعل فضل وواجب
على ما تولى من زمان قضيته ورجيته في غير حق وصائب
على فرص كانت لو أني انتهزتها لقد نلت فيها من شريف المطالب
وأحيان آناء من الدهر قد مضت ضياعاً وكانت موسماً للرغائب
على صحف مشحونة بمآثم وجرم وأوزار وكم من مثالب
على كم ذنوب كم عيوب وزلة وسيئة مخشية في العواقب
على شهوات كانت النفس أقدمت عليها بطبع مستحث وغالب
على أنني آثرت دنيا دنية منغصة مشحونة بالمعائب
على عمل للعلم غير موافق وما فضل علم دون فعل مناسب
على فعل طاعات بسهو وغفلة ومن غير إحضار وقلب مراقب
أصلي الصلاة الخمس والقلب جائل بأودية الأفكار من كل جانب
على أنني أتلو القرآن كتابه تعالى بقلب ذاهل غير راهب
على طول آمال كثير غرورها ونسيان موت وهو أقرب غائب
على أنني قد أذكر الله خالقي بغير حضور لازم ومصاحب
على أنني لا أذكر القبر والبلى كثيراً وسفراً ذاهباً غير آيب
على أنني عن يوم بعثي ومحشري وعرضي وميزاني وتلك المصاعب
مواقف من أهوالها وخطوبها يشيب من الولدان شعر الذوائب
تغافلت حتى صرت من فرط غفلتي كأني لا أدري بتلك المراهب
على النار أني ما هجرت سبيلها ولا خفت من حياتها والعقارب
على السعي للجنات دار النعيم وال‍ كرامة والزلفى ونيل المآرب
من العز والملك المخلد والبقا وما تشتهيه النفس من كل طالب
وأكبر من هذا رضا الرب عنهم ورؤيتهم إياه من غير حاجب
فآهاً على عيش الأحبة ناعماً هنيئاً مصفى من جميع الشوائب
وآهاً علينا في غرور وغفلة عن الملا الأعلى وقرب الحبائب

وآهاً على ما فات من هدي سادة ... ومن سيرة محمودة ومذاهب
على مالهم من همة وعزيمة ... وجد وتشمير لنيل المراتب
على مالهم من عفة وفتوة ... وزهد وتجريد وقطع الجواذب
على مالهم من صوم كل هجيرة ... ومن خلوه بالله تحت الغياهب
على الصبر والشكر اللذين تحققا ... وصدق وإخلاص وكم من مناقب
على ما صفا من قربهم وشهودهم ... وما طاب من أذواقهم والمشارب
وأستغفر الله العظيم جلاله ... وقدرته في شرقها والمغارب
إليه مآبي وهو حسبي وملجئي ... ولي أمل في عطفه غير خائب
وأسأله التوفيق فيما بقي لما ... يحب ويرضى فهو أسنى المطالب
وأن يتغشانا بعفو ورحمة ... وفضل وإحسان وستر المعائب
وأن يتولانا بلطف ورأفة ... وحفظ يقينا شر كل المعاطب
وأن يتوفانا على خير ملة ... على ملة الإسلام خير المواهب
مقيمين للقرآن والسنة التي ... أتانا بها عالي الذرى والمراتب
محمد الهادي البشير نبينا ... وسيدنا بحر الهدى والمناقب
عليه صلاة الله ثم سلامه ... وآل وأصحاب له كالكواكب

* * *

الواردات علينا كلها منن ... من ربنا فله الإحسان والحسن
إنا لنا كل شيء من مواهبه ... ما لا تحيط به عين ولا أذن
فشكر بعض أياديه التي شملت ... عن شكرها يعجز العلامة اللسن
يا عالم الغيب لا يخفاه خافية ... وعلمه يتساوى السر والعلن
أهل البسيطة طرّاً تحت قبضته ... وكلهم بالذي يأتيه مرتهن
بحكمة وبعلم كان مبتدئاً ... هذا الوجود الذي حارت له الفطن
دحى البسيطة فرشاً للأنام وقد ... علت عليها الجبال الشم والقنن
كيلا تميد بأهليها وأودعها ... لهم منافع إن ساروا وإن قطنوا
بنى السماء بأيد فوقها وحوت ... عجائباً أعرضوا عنها وما فطنوا
ففي التأمل في آياتها عبر ... لو كان يطلق عن أفكارنا الرسن

وقد حكى الله إعراض العباد فهل غطى على العين من أفكارنا الوسن
إن التفكر في آيات خالقنا عبادة الفكر فيها الخلق قد غبنوا
تزداد بالفكر إيماناً ومعرفة فلا يفوتك شيء ما له ثمن
من الإله علينا بالكتاب فقل يا منة قصرت من دونها المنن
فصرف الفكر في الذكر الحكيم تجد فيه العلوم التي لم يحوها الفطن
آياته أعجزت كلا بلاغتها وأبلغ الخلق قد أودى به اللكن
أدلة وأقاصيص وأمثلة لفظ بليغ ومعنى فائق حسن
غص بحره تلق فيه الدر مبتذلاً وفلك فكرك في أمواجه السفن
كم قصة وصفت أخبار من درجوا من صالح وشقي ربه الوثن
قف بالمثاني ترى آياتها عجباً أو بالمئين ففيها كلها المنن
أو الطوال ففيها العلم أجمعه خزائن هي للأحكام تختزن
وفي المفصل آيات مفصلة قوارع لقلوب ما بها درن
إن الذنوب لأوساخ القلوب فلا يكن فؤادك بيتاً حشوه الدمن
وداو قلبك من قبل الممات فما يجدي الدواء بميت بعد ما دفنوا
بمرهم التوبة الصدق النصوح فذا هو الدواء لذاك الداء لو فطنوا
ونار ذنبك تطفيها الدموع إذا أثارها الخوف من مولاك والحزن
بادر بهذا الدوا من قبل ميتته فما لسهم القضا من دونه جنن
ورب شخص توفى قبله وثوى في صدره فهو قبر والحشا كفن
تراه في الناس يمشي حاملاً جدثاً فهل بأعجب من هذا أتى الزمن
فأسأل الله توفيقاً يكون به حسن الختام ففيه الفوز مرتهن
ففي الصلاة على خير الورى وعلى الآ ل الكرام مع التسليم يقترن

* * *

(تمني الإنسان الرجعة حين الاحتضار)

وحينما ينزل الموت بالإنسان ـ أختي المسلمة ـ ويتذكر تفريطه في حق الله تعالى يتمنى العودة إلى الدنيا، فإن كان كافراً يتمنى العودة إلى الدنيا لكي يسلم ويعمل الصالحات، وإن كان عاصياً تمنى العودة إلى الله لكي يتوب من المعاصي والأوزار ويبادر إلى طاعة الواحد القهار، ولكن هيهات هيهات فقد انتهى وقت العمل وحان وقت الحساب والجزاء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

فيخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى مآله، وشاهد قبح أعماله. فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك ليقول: ﴿لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله، ﴿كَلَّآ﴾ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون، ﴿إِنَّهَا﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ أي: مجرد قول اللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعَاد لما نُهِي عنه.

﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم، برزخ، وهو الحاجز بين الشيئين، هو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة. وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من ابتداء موتهم، واستقرارهم في قبورهم، إلي يوم يبعثون، أي: فَلْيُعِدوا له عُدَّتَه، وليأخذوا له أُهْبَتُه.

قال بعض العلماء: بينما الإنسان في صحته متمتعاً فرحاً بقوته وشبابه، لا يخطر له الضعف على قلب، ولا الموت على بال، إذ هجم عليه المرض، وجاء الضعف بعد القوة، وحل الهم من نفسه محل الفرح، والكدر مكان الصفاء، ولم يعد يؤنسه جليس ولا يريحه حديث ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، قد سئم ومل مما كان يرغبه في أيام صحته، وصار لا يشتهي الغذاء، ويكره تناول الدواء، على بقاء في لبه وصحته في عقله، يفكر في عمر أفناه، وشباب أضاعه في الفسوق والعصيان وعند الملاهي والمنكرات.

ويتذكر أموالاً جمعها، ودوراً بناها، وقصوراً شيدها، وضياعاً جد وكد في حيازتها، ويتألم لدنيا فارقها، ويترك ذرية ضعافاً يخاف عليهم الضياع من بعده مع اشتغال نفسه بمرضه وآلامه، وتعلق قلبه بما يعجل شفاءه، ولكن ما الحيلة إذا استفحل الداء، ولم يفد الدواء، وحار الطبيب، ويئس الحبيب، ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩﴾ [ق: ١٩].

عند هذا يستشعر الندم على ما مضى، ويحس بعواقب التفريط والإهمال، وقد تغير لونه، وغارت عيناه، ومال عنقه وأنفه، وذهب حسنه وجماله، وخرس لسانه، وصار بين أهله وأصدقائه ينظر ولا يفعل، ويسمع ولا ينطق، يقلب بصره فيمن حوله من أولاده وأهله وإخوته وأقاربه وأحبابه وجيرانه، ينظرون ما يقاسيه من كرب وشدة، ولكنهم عن إنقاذه أو تخفيف كربه عاجزون.

أحاطت به أحزانه وهمومه ... وأبلس لما أعجزته المقادر
فليس له من كربة الموت فارج ... وليس له مما يحاذر ناصر
وقد جشأت خوف المنية نفسه ... ترددها منه اللها والحناجر
فكم موجع يبكي عليه مفجع ... ومستنجد صبراً وما هو صابر
ومسترجع داع له الله مخلصاً ... يعدد منه كل ما هو ذاكر
وكم شامت مستبشر بوفاته ... وعما قليل للذي صار صائر
وحل أحب القوم كان بقربه ... يحث على تجهيزه ويبادر
وشمر من قد أحضروه لغسله ... ووجه لما فاض للقبر حافر
وكفن في ثوبين واجتمعوا له ... مشيعة إخوانه والعشائر
فلو أبصرت عيناك أولاده الذي ... على فقده منهم قلوب تفطر

لعاينت من قبح المنية منظراً ... يهال لمرآه ويرتاع ناظر
أكابر أولاد يهيج اكتئابهم ... إذا ما تناسوه البنون الأصاغر
وربة نسوان عليه جوازع ... مدامعهم فوق الخدود عوازر
ثوى مفرداً في لحده وتوزعت ... مواريثه أولاده والأصاهر
وأحنوا إلى أمواله يقسمونها ... فلا حامد منهم عليها وشاكر
فيا عامر الدنيا ويا ساعياً لها ... ويا آمنا مما تدور الدوائر
ستلقى الذي لاقى على الرغم آنفاً ... فخذ أهبة واحرص فما لك عاذر

وبعد أن كانوا يحبون حياته وبقاءه، صاروا يتمنون موته وراحته، وهو يعلم أنه عما قليل مأخوذ من بينهم، حيث لا يقدرون على منعه، ولا يستطيعون رد روحه إلى بدنه، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧].

ثم لا يزال يعالج سكرات الموت وشدائده ويشتد به النزع، وجعل يتابع نفسه، واختل نبضه، وتعطل سمعه وبصره كما تعطل قبل ذلك لسانه، حتى إذا جاء الأجل ونفذ القضاء وفاضت روحه إلى السماء، صار جثة هامدة، وجيفة بين أهله وعشيرته، قد استوحشوا من جانبه وتباعدوا، ومات اسمه الذي كانوا يعرفونه كما مات شخصه الذي كانوا يأنسون به، وأصبحوا يقولون الميت بعد أن كانوا ينادونه باسمه حياً.

فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أخذ الغاسل فجرده من ثيابه وصار يقلبه عرياناً ويضع يده على سوأته وعورته وقد كان يستحي ويخجل منه حال حياته. ثم أدرج في أكفانه كما يدرج المتاع في لفافته، وبعد الصلاة عليه يحملونه إلى حفرة عميقة ضيقة موحشة ويتركونه وحيداً لا أنيس ولا رفيق إلا عمله.

فأمسوا رميماً في التراب وعطلت ... مجالسهم منهم وأخلي المقاصر
وحلوا بدار لا تزاور بينهم ... وأنى لسكان القبور التزاور
فما أن ترى إلا قبوراً ثووا بها ... مسطحة تسفي عليها الأعاصر

فما صرفت كف المنية إذ أتت ... مبادرة تهوي إليها الذخائر
ولا دفعت عن الحصون التي بنى ... وحفت بها أنهاره والدساكر
ولا قارعت عنه المنية حيلة ... ولا طمعت في الذب عنها العساكر
أتاه من الجبار مالا يرده ... وأمر قضاه الله لا بد صائر
مليك عزيز لا يرد قضاؤه ... حكيم عليم نافذ الأمر قاهر
عنى كل ذي عز لعزة وجهه ... فكم من عزيز للمهيمن صاغر
لقد خضعت واستسلمت وتضاءلت ... لعزة ذي العرش الملوك الجبابر

وقف بعض السلف على إنسان شديد الحزن فقال من أي شيء أنت محزون؟ قال: لأني أصبت في نفسي وذلك أني قتلتها بالذنوب فأنا حزين عليها، ثم أسبل دمعه فقال له: ما يبكيك الآن؟ قال: ذكرت يوماً مضى من أجلي لم يحسن فيه عملي، فبكائي لقلة الزاد، وبعد المفازة، وعقبة لا بد لي من صعودها، ثم لا أدي أين يهبط بي إلى الجنة أم إلى النار.

ثم أنشد:

يا راكباً يطوي مسافة عمره ... بالله هل تدري مكان نزولكا
شمر وقم من قبل حظك في الثرى ... في حفرة تبلى بطول حلولكا

* * *

قف بالقبور وقل على ساحتها ... من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكرم منكم في قعرها ... قد ذاق برد الأمن من روعاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن ... تصف الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل في روضة ... يفضي إلى ما شاء من دوحاتها
والمجرم الطاغي بها متقلب ... في حفرة يأوي إلى حياتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ... في شدة التعذيب من لدغاتها

فيا أمة الله:

كم أخرس الموت في قبر وقفت به ... عن الجواب لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف ... فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

فالبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعد للحوق بهم، ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم حتى يلحق بهم، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له لكان ذلك اليوم أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها لأنهم عرفوا قدر الأعمار والأعمال وانكشفت لهم حقائق الأمور وإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبة فيضاعف له الثواب.

لا يحقر الرجل اللبيب دقيقة ... في السهو فيها للوضيع معاذر
فكبائر الرجل الصغير صغيرة ... وصغائر الرجل الكبير كبائر

وقال آخر:

يا رب ما لي غير لطفك ملجا ... ولعلني عن بابه لا أطرد
يا رب هب لي توبة أقضي بها ... دينا علي به جلالك يشهد
أنت الخبير بحال عبدك إنه ... بسلاسل الوزر الثقيل مقيد
أسفاً على عمري الذي ضيعته ... تحت الذنوب وأنت فوقي ترصد
يا رب قد ثقلت علي كبائر ... بإزاء عيني لم تزل تتردد
يا رب إن أبعدت عنك فإن لي ... طمعاً برحمتك التي لا تبعد
أنت المجيب لكل داع يلتجي ... أنت المجير لكل من يستنجد
من أي بحر غير بحرك نستقي ... ولأي باب غير بابك نقصد

فيا أختي المسلمة: ما من أحد يموت إلا ندم، إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع، فإن الأموات عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة، وأنت يا أمة الله قادرة على تلك الساعة وربما أقدرك الله على أمثالها.

ثم أنت تضيعين وقتك، وتقتلينه فيما لا فائدة فيه، أو فيما فيه مضرة عليك فوطني نفسك على الندم والتحسر على تضييع الوقت عند خروج الأمر من اختيارك وعدم تمكنك من العمل الصالح.

واذكري قول الله جل وعلا: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ

ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الآيات [الزمر: ٥٦] وقوله عز من قائل: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠] وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩] وقوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ الآية [يونس: ٣٠] وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

ونحو هذه الآيات التي هي بالحقيقة لمن تدبرها أبلغ من السياط، في الحث على التزود للمعاد، وصيانة الوقت وصرفه فيما يقرب إلى الله جل وعلا.

* * *

(مشاهد الاحتضار)

أختي المسلمة: إن مما لا شك فيه أن الله قد جعل لخلقه أجلا هم بالغوه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ ومن تأمل في الموت علم أنه كأس تدار على من أقام أو سار، يخرج به العباد من الدنيا إلى جنة أو نار، ولو لم يكن في الموت إلا الإعدام وانحلال الأجسام ونسيان أجمل الليالي والأيام، لكان والله لأهل اللذات مكدراً، ولأصحاب النعيم مغيراً، ولأرباب العقول عن الرغبة في هذه الدار زاجراً ومُنَفِّراً، كيف وبعد الموت ما بعده من الأهوال العظيمة، والكرب الشنيعة، والحساب والجزاء، فلنتأمل في هذا جيداً يا أمة الله.

وإن الإنسان مأسور بالاستعداد للقاء الله تعالى في كل حين فإنه لا يدري متى يأتيه ملك الموت لقبض روحه وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ وقد أكد الله سبحانه هذه الحقيقة وأوضحها في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم فقال سبحانه ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ قال الإمام ابن كثير رحمه الله: هذه الآية فيها تعزيه لجميع الناس فإنه لا يبقى أحد على وجه الأرض حتى يموت فما أسعد من استعد لتلك الساعة وعمل من أجلها.

وإن هذا الأمر والله أمر عظيم، وخطب جسيم، فما ظنك يا أمة الله بنازل ينزل بك فيذهب رونقك وبهاءك، ويغير منظرك وقوامك، ويردك بعد النعمة والنَّضرة، وبعد السطوة والقدرة إلى حاله يبادر فيها أحب الناس إليك وأرحمهم وأعطفهم عليك فيقذفك في حفرة من الأرض، قريبة أنحاؤها، مظلمة أرجاؤها، لينخر في جسمك هوامُّها وديدانها.

فالموت يا أمة الله سنة الله في الأولين والآخرين، وإذا أتى ملك الموت إلى شخص فإنه ربما سيأتيك بعده وربما يأتي غيرك بعد أن يقضي عليك، ومن هنا اشتد خوف السلف واشتد فزعهم من الموت، وعملوا بوصية الحبيب المصطفى ﷺ بالإكثار من ذكر الموت، وتدبر أمره، إذ قال: «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات الموت**».

فهذا الحسن البصري يقول عنه أصحابه: كنا ندخل على الحسن فما هو إلا النار والقيامة والآخرة وذكر الموت.

وهذا عمر بن عبد العزيز يقول: لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة فسد قلبي.

وحينما يشعر الإنسان بدنو الأجل واقتراب الرحيل واقتراب ساعة الوداع حيث تشخص العينان، وتلتف الساقان، وتخور قوى الإنسان حينما يكون في تلك الحال على الجسر الفاصل بين الحياة الدنيا الفانية والحياة الآخرة الباقية يظهر عندها من المحتضر كلمات يرددها أو وصايا يقدمها أو حركات أو إشارات بيديه أو طرفه أو رأسه أو غير ذلك، ومن تلك الأقوال والأفعال ما يكون فيه العظة والعبرة، ويكون له كذلك في أكثر الأحيان دلالة على حسن أو سوء الخاتمة، نسأل الله سبحانه الفوز والنجاة والسلامة من سوء الخاتمة.

وقد وصف الله سبحانه بعض الصفات التي يكون عليها المحتضر في احتضاره وفي سكرات موته حيث قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠].

فهذا إخبار من الله سبحانه عن حالة الاحتضار وما عنده من الأحوال حيث أخبر سبحانه أن الروح تنتزع من الجسد حتى تبلغ التراقي وهي العظام التي بين ثغرة النحر والعاتق وأنه يطلب عندها الطبيب المداوي ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ ثم قال سبحانه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ أي تلتقي عليه الشدة بالشدة إلا من رحمه الله سبحانه، وأن ساقيه تلتفان ثم تموتان بعد الحياة وبعد ذلك تلفان في الكفن، ويشرع الناس بتجهيز الجسد وتشرع الملائكة بتجهيز الروح.

وقال سبحانه أيضاً: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧].

فيقول سبحانه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ أي الروح ﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾ أي الحلق وذلك حين الاحتضار ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ أي وأنتم حينئذ تنظرون إلى المحتضر وما يكابره ويعانيه من سكرات الموت ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي بملائكتنا ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي ولكن لا ترونهم ولا تشاهدونهم ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ فهلا إذ كنتم تزعمون إنكم غير مبعوثين ولا محاسبين، ترجعون هذه الروح إلى بدنها وإلى مكانها الأول وإلى مقرها في الجسد فهلا فعلتم ذلك إن كنتم صادقين؟ ولكن هيهات هيهات.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام: ٩٣].

والمعنى أنك لو عاينت الحالة التي يُتوفى عليها الكفار لرأيت أمراً عظيماً هائلاً فظيعاً منكراً، فلو رأيت هؤلاء في غمرات الموت، أي في سكراته وكرباته وشدائده وذلك لأن الكافر إذا احتضر بشرته الملائكة بالعذاب والنكال والأغلال والسلاسل والجحيم والحميم، وغضب الرحمن الرحيم، فتتفرق روحه في جسده وتعصي وتأبى الخروج فتضربهم الملائكة على وجوههم وأدبارهم كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٥٠ ـ ٥١] فتضربهم الملائكة على وجوههم وأدبارهم وتعنفهم بأن هذا العذاب إنما هو بما كسبته أيديهم وبسبب أعمالهم السيئة في الدنيا جازاهم الله هذا الجزاء، والله سبحانه هو الحكم العدل الذي لا يجور ولا يظلم تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك وهو الغني الحميد، وهو القائل سبحانه كما الحديث القدسي: «**يا عبادي إني**

حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»... «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» رواه الإمام مسلم.

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

فهذه الآيات إخبار من الله تعالى وبشارة للمؤمنين المتقين بأن الملائكة تتنزل عليهم عند الموت وفي قبورهم وحين يبعثون فتؤمنهم الملائكة بأمر الله وتأمرهم بأن لا يخافوا مما هم مقدمون عليه من أمر الآخرة وأن لا يحزنوا على ما خلفوه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال فإن الله تعالى سيكفيهم أمر ذلك كله، ويبشرونهم أيضاً بذهاب الشر وحصول الخير. وبذلك يؤمِّن الله تعالى خوف المؤمنين ويقرُّ أعينهم فما من عظيمة يخشاها الناس يوم القيامة إلا وهي للمؤمن قرةُ عين كما أن الملائكة تقول للمؤمنين عند الاحتضار نحن كنا قرناؤكم في الحياة الدنيا نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله تعالى، وكذلك نكون معكم في الآخرة، نؤنس منكم الوحشة في القبور، وعند النفخ في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوز بكم الصراط المستقيم ونوصلكم إلى جنات النعيم.

وأخبر سبحانه أيضاً: بأن ملائكته تبشر عباده المتقين وهم على تلك الحال بأن مآلهم الجنة التي لهم فيها جميع ما يختارونه مما تشتهيه النفوس وتقر به العيون وأنهم مهما طلبوا وجدوه وحضر بين أيديهم كما اختاروه وكل ذلك عطاءٌ وضيافة وإنعام من غفور لذنوبهم رحيم رؤوف بهم حيث غفر وستر ولطف، فنسأل الله الكريم أن يلطف بنا وأن يغفر لنا ويرحمنا فهو سبحانه الكريم الرحمن الغفور الرحيم جل وعلا.

قال بعض أهل العلم يصف الموت والاحتضار: اعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها على الحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذقها إنما يعرفها بالقياس على الآلام التي أدركها.

فألم النزع يهجم على الروح نفسها فستغرق جميع أجزائها، ومن كل عرق من العروق، ومن كل عصب من الأعصاب، وكل مفصل من المفاصل، ومن أصل كل شعرة وبشرة، ومن أعلى الرأس إلى أسفل القدمين، فلا تسأل عن كربه وألمه حتى قالوا: إن الموت أشد من ضرب بالسيف، ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض، لأن ألم الضرب بالسيف أو النشر أو غيرهما إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان المجذوب والمنتزع هو الروح نفسها.

وإنما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء القوة في قلبه ولسانه، ولكن المحتضر ينقطع صوته وصياحه وتضعف قوته وتخور قواه لأن الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلب بألم شديد حتى غلب على كل موضع من جسده فهد كل جزء وأضعف كل جارحة، فلم يترك له قوة الاستغاثة، أما العقل فقد غشيه ألم الموت وشوشه، وأما اللسان فقد انكمه وأما الأطراف فقد أضعفها، ويود المحتضر أن لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح وغير ذلك، ولكنه لا يستطيع فإن بقيت فيه قوة سمعت منه عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره، وقد تغير لونه وانتشر الألم في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعلى جفونه، ويتقلص اللسان إلى أصله، وتخضَّر أنامله، فلا تسأل عن جسد يجذب منه كل عرق من عروقه ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة بعد سكرة، وكربة بعد كربة، حتى يبلغ بها الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظر العبد عن الدنيا وأهلها وينغلق دونه باب التوبة وتحيط به الندامة والحسرة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فماذا يفعل العبد حين تبلغ روحه الحلقوم؟

ماذا يفعل العبد حين تقبض الملامح؟

ماذا يفعل العبد حين يحس الكرب والضيق ويعاني من شدة ألم سكرات الموت؟

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما ثقل رسول الله ﷺ جعل يتغشاه الكرب فقالت فاطمة: واكرب أبتاه فقال لها: «**ليس على أبيك كرب بعد الموت**» فلما مات قالت: يا أبتاه يا أبتاه، أجاب ربا دعاه يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه،

يا أبتاه إلى جبريل ننعاه، فلما دفن قالت: يا أنس كيف طابت نفوسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟» رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألم تروا إلى الإنسان إذا مات شخص بصره؟»** قال: بلى، قال: **«فذلك حين يتبع بصره نفسه»** رواه مسلم.

فهنا وفي هذه اللحظة قد فرغت الروح من أمر الدنيا، وخلفت وراءها الأرض وما فيها. وهي تستقبل عالما لا عهد لها به، ولا تملك من أمره شيئاً إلا ما أدخرت من عمل، وما كسبت من خير أو شر هنا، وهي ترى ولا تملك الحديث عما ترى، وقد انفصلت عمن حولها وما حولها الجسد هو الذي يراه الناظرون ولكنهم ينظرون ولا يرون ما يجري ولا يملكون من الأمر شيئاً، هنا تقف قدرة البشر، ويقف علم البشر، وينتهي مجال البشر، هنا يعرفون أنهم عجزة عجزة، قاصرون قاصرون، هنا تنفرد القدرة الإلٰهية، والعلم الإلٰهي، ويخلص الأمر كله لله بلا شائبة ولا شبهة ولا جدال ولا محال ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥].

إن مشهد الاحتضار ذو لمسة عميقة مؤثرة حين تبلغ الروح الحلقوم، ويقف صاحبها على حافة العالم الآخر، ويقف الجميع مكتوفي الأيدي عاجزين لا يملكون له شيئاً ولا يدرون ما يجري حوله ولا ما يجري في كيانه ويخلص أمره كله لله قبل أن يفارق هذه الحياة، ويرى هو طريقه المقبل حين لا يملك أن يقول شيئاً عما يرى ولا أن يشير.

وفي هذه اللحظات يتمنى الإنسان أن يعود إلى الدنيا ليعمل العمل الصالح ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

إنه مشهد الاحتضار وإعلان التوبة عند مواجهة الموت وطلب الرجعة إلى الحياة لتدارك ما فات والإصلاح فيما ترك وراءه، ولكن يأتي الرد على هذا الرجاء المتأخر ويعلن على رؤوسهم الأشهاد ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ

﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] نسأل الله السلامة من ذلك.

ولما اشتد وجع النبي ﷺ وتمادى به مرضه الذي توفي فيه كانت عائشة تقرأ عليه المعوذات وتمسح بيده الشريفة على نفسه واجتمع نساء النبي ﷺ عنده في بيت عائشة معهن فاطمة عليها السلام، قالت عائشة: إن من نعم الله تبارك وتعالى علي أن رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وإن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، ودخل علي عبد الرحمن وبيده السواك فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه وقلت: ألينهُ لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته، وكان بين يديه ركوة أو علبة فيها ماء فجعل النبي ﷺ يدخل يديه الشريفة في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول: «**لا إله إلا الله أن للموت لسكرات**»، ثم نصب يديه فجعل يقول: «**اللهم الرفيق الأعلى**» حتى قبض ومالت يديه.

وكان ﷺ يردد قبل أن يموت وهو جالس مُسندٌ إلى ظهره: «**اللهم اغفر لي وارحمني والحقني بالرفيق**» ثم مات المصطفى ﷺ وفاضت أطهر روح إلى بارئها سبحانه وتعالى وإنا لله وإنا إليه راجعون.

فجودي يا عين بالدموع وأَعْولي ... لِفقْدِ الذي لا مِثْله الدهرَ يوجَدُ
وما فقد الماضون مثل محمدٍ ... ولا مثله حتى القيامة يُفْقَدُ

فتأملي يا أمة الله: هل أمهل الله رسوله ساعة عند انقضاء عمره؟

هل أخره لحظة بعد حضور منيته؟

لا، بل أرسل الله إليه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام فجدُّوا بروحه الزكية الكريمة ليقبضوها وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان، بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن، فاشتد مع ذلك كربه، وظهر أنينه، وترادف قلقه، وارتفع حنينه، وتغير لونه، وعَرِق جبينه، واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه، حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره، فهل رأيت منصب النبوة دافعاً عنه مقدوراً؟

وهل تركه إذ كان للحق نصيراً وللخلق بشيراً ونذيراً؟

هيهات بل امتثل ما كان به مأموراً، واتّبع ما وجده في اللوح مسطوراً، فهكذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود، والحوض المورود، وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض، فالعجب والله أنا لا نعتبر، ولا نكون على ثقة فيما نلقاه بل نحن أُسَرَاءُ الشهوات وقرناء المعاصي والسيئات.

فما لنا لا نتعظ بوفاة محمد سيد المرسلين وإمام المتقين، لعلنا نظن أننا مخلدون، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون، هيهات هيهات، بل علينا أن نتيقن أنّا جميعاً على النار واردون ثم لا ينجو منها إلا المتقون.

وهذا أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه لما حضرته الوفاة جاءت عائشة رضي الله عنها، فتمثلت بهذا البيت وقالت:

لعمرك ما يُغنى الثراءُ عن الفتى ... إذا حشرجتْ يوماً وضاق بها الصَّدْر

فكشف عن وجهه رضي الله عنه وقال: ليس كذلك يا ابنتي ولكن قولي ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾ [ق: ١٩] ثم قال: أُنظروا ثوبيّ هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحي أحوج إلى الجديد من الميت.

وهذا ابن عمر يقول: كان رأس والدي عمر رضي الله عنه في حَجْري لما طُعن فقال لي: ضع رأسي بالأرض قال: فلم أفعل فأعاد مقولته فلم أفعل فقال في الثالثة: ضع خدّي بالأرض لا أمّ لك ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله عز وجل لي.

وهذا ابن عباس جاء يستأذن على عائشة الصديقة بنت الصديق وهي في الموت فرفضت أن تأذن له فقال عبد الله ابن أخيها عبد الرحمن يا أمّه إن ابن عباس من صالحي بنيك يُوَدّعك ويسلم عليك. قالت فائذن له إن شئت قال: فجاء ابن عباس فلما قعد قال: أبشري فوالله ما بينك وبين أن تُفارقي كل نَصَب وتَلقي محمداً ﷺ والأحبة إلا أن تفارق روحُك جسدك قالت: إيهاً يا ابن عباس قال: كنت أحبَّ نساء رسول الله ﷺ إليه ولم يكن يحب إلا طَيّباً، سقطت قلادتُك، وأصبح رسول الله ﷺ ليلتقطها فأصبح الناس ليس معهم ماء فأنزل الله ﴿فَتَيَمَّمُوا

﴿صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ فكان ذلك من سببك، ثم أنزل الله تعالى براءتك من فوق سبع سماوات فأصبح ليس مسجد من مساجِدَ يذكر فيها الله إلا براءتُك تُتلى فيه إناء الليل والنهار. ثم قالت عائشة وهي تعاني ما تعانيه من سكرات الموت: دعني عنك يا ابن عباس فوالله لوددت أني كنت نسياً منسياً.

وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه تقول عنه أم الدرداء رضي الله عنهما: لما احتضر أبو الدرداء أخذ يقول وهو في سكرات يعانيها: من يعمل لمثل يومي؟ هذا من يعمل لمثل مضجعي هذا؟.

وهذا عمرو بن العاص رضي الله عنه كان يقول في حياته: عجباً لمن نزل به الموت وعقلُه معه كيف لا يصفه فلما نزل به الموت ذكره ابنُه بقوله وقال صِفه يا أبت فقال عمرو: يا بُنَيَّ الموت أجلُّ من أن يوصف ولكني سأصف لك: أجدني كأن الجبال على عُنقي وكان في جوفي الشوك وأجدني كأن نَفَسي تخرج من إبرة ثم ذرفت عيناه فبكى فقال له ابنه عبد الله: يا أبت ما كنت أخشى أن ينزل بك أمر من أمر الله عز وجل إلا صبرت عليه فقال: يا بُني إنه نزل بأبيك خصالٌ ثلاث: أما أولهن فانقطع عمله وأما الثانية فهول المطلع وأما الثالثة ففراق الأحبة وهي أيسرُهن ثم قال: اللهم إنك أمرتَ فتوانيتُ ونهيتَ فعصيتُ اللهم ومن شيمتك العفو والتجاوز.

دعوني على نفسي أنوح وأندب ... بدمع غزير واكف يتصبب
دعوني على نفسي أنوح فإنني ... أخاف على نفسي الضعيفة تعطب
وإني حقيق بالتضرع والبكا ... إذا ما هدا النوام والليل غيهب
وجالت دواعي الحزن من كل جانب ... وغارت نجوم الليل وانقض كوكب
كفى أن عيني بالدموع بخيلة ... وأني بآفات الذنوب معذب
فمن لي إذا نادى المنادي بمن عصى ... إلى أين إلجائي إلى أين أذهب
وقد ظهرت تلك الفضائح كلها ... وقد قرب الميزان والنار تلهب
فيا طول حزني ثم يا طول حسرتي ... لئن كنت في قعر الجحيم أعذب
فقد فاز بالملك العظيم عصابة ... تبيت قياماً في دجى الليل ترهب

إذا أشرف الجبار من فوق عرشه وقد زينت حور الجنان الكواعب
فناداهم أهلاً وسهلاً ومرحباً أبحت لكم داري وما شئتم اطلبوا

وبكى أحد الصحابة عند موته فسئل عن ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى قبض خلقه قبضتين فقال: هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار» ولا أدري في أي القبضتين كنت.

فسبحان الله هؤلاء هم صحابة رسول الله ﷺ الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه والذين اصطفاهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء والرسل ومنهم من بشره النبي ﷺ بالجنة ودخولها بل ذهب بعض أهل العلم إلى أن كل من انطبق عليه وصف الصحبة للنبي ﷺ ومات على الإسلام فهو من أهل الجنة ومع ما لهؤلاء الصحابة من المنزلة العالية فقد مر معنا من كلامهم عند الموت من العظات والعبر الشيء الكثير فمنهم من يستقبل تلك الساحة متمنياً أنه لو لم يخلق، مع ما له من السابقة الصالحة والبشارة الصادقة والمكانة العالية، ومنهم من اشتد فزعه وعظُم خوفه لقدومه على الله ومنهم من ظهر عليه انكسار القلب والخشوع بين يدي الرحمن الرحيم ومنهم.. ومنهم..، وهذا كله يظهر منهم مع ما لهم من الصحبة والنصرة وصالح الأعمال بل والبشرى لبعضهم بالجنة... فما الظن بحالنا اليوم يا أمة الله.

إننا لو تأملنا قليلاً في أحوالنا لرأينا العجب العجاب فقد جمعنا السيئتين التقصير والتفريط في الأعمال الصالحة والغرق في بحر الخطايا والسيئات، فكانت هذه حالنا... ومع هذا فلم نبالي ولم نهتم ولم نتوب أو نؤوب... بل إننا أمنّا القدوم على الله وأمنّا ما سنراه من الأهوال والشدائد وكأننا قد ضمنا الجنة!!

سبحان الله أين نحن من قول الله جل وعلا: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾؟ أم أين نحن من قول الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾؟ فنعوذ بالله من الضلال والخذلان.

إلا فلنعتبر من ذلك ـ أختي المسلمة ـ ولنتذكر هذه المشاهد، ولنعمل العمل الصالح، ولنكثر منه على قدر استطاعتنا فوالله إن أحدنا لأحوج ما يكون إلى حسنة قد تكون بمثقال ذرة تنقله من النار إلى الجنة.

فما لنا نفرط بالحسنات ونترك أو نتغافل عن الأجور الكثيرة وكأن معنا صكّاً بأننا من أصحاب الجنة!

فيا ـ أمة الله ـ الجنة طريقها صعب ومحفوف بالمكاره، ومن أراد الجنة فعليه أن يعمل لها، عليه أن يواظب على الأعمال الصالحة عليه أن يقدم الثمن لهذه الدار بأن يعمل ويجد ويتعب في سبيل نيل رضى الله تعالى وجنته، فما هي والله إلا ليال معدودة نقضيها في هذه الحياة ثم ننقل بعدها إلى حفرة مظلمة نبشر فيها بروضة من رياض الجنة، أو بحفرة من حفرة النار.

فلمثل الجنة أعدي يا أمة الله، ولرضى الله اعملي، عسى أن تحشري في زمرة المصطفى ﷺ في الجنان، وتنالي الروح والريحان في جنات الرحمن سبحانه وتعالى.

* * *

(صعود الروح إلى السماء)

روى الإمام مسلم رحمه الله من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: **«إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها»** ـ قال حماد: فذكر من طيب ريحها، وذكر المسك قال: **«ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه عز وجل، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل»**.

قال: **«وإن الكافر إذا خرجت روحه»** ـ قال حماد وذكر من نتنها، وذكر لعنا ـ **«ويقول أهل السماء: روح خبيثة من قبل الأرض، قال: فيقال: انطلقوا به آخر الأجل»**.

وقد ذكر الرسول ﷺ في حديث البراء التكريم الذي يكون لروح العبد الصالح بعد خروجها من جسده، حيث تصلي ملائكة الله على تلك الروح الطيبة، وتفتح لها أبواب السماء، وتجعل في كفن من الجنة وحنوط من الجنّة، وتخرج منها روائح طيبة عطرة تفوق رائحة المسك، ثم تأخذها الملائكة في رحلة علويّة كريمة، وتفتح لها أبواب السماء، أما الروح الخبيثة، فتلعنها ملائكة السماء عند خروجها، وتغلق أبواب السماء دونها، ويدعو كل فريق من ملائكة الرحمن على باب ألا تعرج من قبلهم، وتجعل تلك الروح الخبيثة في حنوط من النار وكفن من النار، وتفوح منها الروائح الخبيثة التي تؤذي ملائكة الرحمن، ويعرج بها إلى السماء فلا تفتح لها أبواب السماء، فتلقى روحه من شاهق، ففي حديث البراء بن عازب الذي يصف الرسول ﷺ فيه رحلة الإنسان من الموت إلى البرزخ قال:

«حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج من قبلهم، فإذا أخذها (يعني ملك الموت) لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، [فذلك قوله تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾]، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون - يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان - بأحسن أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾، فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: أعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى..».

وتحدث الرسول ﷺ عن الروح الخبيثة التي نزعت من العبد الكافر أو الفاجر، فقال عنها بعد نزعها: «[فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله ألا تعرج روحه من قبلهم]، فيأخذها، فإذا أخذها، لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى [ثم يقول: أعيدوا عبدي إلى الأرض، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتطرح روحه من السماء، طرحاً [حتى تقع في جسده]، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾، فتعاد روحه إلى جسده.».

وروى ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحاً، قال: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان، وربّ غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقول: فلان، فيقال: مرحباً بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تبارك وتعالى، فإذا كان الرجل السوء: قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغسّاق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال، من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحباً بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنها لا تفتح لك أبواب، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر...**».

قال أحد السلف رحمهم الله تعالى: أضحكني ثلاث، وأبكاني ثلاث: أضحكني مؤمل دنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وضاحك بملء فيه لا يدري أأرضى الله أم أسخطه، وأبكاني فراق الأحبة محمد ﷺ وحزبه، وأحزني هول المطلع عند غمرات الموت، والوقوف بين بيدي الله جل وعلا، يوم تبدو السريرة علانية، ثم لا ندري إلى الجنة أو النار.

ذنوبك يا مغرور تحصى وتحسب ... وتجمع في لوح حفيظ وتكتب
وقلبك في سهو ولهو وغفلة ... وأنت على الدنيا حريص معذب
تباهي بجمع المال من غير حله ... وتسعى حثيثاً في المعاصي وتذنب
أما تذكر الموت المفاجيك في غدٍ ... أما أنت من بعد السلامة تعطب
أما تذكر القبر الوحيش ولحده ... به الجسم من بعد العمارة يخرب
أما تذكر اليوم الطويل وهوله ... وميزان قسط للوفاء سينصب
تروح وتغدو في مراحك لاهياً ... وسوف بأشراك المنية تنشب
تعالج نزع الروح من كل مفصل ... فلا راحم ينجي ولا ثم مهرب
وغمضت العينان بعد خروجها ... وبسطت الرجلان والرأس يعصب

وقاموا سراعاً في جهازك أحضروا حنوطاً وأكفاناً وللماء قربوا
وغاسلك المحزون تبكي عيونه بدمع غزير واكف يتصبب
وكل حبيب لُبه متحرق يحرك كفيه عليك ويندب
وقد نشروا الأكفان من بعد طيها وقد بخروا منشورهن وطيبوا
وألقوا فيما بينهن وأدرجوا عليك مثاني طيهن وعصبوا
وفي حفرةٍ ألقوك حيران مفرداً تضم بيداء من الأرض سبسب
إذا كان هذا حالنا بعد موتنا فكيف يطيب اليوم أكل ومشرب
وكيف يطيب العيش والقبر مسكن به ظُلمات غيهب ثم غيهب
وهول وديدان وروع ووحشة وكل جديد سوف يبلى ويذهب
فيا نفس خافي الله وارجي ثوابه فهادم لذات الفتى سوف يقرب
وقولي إلهي أولني منك رحمة وعفواً فإن الله للذنب يذهب
ولا تحرقن جسمي بنارك سيدي فجسمي ضعيف والرجا منك أقرب

* * *

القبر
هوله وفظاعته

الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض، وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير، أحمده سبحانه وأتوكل عليه وهو الحي الذي لا يموت، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

روى هانىء مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتذكر القبر فتبكي فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه**».

وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما رأيت منظراً قط إلا والقبر أفظع منه**» أخرجه الترمذي وحسنه العلامة الألباني رحمه الله تعالىٰ.

ورحم الله من قال:

لكل أناس مقبر بفنائهم وهم ينقصون والقبور تزيد

ولما كان ما بعد القبر أيسر منه لمن نجا فإن العبد المؤمن إذا رأى في قبره ما أعد الله له من نعيم يقول: رب عجل قيام الساعة كي أرجع إلى أهلي ومالي.

أما العبد الكافر أو الفاجر فإذا رأى ما أعد الله له من العذاب الشديد فإنه يقول على الرغم مما هو فيه من عذاب: رب لا تقم الساعة، لأن الآتي أشد وأفظع نعوذ بالله من ذلك.

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فـإنـي لا إخـالـك نـاجـيـاً

وعن البراء رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فجلس على شفير القبر فبكى وأبكى، حتى بل الثرى ثم قال: «**يا إخواني لمثل هذا فأعدوا**» أخرجه ابن ماجه وصححه العلامة الألباني رحمه الله تعالى.

قـف بـالـقـبـور بـأكـبـاد مـصـدعـة ودمـعـةٍ مـن سـواد الـقـلـب تـنـبـعـث
وسـل بـهـا عـن أنـاس طـالـمـا رشـفـوا ثـغـر الـنـعـيـم ومـا فـي ظـلـه مـكـثـوا
مـاذا لـقـوا فـي خـبـايـاهـا ومـا قـدمـوا عـلـيـه فـيـهـا ومـا مـن أجـلـه أرتـبـثـوا
وعـن مـحـاسـنـهـم أن كـان غـيّـرهـا طـول الـمـقـام ببطـن الأرض والـلـبـث
ومـا لـهـم حـشـرات الأرض تـنـهـشـهـم نـهـشـاً تـزول لـه الأعـضـاء والـنـجـث
وتـلـكـم الـفـتـيـات إذ طـرحـن بـهـا هـل كـان فـيـهـن ذا الـتـغـيـيـر والـشـعـث
فـإن يـجـبـك عـلـى لأي مـجـيـبـهـمـوا ولـن يـجـيـب وأنـى يـنـطـق الـجـدث
فـانـظـر مـكـانـك فـي أفـنـاء سـاحـتـهـم فـإنـه الـجـد لا هـزل ولا عـبـث
واعـمـل لـمـصـرع يـوم هـال أولـه ومـن أمـامـك فـيـه الـروع والـجـأث

* * *

(ضمة القبر)

وعندما يوضع الميت في القبر فإنه يضمه ضمة لا ينجو منها أحد، كبيراً كان أو صغيراً، صالحاً كان أو طالحاً فقد جاء في الأحاديث أن القبر ضم سعد بن معاذ رضي الله عنه وهو الصحابي الذي تحرك لموته العرش وفتحت له أبواب السماء وشهده سبعون ألفاً من الملائكة ومع ذلك فقد ضمه القبر، كما قال ﷺ: «**إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منها لنجا سعد بن معاذ**» أخرجه أحمد وهو في صحيح الجامع، وفي حديث آخر: «**لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة ثم روخي عنه**» أخرجه الطبراني وهو في صحيح الجامع.

ليت شعري ساكن القبر المشيد ... هل وجدت اليوم فيه من مزيد
وهل الباطن فيه مثل ما ... هو في الظاهر تزويقاً وشيد
وهل المضجع فيه لين ... أو سعير مالها فيه خمود
وهل الأركان فيه بالتقى ... نيرات أو بأعمالك السود
ليت شعري ساكن القبر المشيد ... أشقي أنت فيه أم سعيد
أقريب أنت من رحمة من ... وسع العالم إحساناً وجود
أم بعيد أنت منها فلقد ... طرقت دارك بالويل البعيد
ولقد حل بأرجائك ما ... ضاق عنه كل ما في ذا الوجود
أيها الغافل مثلي وإلى ... كم تعامي وتلوي وتحيد
أدن فاقرأ فوق رأسي أحرفاً ... خرجت ويحك من قلب عميد
صرعته فكرة صادقة ... وهموم كلما تمضي تعود
ونـدامات لأيام مضت ... هو منها في قيام وقعود

وغـداً تـرجـع مـثـلـي فـاتـعـظ بـي وإلا فـامـض وأعـمـل مـا تـريـد
قـد نـصـحـنـاك فـإن لـم تـره سـيـراه بـصـر مـنـك حـديـد

فيا أمة الله:

يـضـحـك الـمـرء والـبـكـاء أمـامـه ويـروم الـبـقـاء والـمـوت رامـه
ويـمـشـي الـحـديـث فـي كـل لـغـوٍ ويـخـلـي حـديـث يـوم الـقـيـامـة
ولأمـر بـكـاء كـل لـبـيـب ونـفـى فـي الـظـلام عـنـه مـنـامـه
صـام حـدث حـديـثـه واخـتـصـره فـمـحـال بـأن تـطـيـق تـمـامـه
عـجـز الـواصـفـون عـنـه فـقـالـوا لـم نـجـيء مـن بـحـاره بـكـضـامـه
فـلـتـحـدثـه جـمـلـة وشـتـاتـاً ودع الآن شـرحـه ونـظـامـه

فتصوري نفسك يا أمة الله، وقد خرجت من قبرك متغيرة مغبرة مبهوتة من شدة الصعقة كما قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ [القمر: ٧ ـ ٨].

وقال جل وعلا وتقدس: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ۝١٠١﴾ الآية [طه: ١٠١]. وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٤١ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٢].

وقال جل وعلا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس: ٥١].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٨ ـ ١٠] فتفكري في الخلائق ورعبهم وذلهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفاً من هذه الصعقة وانتصاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [المعارج: ٤٣ ـ ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾ [الفجر: ٢٣ ـ ٢٤].

كـأنـي بـنـفـسـي عـلـى ضـعـفـهـا　　تـجـرع رغـمـاً كـؤوس الـردى
وقـد كـشـف الله عـنـهـا الـغـطـا　　فـحـنـت هـنـاك لـكـشـف الـغـطـا
ومـدت إلـيـهـا يـد فـظـة　　لـفـظ غـلـيـظ شـديـد الـقـوى
فـمـا شـئـت مـن نـفـس ضـيـق　　وجـذب عـروق وقـطـع الـحـشـا
ونـفـس تـسـاق أشـد مـسـاق　　فـتـضـغـط فـي لـهـوات الـفـتـى
ولا دافـع يـرتـجـى دفـعـه　　ولا قـائـل مـا بـه يـفـتـدى
ومـا لـي انـتـصـار ولا لـي قـرار　　ومـالـي مـن حـيـلـة تـرتـجـى
فـدعـنـي ويـومـي أبـكـي لـه　　فـحـق لـيـومـي بـطـول الـبـكـا

واعلمي ـ يا أمة الله ـ أن في القبر وظلمته، وضيقه ووحشته وطرح الميت فيه غير ممهد ولا موسد قد باشر التراب وواجه البلى وترك الدنيا وزينتها للورى، ونبذ منها ما كان في يديه في العراء مع حبيب تركه وقريب أسلمه، ونصير أفرده، وترك كل ما كان عهده إن ذلك لما يفطم النفوس عن الشهوات، وإن كانت صعبة الفطام، ويقطعها عن اللذات، وإن كان قطعها بعيد المرام، إذا بحث عن الحقيقة ونظر بعين البصيرة وسمع النداء من قريب فبينما الإنسان في رخاء العيش مسروراً فيما بين يديه غافلاً عن يوم صرعته قد فتح للهوى بابه، وأرسل عليه حجابه، ولم يبال بمن لامه في ذلك أو عابه، إذ هجمت عليه المنية، فهتكت أستاره، وكسفت أنواره، وشتت شمله وطمست أعلامه وآثاره.

فأخرجته من ذلك القصر المشيد، والمنزل المنجّد، والمتاع المزخرف المنضد، إلى حفرة من الأرض ظلماء ضيقة الجوانب مملوة من الرعب والفزع والخوف والقلق والذعر.

فحذار حذار وبدار بدار قبل أن تصرعي هذا المصرع، فيفت في عضدك، ويسقط في يدك، ويرمى بك عن أهلك وولدك في مهواةٍ تزدحمك فيها الأهوال، وتنقطع فيها الآمال.

ولعلك ممن ترغب في تبديل المنازل وإن كانت حساناً، ولا تنظري لربك عز وجل فيها تفضلاً وامتناناً.

فانظري الآن كم بين المنزلتين وكم قدر ما بين الوحشتين إلا أن يدركك الله برحمته فتتسع من القبر أقطاره وتمتد فيه أنواره، ورحم الله من قال:

من كان يوحشه تبديل منزله | وأن يبدل منها منزلاً حسنا
ماذا يقول إذا ضمت جوانبها | عليه واجتمعت من هاهنا وهنا
ماذا يقول إذا أمسى بحفرته | فرداً وقد فارق الأهلين والسكنا
هناك يعلم قدر الوحشتين وما | يلقاه من بات باللذات مرتهنا
يا غفلة ورماح الموت شارعة | والشيب ألقى برأسي نحوه الرسنا
ولم أعد مكاناً للنزال ولا | أعددت زاداً ولكن غرة ومنا
إن لم يجد من توالى جوده أبداً | ويعف من عفوه من طالبيه دنا
فيا إلهي ومزن الجود واكفة | سحًا فتمطرنا الإفضال والمننا
آنس هنالك يا رحمن وحشتنا | وألطف بنا وترفق عند ذاك بنا
نحن العصاة وأنت الله ملجؤنا | وأنت مقصدنا الأسنى ومطلبنا
فكن لنا عند بأساها وشدتها | أولى فمن ذا الذي فيها يكون لنا

فيا أمة الله:

ما حال من سكن الثرى ما حاله | أمسى وقد صرمت هناك حباله
أمسى ولا روح الحياة يصيبه | يوماً ولا لطف الحبيب يناله
أضحى وحيداً موحشاً متفرداً | متشتتاً بعد الجميع عياله
أمسى وقد درست محاسن وجهه | وتفرقت في قبره أوصاله
واستبدلت منه المجالس غيره | وتقسمت من بعده أمواله
هل من قبيل تعلمون مكانه | سلمت على حدث الزمان رجاله

فيا أمة الله:

يا باكي الميت على قبره | امض ودعه سوف تسلاه
من عاين الموت فذاك الذي | لم تر مثل الموت عيناه
كم من شقيق لم يجد غير أن | أغمض من يهوى وسجاه
وكم محب لحبيب إذا | سوى عليه اللحد خلاه

أختي المسلمة: نجد كثيراً ممن ضاعت أعمارهم فرطاً إذا ذكر بالتوبة والرجوع إلى الله أو خوف بالعقوبة أو بالموت، قال: دعنا من هذه المقبضات، وحدثنا المبشرات والمفرحات، هذا عصر الشباب واللذات، وإذا كبرنا تبنا إلى الله، والأمر واسع، ولا يرى المسكين أنه قد شيع جنائز إلى الآخرة أصغر منه في السن، وأحدث منه بالرحم عهداً، قد غرته الشبيبة وخدعته الصحة، وتمكنت منه الغرة بما عنده من الثروة والقوة.

ولا يتأمل ويفكر ويعتبر فيرى أن الموت في الشباب أكثر، وحادثه فيهم أسرع وأن الذي يموت في الهرم قليل وكثير من الناس يموت بغتة في السكتة القلبية وأن الزمان كله وقت للموت، ولا يختص من الأرض بمكان دون مكان، ولا من الزمان بوقت دون وقت، ولا يزل هذا المغرور منكباً على شهواته، مداوماً على لذته، غافلاً عن يوم صرعته، حتى يؤخذ بما تأخر وما تقدم، ويلقى صريعاً لليدين وللفم إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم.

وفي هذا وأمثاله قال الشاعر:

نال أموراً خاب من نالها ... ثم سعى يطلب أمثالها
وواقع الذنب فما هاله ... والباذخات الشم قد هالها
وقال هذه سنوات الصبا ... فاسحب على رسلك أذيالها
ومر يستهتر في عصبة ... من شكله تصحب أشكالها
أولى له ثمت أولى له ... وتلكم العصبة أولى لها

فهل من توبة صادقة يا أمة الله؟!

أم هل من استجابة لنداء الله يا من تريدين النجاة؟!

* * *

(سؤال الملكين في القبر)

وإذا وضع العبد في قبره جاءته ملائكة على صورة منكرة ففي سنن الترمذي قال ﷺ: **«إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر، وللآخر النكير فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل، فيقول ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري»**.

وجاء في الحديث الذي يرويه البراء بن عازب عن الرسول ﷺ وفيه: **«فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك ما دينك من نبيك؟ فذلك حين يقول الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيقول ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي»**.

وقال في العبد الكافر أو الفاجر: **«ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي إلى اسمه فيقال: محمد، فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون ذاك، فيقولان: لا دريت فينادي مناد أن كذب عبدي»**.

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ في ثبوت عذاب القبر ونعيمه وسؤال الملكين فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به ولا نتكلم في كيفيته.

وعذاب القبر هو عذاب البرزخ فكل من مات هو مستحق للعذاب ناله نصيبه

منه، قبر أو لم يقبر أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً أو صلب أو غرق في البحر.

وفي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخلت عليّ عجوزان من عجز يهود المدينة فقالتا: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم قالت: وكذبتهما ولم تطب نفسي إن أصدقهما فخرجتا ودخل رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله إن عجوزين من عجز يهود المدينة دخلتا علي فزعمتا أن أهل القبور يعذبون في قبورهم فقال: «**صدقتا إنهم يعذبون عذاباً تسمعه البهائم**». قالت: فما رأيته بعد في صلاة إلا يتعوذ من عذاب القبر.

وقد أشار الله تعالى في كتابه في عدة آيات على عذاب القبر فقد قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥ ـ ٤٦].

سهام المنايا في الورى ليس تمنع ... فكل له يوماً وإن عاش مصرع
وكل وإن طال المدى سوف ينتهي ... إلى قعر لحد في ثرى منه يودع
فقل للذي قد عاش بعد قرينه ... إلى مثلها عما قليل ستدفع
فكل ابن أنثى سوف يفضي إلى الردى ... ويرفعه بعد الأرائك شرجع
ويدركه يوماً وإن عاش برهةً ... قضاء تساوى فيه عود ومرضع
فلا يفرحن يوماً بطول حياته ... لبيب فما في عيشه المرء مطمع
فما العيش إلا مثل لمحة بارق ... وما الموت إلا مثل ما العين تهجع
وما الناس إلا كالنبات فيابس ... هشيم وغض إثر ما باد يطلع
فتباً لدار ما تزال تعلنا ... أفاويق كأس مرة ليس تقنع
سحاب أمانيها جهام وبرقها ... إذا شيم برق خلب ليس يهمع
تغر بنيها بالمنى فتقودهم ... إلى قعر مهواة بها المرء يوضع

فكم أهلكت في حبها من متيم ... ولم يحظ منها بالمنى فيمتع
تمنيه بالآمال في نيل وصلها ... وعن غيه في حبها ليس ينزع
أضاع بها عمراً له ليس راجعاً ... ولم ينل الأمر الذي يتوقع
فصار لها عبداً لجمع حطامها ... ولم يهن فيها بالذي كان يجمع
ولو كان ذا عقل لأغنته بلغة ... من العيش في الدنيا ولم يك يجشع
إلى أن توافيه المنية وهو بال ... قناعة فيها آمناً لا يروع
مصائبها عمت فليس بمفلت ... شجاع ولا ذو ذلة لس يدفع
ولا سابح في قعر بحر وطائر ... يدوم في بوح الفضاء وينزع
ولا ذو امتناع في بروج مشيدة ... لها في ذرى جو السماء ترفع
أصارته من بعد الحياة بوهدة ... له من ثراها آخر الدهر مضجع
تساوى بها من حل تحت صعيدها ... على قرب عهد بالممات وتبع
فسيان ذو فقر بها وذووا الغنى ... وذو لكن عند المقال ومصقع
ومن لم يخف عند النوائب حتفه ... وذو جبن خوفاً من الموت يسرع
وذو جشع يسطو بناب ومخلب ... وكل بغاث ذلة ليس يمنع
ومن ملك الآفاق بأساً وشدة ... ومن كان منها بالضرورة يقنع
ولو كشف الأجداث معتبراً لهم ... لينظر آثار البلى كيف يصنع
لشاهد أحداقاً تسيل وأوجهاً ... معفرة في الترب شوهاً تفزع
غدت تحت أطباق الثرى مكفهرة ... عبوساً وقد كانت من البشر تلمع
فلم يعرف المولى من العبد فيهم ... ولا خاملاً من نابه يترفع
وأنى له علم بذلك بعدما ... تبين منهم ما له العين تدمع
رأى ما يسوء الطرف منهم وطالما ... رأى ما يسر الناظرين ويمتع
رأى أعظاماً لا تستطيع تماسكاً ... تهافت من أوصالها وتقطع
مجردة من لحمها فهي عبرة ... لذي فكرة فيما له يتوقع
تخونها مر الليالي فأصبحت ... أنابيب من أجوافها الريح تسمع
إلى حالة مسودة وجماجم ... مطأطأة من ذلة ليس ترفع
أزيلت عن الأعناق فهي نواكس ... على الترب من بعد الوسائد توضع

علاها ظلام لليلى ولطالما ... غدا نورها في حندس الظلم يلمع
كأن لم يكن يوماً علا مفرقاً لها ... نفائس تيجان ودر مرصع
تباعد عنهم وحشة كل وامق ... وعافهم الأهلون والناس أجمع
وقاطعهم من كان حال حياته ... بوصلهم وجداً بهم ليس يطمع
يبكيهم الأعداء من سوء حالهم ... ويرحمهم من كان ضداً ويجزع
فقل للذي قد غره طول عمره ... وما قد حواه من زخارف تخدع
أفق وانظر الدنيا بعين بصيرة ... تجد كل ما فيها ودائع ترجع
فأين الملوك كالصيد قدماً ومن حوى ... من الأرض ما كانت به الشمس تطلع
حواه ضريح من فضاء بسيطها ... يقصر عن جثمانه حين يذرع
فكم ملك أضحى بهذا مذلة ... وقد كان حيّاً للمهابة يتبع
يقود على الخيل العتاق فوارساً ... يسد بها رحب الفيافي ويترع
فأصبح من بعد التنعم في ثرى ... تواري عظاماً منه بهماء بلقع
بعيداً على قرب المزار إيابه ... فليس له حتى القيامة مرجع
غريباً عن الأحباب والأهل ثاوياً ... بأقصى فلاةٍ خرقه ليس يرقع
تلح عليه السافيات بمنزل ... جديب وقد كانت به الأرض تمرع
رهيناً به لا يملك الدهر رجعة ... ولا يستطيعن الكلام فيسمع
توسد فيه الترب من بعد ما اغتدى ... زماناً على فرش من الخز يرفع
كذلك حكم الله في الخلق لن ترى ... من الناس حيّاً شمله ليس يصدع

* * *

(الاستعاذة من فتنة القبر وعذابه)

ولما كانت فتنة القبر وعذاب القبر من الأهوال الكبار، والشدائد العظيمة فإن الرسول ﷺ كان يستعيذ من ذلك في صلاته وفي غير الصلاة، وكان يأمر أصحابه بذلك.

ففي حديث عائشة التي ذكرت فيه أمر اليهودية التي قالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت الرسول ﷺ عن عذاب القبر؟ فقال: «**نعم، عذاب القبر**»، قالت: فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلاّ تعوذ من عذاب القبر، زاد غندر: «**عذاب القبر حق**» متفق عليه.

وعن أنس أن الرسول ﷺ كان يدعو فيقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل والهرم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**» متفق عليه.

وعن عائشة أن الرسول ﷺ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر..**» متفق عليه.

وكان الرسول ﷺ يقول لأصحابه: «**تعوذوا بالله من عذاب القبر**» فيقولون: «نعوذ بالله من عذاب القبر» رواه مسلم.

وكان يقول لهم: «**استجيروا بالله من عذاب القبر، فإن عذاب القبر حق**». رواه الطبراني وهو في صحيح الجامع.

وكان يأمرهم أن يستعيذوا من أربع فيقول: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر، استعيذوا بالله من جهنم، استعيذوا بالله من فتنة المسيح الدجال، استعيذوا بالله من**

فتنة المحيا والممات» رواه الترمذي والنسائي وهو في صحيح الجامع.

وكان يأمرهم بالاستعاذة في الصلاة بعد التشهد من عذاب القبر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع. يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شرّ فتنة المسيح الدجال»** رواه مسلم.

فهذا هو القبر أختي المسلمة وهذا هو عذابه وهذا هو الموت وهذه هي سكراته فإن الموت أكبر واعظ، وكما قال أحد العلماء رحمه الله: اعلم أن الموت هو الأمر الأشنع والكأس الذي طعمها أكره وأبشع، وإنه الأهدم للذات والأقطعُ للراحات، وإن يومه لهو اليوم العظيم.

أو ما علمت يا مغرور أنه لا بد من الارتحال إلى يوم شديد الأهوال وليس ينفعك ثم قيل ولا قال، بل يعد عليك بين يدي الملك الديان ما بطشت اليدان، ومشت القدمان، ونطق به اللسان، وعملت الجوارح والأركان، فإن رحمك الله فإلى الجنة وإن كانت الأخرى فإلى النيران.

فلن يدفع الموت مال ولا بنون، ولا ينفع أهل القبور إلا العمل المبرور، فطوبى لمن سمع ووعى وحقق ما ادعى ونهى النفس عن الهوى، وعلم أن الفائز من ارعوى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وإن سعيه سوف يرى.

تزود من الدنيا فإنك لا تدري ... إذا جنَّ ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من عروس زينوها لزوجها ... وقد أخذت أرواحهم ليلة القدر
وكم من صغار يرتجى طول عمرهم ... وقد أدخلت أرواحهم ظلمة القبر
وكم من سليم مات من غير علة ... وكم من سقيم عاش حيناً من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح لاهياً ... وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
وكم من ساكن عند الصباح بقصره ... وعند المسا قد كان من ساكن القبر
فكن مخلصاً واعمل الخير دائماً ... لعلك تحظى بالمثوبة والأجر
ودوام على تقوى الإله فإنها ... أمان من الأهوال في موقف الحشر

فيا أمة الله جدي واستعدي ليوم المعاد، ولا تغفلي عما له خلقت، فكم

سكن قبلك يا أمة الله في هذه الدار، فحام الموت حول حماهم ودار، ثم ناهضهم وسلب الجار، ومن أنذر قبل هجومه فما جار.

فيا أختي المسلمة إن العمر عمر قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرضي البقية للتأويل، وقد آن الآن أن يرحل النزيل، تفكري في الذين رحلوا أين نزلوا؟ وتذكري أن القوم نوقشوا وسئلوا، فماذا أعددت لهذا السؤال ولذلك النقاش؟

إنها ساعة الموت فيا لها من ساعة ما أشدها، وإن أعظم المحن ما يكون بعدها.

فيا أمة الله الأيام قد ذهبت، والأعمار قد نهبت، والنفوس باتباع الهوى قد التهبت، وما يطلب منها شيء من الخير إلا أبت، وبيوت التقوى من القلوب قد خربت، يا من كان لها قلب فانقلب، قيام الليل يستوحش لك، صيام النهار يسأل عنك، ليال الوصال تعاتبك.

أختي المسلمة: أيام العافية غنيمة باردة، وأوقات السلامة لا تشبهها فائدة، فتناولي ما دامت لديك المائدة، فليست الساعات الذاهبات بعائدة.

أختي المسلمة: التوبة التوبة قبل أن تصل إليك النوبة، والإنابة الإنابة قبل أن يغلق باب الإجابة، والإقامة الإقامة فيا قرب وقت الفاقة.

يا مضيع الزمان فيما ينقص الإيمان ... يا معرضاً عن الأرباح متعرضاً للخسران

متى تنتبه من رقادك أيها الوسنان ... متى تفيق لنفسك أما حقَّ أما آن

فيا أختاه: أين الوالدون وما ولدوا؟ أين الجبارون وأين ما قصدوا؟ أين أرباب المعاصي على ماذا وردوا؟ أما جَنوا ثمرات ما جنوا وحصدوا، أما قدموا على أعمالهم في مآلهم ووفدوا، أما خلوا في ظلمات القبور بكوا والله وانفردوا، أما ذلوا وقلوا بعد أن عتوا ومردوا، أما طلبوا زاداً يكفي في طريقهم فقعدوا، أما حل الموت فحل عقد ما عقدوا. عاينوا والله كل ما قدموا ووجدوا، فمنهم أقوام شقوا وأقوام سعدوا.

أختي المسلمة: أين من ضحت بشهوات نفسها وانتصرت عليها؟

أين من خوفت نفسها الحساب والعرض؟

أم أين من عملت لضمة القبر وشدته؟

أم أين من استعدت لسؤال منكر ونكير؟

أم أين من جهزت نفسها لحياة البرزخ؟ يوم تكونين هناك وحيدة فريدة في القبر، في ذلك المكان الموحش القاسي، لا يوجد أخ يسليك، ولا أب يعطف عليك، ولا أم تحنو عليك، ولا زوج يقف معك، ولا أولاد تلاعبيهم وتمرحي معهم، هناك والله الحياة البرزخية، وتلك والله هي حياة الغربة، يوم تكونين وحيدة فريدة في قبرك يا أمة الله، هذه الغربة ليست غربة الأوطان، وإنما هي غربة الأبدان في الظلمات، غربة الأشلاء بين الدود والتراب، هذه الغربة:

ليس الغريب غريب الشام واليمن ... إن الغريب غريب اللحد والكفن
إن الغريب له حق لغربته ... على المقيمين في الأوطان والسكن
لا تنهرن غريباً حال غربته ... الدهر ينهره بالذل والمحن
سفري بعيد وزادي لن يبلغني ... وقسمتي لم تزل والموت يطلبني
تمر ساعات أيامي بلا ندم ... ولا بكاء ولا خوف ولا حزن
ما أحلم الله عني حيث أمهلني ... وقد تماديت في ذنبي ويسترني
أنا الذي أغلق الأبواب مجتهداً ... على المعاصي وعين الله تنظرني
يا زلة كتبت يا غفلة ذهبت ... يا حسرة بقيت في القلب تحرقني
دع عنك عذلي يا من كان يعذلني ... لو كنت تعلم ما بي كنت تعذرني
دعني أنوح على نفسي وأندبها ... وأقطع الدهر بالتذكار والحزن
دعني أسح دموعاً لا انقطاع لها ... فهل عسى عبرة منها تخلصني
كأنني بين تلك الأهل منطرحاً ... على الفراش وأيديهم تقلبني
كأنما كان حولي من ينوح ومن ... يبكي علي وينعاني ويندبني
وقد أتو بطبيب كي يعالجني ... ولم أرى من طبيب اليوم ينفعني
واشتد نزعي وصار الموت يجذبها ... من كل عرق بلا رفق ولا هون
واستخرج الروح مني في تغرغرها ... وصار في الحلق مرّاً حين غرغرني
وسل روحي وظل الجسم منطرحاً ... على الفراش وأيديهم تقلبني

وغمضوني وراح الكل وانصرفوا ... بعد الإياس وجدوا في شر الكفن
وقام من كان أولى الناس في عجل ... إلى المُغَسل يأتيني يغسلني
وقال يا قوم نبغي غاسلاً حذقاً ... حرّاً أديباً أريباً عارفاً فطن
فجاءني رجل منهم فجردني ... من الثياب وأعراني وأفردني
وأطرحوني على الألواح منفرداً ... وصار فوق خرير الماء أفزعني
وأسكب الماء من فوقي وغسلني ... غسلاً ثلاثاً ونادى القوم بالكفن
وألبسوني ثياباً لا كموم لها ... وصار زادي حنوطي حين حنطني
وقدموني إلى المحراب وانصرفوا ... خلف الإمام فصلى ثم ودعني
صلوا علي صلاة لا ركوع لها ... ولا سجود لعل الله يرحمني
وأنزلوني في قبري على مهل ... وأنزلوا واحداً منهم يلحدني
وأكشف الثوب عن وجهي لينظرني ... وأسبل الدمع في عينيه أغرقني
فقام محتزماً بالعزم مشتملاً ... وأطرح اللبن من فوقي وفارقني
وقال هلّو عليه الترب واغتنموا ... حسن الثواب من الرحمن ذي المنن
بكيت لما علاني الترب منجدلاً ... صار التراب على ظهري فأثقلني
في ظلمة القبر لا أم هناك ولا ... أب شفيق ولا أخ يؤانسني
وأودعوني ولجو في سؤالهم ... ما لي سواك إلهي من يخلصني
وهالني صورة في عيني إذ نظرت ... من هول مطلع ما كان أدهشني
من منكرٍ ونكير ما أقول لهم ... إذ هالني منهما أمر فأفزعني
فامنن علي بعفو منك يا أملي ... فإنني موثق بالذنب مرتهن
تقاسم الأهل مالي بعدما انصرفوا ... وصار وزري على ظهري يثقلني
واستبدلت زوجتي بعلاً لها بدلي ... وملكته على مالي وفي وطني
وصيرت ولدي عبداً ليخدمه ... وصار مالي له ملكاً بلا ثمن
فلا تغرنك الدنيا وزينتها ... وانظر إلى فعلها في الأهل والوطن
وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها ... هل راح منها بغير القطن والكفن
خذ القناعة من دنياك وارضى بها ... لو لم يكن لك إلا راحة البدن
يا نفس كفي عن العصيان واكتسبي ... فعلاً جميلاً لعل الله يرحمني

يا نفس توبي واعملي حسناً | عسى تجازين بعد الموت بالحسن
ثم الصلاة على المختار سيدنا | ما ضاء برق في شام وفي يمن
والحمد لله مرسينا ومصلحنا | للخير والعفو والإحسان والمنن

يقول أحد العلماء رحمهم الله واعظاً أصحابه:

عباد الله رحل الأحباب إلى القبور وسترحلون، وتركوا القصور والأموال والأوطان وستتركون، وتجرعوا كأس الفراق وستتجرعون، وندموا على التفريط في الأعمال وستندمون، وتأسفوا على أيام الإهمال وستتأسفون، وشاهدوا ما لهم عند قدوم هادم اللذات وستشاهدون، ووقفوا ببصائرهم على الأهوال وستقفون، وسُئلوا عما عملوا وستسألون، فبادروا إخواني بالمتاب قبل يوم الحساب.

فكيف بك يا من ضاع عمرة فرطاً في القيل والقال والغيبة والنميمة والكذب وسماع المحرمات من موسيقى وأغاني ومشاهدة المحرمات من مجلات وتلفاز وفيديو، كيف بك إذا نزل بك هادم اللذات؟ كيف بك إذا وضعت في القبر فريداً وحيداً؟ أم كيف بك وأنت في عرصات القيامة؟ وماذا سيكون موقفك إذا نفخ في الصور، وبعثر ما في القبور، وحصل ما في الصدور، وضاقت الأمور، وظهر المستور، وخرج الخلائق من القبور؟ يا له من يوم فيه الزلازل والأهوال، وفيه تسير الجبال وتنقطع فيه الآمال، فيا خسارة أهل الشمال يوم تزل فيه الأقدام، ويطول فيه القيام، وتتابع فيه الهموم والآلام، تظهر الجراح والآثام، وينقطع فيه الكلام، يا له من يوم عصيب يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم الحسرة والندامة، يوم الزلزلة والطامة، يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة.

يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧] فلا ينفع عندها مال ولا دنيا ولا زوجة ولا ولد ولا جاه ولا منصب، لن ينفع إلا العمل الصالح، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾، فانتبه يا نائم، واستقم يا قائم، وأكثر من الزاد فإن الطريق بعيد، والبحر عميق، وأخلص العمل لله جل وعلا، وتقرب إليه بالصالحات، إن كنت تريد النجاة يوم لقاء الله جل وعلا.

عباد الله تيقظوا فالعبر منكم بمرأى ومسمع، وطالما ناداكم لسان الزواجر عن الانهماك في الدنيا وحطامها والتهالك عليها فأسمع.

عباد الله احذروا أن تكونوا مثل من قد محضوا للدنيا كل ما لهم من أعمال وأصبحوا لا يقصدون بتصرفاتهم إلا الدنيا وأما الآخرة فلا تخطر لهم على بال.

أخذت الدنيا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم بما فيها من الزخارف الوهمية التي هي مراقد الفناء ومرابض الزوال وقواتل الأوقات.

وهل هي إلا الألعاب والملاهي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ﴾ الآية وقوله: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ الآية [الأنعام: الآية ٣٢].

عباد الله، كل ما ترون من البلايا والمحن من أجل الدنيا وما لها من متاع حقير.

عجب أن يكون كل هذا الاهتمام من أجل دار الغرور وأيامها المعدودة، وكل ما فيها من لذائذ معلومٌ أنها منغصات ثم منتهيات ذلك فوق أن الأرزاق فيها قد ضمنها اللطيف الخبير خالق كل شيء الذي ما من دابة في الأرض إلا عليه رزقها.

وهل يشك مؤمن عاقل في ما ضمنه مولاه الغني الحميد لقد كان الأجدر والأولى بهذا الاهتمام حياتنا الثانية لأنها دار القرار ولأنها إذا فاتتك فيها دار الكرامة هويت في الهاوية وأنت لا تدري هل أنت من فريق الجنة أم من فريق السعير.

فتيقظ يا من ضاع عمره في الغفلات! إنتبه يا من يقتل أوقاته عند الملاهي والمنكرات.

يا أسفي على أوقات لا تباع بملء الأرض ذهباً تضيع عند التلفزيون والفيديو والسينمات.

آهِ على أوقات تقتل عند المذياع واستماع أغانيه وملاهيه المهلكات.

آهٍ على ساعات تمضي عند الكرة والمطربين والمطربات.

آهٍ على أوقات وتفكيرات تذهب في قراءة الكتب الخليعة والجرائد والمجلات.

آهٍ على أوقات تنقضي في الإقامة بين أعداء الله ورسوله عليه أفضل الصلوات.

آهٍ على أوقات تقتل في الغيبة والبهت والتملق والنفاق والمداهنات.

آهٍ على أوقات تقتل في الجلوس في الأسواق لا لمصحلة دنيا ولا دين بل لأمور عند أهل الضياع معلومات.

آهٍ على أوقات تقضى في بلاد الحربة والفسق والفجور والمنكرات.

آهٍ على أوقات تقتل بالحكايات المضحكات والتمثيليات.

آهٍ على أوقات تنقضي بلغو الكلام والمغازلات.

آهٍ على أوقات تنقضي في الاستماع للأغاني الخليعات.

آهٍ على أوقات تمضي في السكر وشرب الدخان وسائر المسكرات.

آهٍ على أوقات تقتل في ذكر الحادث والأمور الماضيات التي لا تعود عليهم بنفع بل ربما عادت بالضرر والنكبات.

آهٍ على أوقات تذهب سدى في النوم والغفلات.

آهٍ على أموال تنفق فيما يغضب فاطر الأرض والسموات.

آهٍ على ألسنة لا تفتر عن الكلام فيما يضر ولم تستبدله بتمجيد وتسبيح وتكبير وتهليل بديع الأرض والسموات.

آهٍ على أفكار وأذهان مصروفة ومشتغلة طول ليلها ونهارها فيما في الدنيا من متاع وعقارات، ولم تفكر وتلتفت وتستعد إلى ما في أمامها من أهوال وشدائد وعقبات، وما في الآخرة لمن أطاع الله من أنهار وثمار وحور حسان طاهرات.

تالله لقد فسدت أمزجة أكثر الناس حتى أثر فسادها على الأفهام لذلك رجحوا

فانياً مكدراً منغصاً على باقٍ ضمن صفوه مولى الأنعام، وها هم أولاء كما ترى لا همّ لهم ولا عمل إلا للدنيا وما لها من حطام قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦ ـ ١٧].

عباد الله أما سمعتم قول نبيكم ﷺ: «أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم» رواه البخاري ومسلم.

فينبغي للعاقل أن يعرف شرف زمانه وقدر وقته فلا يضيع منه لحظة في غير قربة ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل.

أيا للمنايا ويحها ما أجدها ... كأنك يوماً قد توردت وردها
ويا للمنايا مالها من إقالة ... إذا بلغت من مدة الحي حدها
إلا يا أخانا إن للموت طلعة ... وإنك مذ صورت تقصد قصدها
وللمرء عند الموت كرب وغصة ... إذا مرت الساعات قربن بعدها
ستسلمك الساعات في بعض مرها ... إلى ساعة لا ساعة لك بعدها
وتحت الثرى مني ومنك ودائع ... قريبة عهد إن تذكرت عهدها
مددت المنى طولاً وعرضاً وإنها ... لتدعوك أن تهدا وأن لا تمدها
ومالت بك الدنيا إلى اللهو والصبا ... ومن مالت الدنيا به كان عبدها
إذا ما صدقت النفس أكثرت ذمها ... وأكثرت شكواها وأقللت حمدها
بنفسك قبل الناس فاعن فإنها ... تموت إذا ماتت وتبعث وحدها
وما كل ما خولت إلا وديعة ... ولن تذهب الأيام حتى تردها
إذا أذكرتك النفس دنيا دنية ... فلا تنس روضات الجنان وخلدها
ألست ترى الدنيا وتنغيص عيشها ... وإتعابها للمكثرين وكدها
وأدني بني الدنيا إلى الغي والعمى ... لمن يبتغي منها سناها ومجدها
هوى النفس في الدنيا إلى أن تغولها ... كما غالت الدنيا أباها وجدها

* * *

ألا إنما الدنيا متاع غرور ... ودار بلاء مؤذن بثبور

ودار ملمات ودار فجائع ... ودار فناً في ظلمة وبحور
ودار خيال من شكوك وحيرة ... ودار صعود في الهوى وحدور
وإن إمرأ لم ينج فيها بنفسه ... على ما يرى فيها لغير صبور
ولا بد من يومين يوم بلية ... إرادة جبار ويوم نشور
كأني بيوم ما أخذت تأهباً ... لربي رواحي مرة وبكوري
كفى حسرة أن الحوادث لم تزل ... تصير أهل الملك أهل قبور
ألا رب أبناء اتساع وفرحة ... وزهرة عيش مونق وحبور
وأبناء لذات وظل مصانع ... وظل مقاصير وظل قصور
نظرت إليهم في بيوت من الثرى ... مسترة من رضرض بستور
وكم صور تحت التراب مقيمة ... على غير أبشار وغير شعور
ثوت في سرابيل عليها من الحصى ... ومن لخف من جندل وصخور
إذا ما مررنا بالقبور لحاجة ... مررنا بدور هن أجمل دور
ألا رب جبار بها متكبر ... ويا رب مختال بها وفخور
خليلي كم من ميت قد حضرته ... ولكنني لم أنتفع بحضوري
وكم من خطوب قد طوتني كثيرة ... وكم من أمور قد جرت وأمور
وكم من ليال قد أرتني عجائباً ... لهن وأيام خلت وشهور
ومن لم تزده السن ما عاش عبرة ... فذاك الذي لا يستضيء بنور
متى دام في الدنيا سرور لأهلها ... فأصبح فيها واثقاً بسرور؟

* * *

ألم تر أن المرأ يحبس ماله ... ووارثه فيه غداً يتمتع
كأن الحماة المشفقين عليك قد ... غدوا بك أو راحوا رواحاً فأسرعوا
وما هو إلا النعش لو أتوا به ... تقل فتلقى فوقه ثم ترفع
وما هو إلا حادث بعد حادث ... عليك فمن أي الحوادث تجزع
وما هو إلا الموت يأتي لوقته ... فمالك في تأخيره عنك مدفع
ألا وإذا ودعت توديع هالك ... فآخر يوم منك يوم تودع
ألا وكما شيعت يوماً جنائزاً ... فأنت كما شيعتهم ستشيع

رأيتك في الدنيا على ثقة بها   وإنك في الدنيا لأنت المروع
وصفت التقى وصفا كأنك ذو تقى   وريح الخطايا من ثيابك تسطع
ولم تعن بالأمر الذي هو واقع   وكل امرىء يعنى بما يتوقع
وإنك للمنقوص في كل حالة   وكل بني الدنيا على النقص يطبع
وما زلت أرمي كل يوم بعبرة   تكاد لها صم الجبال تصدع
فما بال عيني لا تجود بمائها   وما بال قلبي لا يرق ويخشع
تبارك من لا يملك الملك غيرة   متى تنقضي حاجات من ليس يقنع
وأي امرء في غاية ليس نفسه   إلى غاية أخرى سواها تطلع
وبعض نبي الدنيا لبعض ذريعة   وكل بكل قلما يتمتع
يحب السعيد العدل عند احتجاجه   ويبغي الشقي البغي والبغي يصرع

* * *

ما هذه الدنيا بدار مسرة   فتخوفي مكراً لها وخداعا
بينا الفتى فيها يسر بنفسه   وبماله يستمتع استمتاعا
حتى سقته من المنية شربة   وحمته فيه بعد ذاك رضاعا
فغداً بما كسبت يداه رهينة   لا يستطيع لما عرته دفاعا
لو كان ينطق قال من تحت الثرى   فليحسن العمل الفتى ما اسطاعا

عباد الله ما هذا التكاسل عن الطاعات وزرع الأعمار قد دنا للحصاد وما هذا التباعد ومدد الأيام قد قاربت للنفاد، وما هذا التغافل والتكاسل عن إعداد الزاد ليوم المعاد:

تزود للذي لا بد منه   فإن الموت ميقات العباد
يسرك أن تكون رفيق قوم   لهم زاد وأنت بغير زاد

عباد الله أين الحسرات على فوت أمس أين العبرات على مقاسات الرمس أين الاستعداد ليوم تدنو فيه منكم الشمس، ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم: ٣٩].

يا من مشيبه أتى وشبابه اضمحل وخبىء، متى تتضرع إلى مولاك وتقف

بالباب، أما اعتبرت بالراحلين من الأقارب والجيران والزملاء والأحباب؛ أما قرع سـمـعـك ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ﴾ الآية.

كيف حالك إذا بلغت الروح التراق وقطعت الحسرات والندم علائق الأكباد، ووضعت في بيت الظلمة والدود والوحدة ولا ولي لك من الله ولا ناصر وضوعف العذاب وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون.

كيف أنت إذا بعثر ما في القبور وحصل ما في الصدور وكل إنسان ألزم طائرة في عنقه يوم النشور وحرر الحساب بين يدي سريع الحساب عالم السر والخفيات والجليات ونصب الميزان ﴿فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾.

خفض همومك فالحياة غرور ... ورحى المنون على الأنام تدور
والمرء في دار الفناء مكلف ... لا مهمل فيها ولا معذور
والناس في الدنيا كظل زائل ... كل إلى حكم الفناء يصير
فالنكس والملك المتوج واحد ... لا آمر يبقى ولا مأمور
عجباً لمن ترك التذكر وانثنى ... في الأمر وهو بعيشه مغرور
وإذا القضاء جرى بأمر نافذ ... غلط الطبيب وأخطأ التدبير
إن لمت صرف الدهر فيه أجابني ... أبت النهى أن يعتب المقدور
أو قلت له أين المؤيد قال لي ... أين المظفر قبل والمنصور
أم أين كسرى أزد شير وقيصر ... والهرمزان وقبلهم سابور
أين ابن داود سليمان الذي ... كانت بجحفله الجبال تمور
والريح تجري حيث شاء بأمره ... منقادة وبه البساط يسير
فتكت بهم أيدي المنون ولم تزل ... خيل المنون على الأنام تغير
لو كان يخلد بالفضائل ماجد ... ما ضمت الرسل الكرام قبور
كل يصير إلى البلى فأجبته ... إني لأعلم واللبيب خبير
أن الحياة وإن حرصت غرور
ورأيت كلاماً يعلل نفسه ... بتعلة وإلى الفناء يصير

عباد الله: إن الناس سينقسمون في يوم القيامة إلى قسمين: قسم سوف ينجو وهم المؤمنون، وقسم سوف يخسر، وهم الكافرون.

فسبحان الله وبحمده، الله أكبر، كانوا في الدنيا على السواء يرزقون ويسيرون ويذهبون ويجيئون، يؤتاها من يحبه الله ومن لا يحب، فلما جاءهم الموت عرف كل منهم سبيله، واتضح له مقيله. فلما كانوا في البرزخ خلا كل منهم بعمله وأفضى إلى ما قدم قبل أجله، فبينما هو كذلك إذ صرخ بهم الصارخ وصاحبهم الصائح، فخرجوا من الأجداث مسرعين، وإلى الداعي مهطعين، هذا على النجائب، وهذا على الركائب، وهذا على قدميه، وهذا على وجهه. هؤلاء في النور ينظرون، وأولئك في ظلمات لا يبصرون. هؤلاء إلى الرحمن يفدون، وأولئك إلى النار يردون. هؤلاء حلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شراباً طهوراً، وأولئك غلوا بالسلاسل وعلتهم الزبانية بالمقامع يضربون بطوناً منهم وظهوراً. هؤلاء وقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً. وأولئك أعد الله لهم سعيراً، ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢ ـ ١٤]. هؤلاء عليهم حلل السندس والإستبرق وسائر الألوان، وأولئك مقرنون في الأصفاد سرابيلهم من قطران. هؤلاء إلى زيارة ربهم يركبون، وأولئك إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون. هؤلاء ينظرون إلى ربهم بكرةً وعشياً، وأولئك تركوا في جهنم جثياً. هؤلاء يقول لهم ربهم سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبي الدار، وأولئك يقول لهم أخسأوا فيها ولا تكلمون وما هم بخارجين من النار. هؤلاء يقررون بذنوبهم فيغفرها لهم رب العالمين، وأولئك ينادى بهم على رؤوس الأشهاد: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فحينئذٍ ظهر الفرقان، وافترق الطريقان، وامتاز الفريقان، وصار الغيب شهادة والسر علانية، والمستور مكشوفاً، والمخبأ ظاهراً ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص: ٢٨] ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُم

﴿وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١] كم كأسٍ في الدنيا طال يومئذٍ عريه، كم طاعم في الدنيا عظم يومئذٍ جوعه، كم ريان في الدنيا اشتد يومئذٍ عطشه، كم ناعم في الدنيا حق به يومئذٍ بؤسه ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٨٣، ٨٤].

نادت بوشك رحيلك الأيام ... أفلست تسمع أم بك استصمام
ومضى أمامك من رأيت وأنت للـ ... ـباقين حتى يلحقوك إمام
مالي أراك كأن عينك لا ترى ... عبراً تمر كأنهن سهام
تأتي الخطوب وأنت منتبه لها ... فإذا مضت فكأنها أحلام
قد ودعتك من الصبا نزواته ... فاجهد فمالك بعدهن مقام
وأرض المشيب من الشباب خليفة ... فكلاهما لك خلفة ونظام
وكلاهما حجج عليك قوية ... وكلاهما نعم عليك جسام
ولقد غنيت من الشباب بغبطة ... ولقد كساك وقاره الإسلام
أهلاً وسهلاً بالمشيب مؤدبًا ... وعلى الشباب تحية وسلام
ما زخرف الدنيا وزبرج أهلها ... إلا غرور كله وحطام
ولرب ذي فرش ممهدة له ... أمسى عليه من التراب ركام
ولكم رأيت محلة أقوت وكم ... جدث رأيت تلوح فيه عظام
والموت يمل والعيون قريرة ... تلهو وتعبث بالمنى وتنام
فالحمد لله الذي هو دائم ... أبداً وليس لما سواه دوام
والحمد لله الذي لجلاله ... ولحلمه تتصاغر الأحلام
والحمد لله الذي هو لم يزل ... لا تستقل بعلمه الأوهام
سبحانه ملك تعالى جده ... ولوجهه الإجلال والإكرام

* * *

أهوال يوم القيامة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

أختي المسلمة: إن يوم القيامة يوم عظيم، يوم عسير، يوم ثقيل على النفوس، لا يلاقي العباد يومًا مثله، من شدة هوله وعظم فظاعته، وحسبنا أن الله تعالى قد وصف ذلك اليوم بهذه الأوصاف، فتأملي يا أمة الله في هذه الآيات لتدركي عظم ذلك اليوم وشدة هوله.

يقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ (٤) لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ (٥) يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦)﴾ [المطففين: ٤ ـ ٦].

أي ما يخاف أولئك من البعث والقيام بين يدي من علم السرائر والضمائر في يوم عظيم الهول كثير الفزع جليل الخطب، من خسر فيه أدخل ناراً حامية؟

وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٦)﴾ أي يقومون حفاة عراة غرلاً في موقف صعب حرج ضيق ضنك على المجرم ويغشاهم من أمر الله تعالى ما تعجز القوى والحواس عنه.

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا (٢٧)﴾ [الإنسان: ٢٧].

فيقول تعالى منكراً على الكفار ومن أشبههم في حب الدنيا والإقبال عليها والانصباب إليها وترك الدار الآخرة وراء ظهورهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ

وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ يعني يوم القيامة.

ويقول الله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: الآيتان ٩، ١٠].

أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلائق للبعث والنشور.

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾﴾ لكثرة أهواله وشدائده.

﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبوار.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨].

وذلك اليوم يوم طويل كما الحق سبحانه وتعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٣ ـ ٧].

فيقول تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، أي: ذو العلو والجلال، والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة، بما جعلها على تدبيره، وتعرج إليه الروح.

وهذا إسم جنس، يشمل الأرواح كلها، برها وفاجرها، وهذا عند الوفاة.

فأما الأبرار، فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عزّ وجلّ ربها، فتحيي وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام، والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار، فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء، استأذنت فلا يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة، وسرعة السير.

مع أن تلك المسافة على السير المعتاد، مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى بلوغها ما حد لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى.

فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره، العلي الأعلى.

فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، ومستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره وإحسانه، ما عمهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فبؤساً لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان.

وسبحان الحليم الذي أملهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم، وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية الكريمة، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل عليه.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تعالى يظهر لعباده في يوم القيامة، من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، ما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدة ونازلة، بالتدابير الإلهية، والشئون الربانية.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾ من طوله وشدته، لكن الله تعالى، يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥﴾، أي: أصبر على دعوتك لقومك، صبراً جميلاً، لا تضجر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ الضمير يعود إلى البعث، الذي فيه عذاب

السائلين بالعذاب، أي: إن حالهم، حال المنكر له، والذي غلبت عليه الشقوة والسكرة حتى تباعد جميع ما أمامه، من البعث والنشور.

والله يراه قريباً، لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وما هو آت، فهو قريب.

ولطول ذلك اليوم يظن الناس أنهم لم يلبثوا في الحياة الدنيا إلا ساعة من نهار كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس: ٤٥].

فيقول تعالى مذكرًا للناس قيام الساعة وحشرهم من أجداثهم إلى عرصات القيامة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ الآية كقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

وهذا كله دليل على استقصار الحياة الدنيا في الدار الآخرة. وقوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يعرف الأبناء الآباء والقرابات بعضهم لبعض كما كانوا في الدنيا ولكن كل مشغول بنفسه ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم ألا ذلك هو الخسران المبين ولا خسارة أعظم من خسارة من فرق بينه وبين أحبته يوم الحسرة والندامة.

ويقول تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

أي إذا قاموا من قبورهم إلى المحشر يستقصرون مدة الحياة الدنيا حتى كأنها عندهم كانت عشية من يوم أو ضحى من يوم.

ويقول سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

فيخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ففي الدنيا فعلوا من عبادة الأوثان وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا

غير ساعة واحدة في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم وأنهم لم ينظروا حتى يعذر إليهم.

ويقول سبحانه: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢ ـ ١١٤].

فيقول تعالى منبهاً لهم على ما أضاعوه في عمرهم القصير في الدنيا من طاعة الله تعالى وعبادته وحده، ولو صبروا في مدة الدنيا القصيرة لفازوا كما فاز أولياؤه المتقون ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي كم كانت إقامتكم في الدنيا.

﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾﴾ أي الحاسبين. ﴿قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ﴾ أي مدة يسيرة على كل تقدير. ﴿لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لما أخرتم الفاني على الباقي ولما تصرفتم لأنفسكم هذا التصرف السيء، ولا استحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة، فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا.

قال أحد العلماء رحمهم الله: عباد الله يعيش ابن آدم ما قدر الله له أن يعيش، ويمشي الإنسان في هذه الأرض ويتقلب فيها، ويرى حلوها ومرها وسرورها وأحزانها، ويأخذ فيها حظه من الشقاء وحظه من السعادة، بمقدار ما قدره الله له وما قدره عليه، ولكن لكل هذا نهاية، ولكل ذلك غاية قال الله جلّ وعلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فسبيل الموت غاية كل حي، والخلود في دار الفناء غير معقول، أيها المسلم عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه.

لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... إذا زال عن عين البصير غطاؤها
وكيف بقاء الناس فيها وإنما ... ينال بأسباب الفناء بقاؤها

* * *

سلام على دار الغرور فإنها منغصة لذاتها بالفجائع
فإن جمعت بين المحبين ساعة فعما قليل أردفت بالموانع

فالبقاء في الدنيا محال، هذه الدنيا جسر، هذه الدنيا ممر ومعبر وطريق إلى الآخرة، ومن الناس من يتخبط في هذه الطريق ويتعثر فيها ولا يهتدي، ومن الناس من يوفقه الله فيسلكها مستقيماً لا يلوي على شيء إلا على زاد الآخرة، وأمل يهدف إليه، في تلك الدار الباقية، ذلك الهدف هو رضى رب العزة والجلال، الذي فيه كل نعيم، الذي فيه الهدوء والاطمئنان، والذي فيه الفوز والنجاة من كل مكروه، تلك حال من اتعظ واعتبر فنفعته العبرة، ولمس الموعظة من دروس الحياة وأحداثها فاهتدى، وزاده الله هدى، تلك حال من اعتبروا، فنفعتهم العبرة، وجعلوا التقوى إلى الله أمامهم لا يحيدون عنها، يخافون ربهم ويخشون سوء الحساب. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النّور: ٥٢].

أختي المسلمة: لقد خرجت من ظلمات، وستنتهين إلى ظلمات خرجت من ظلمات الأرحام، وتنتظرك ظلمات القبور، خرجت من أحشاء أمك، واستقبلتك أحشاء أخرى، أقوى وأعظم، قال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥] دفعك جوف يحن عليك، إلى جوف الأرض، وبين الجوفين أمور وأمور، ففي الدنيا السراء والضراء والسعادة والشقاء إنك تخرجين من شدة إلى رخاء، ومن رخاء إلى بلاء، وتصادفك عقبات في طريقك، بعد عقبات، وتتغير أحوالك من حالات إلى حالات، فمن ذل إلى عز، ومن عز إلى ذل، ومن غنى إلى فقر ومن فقر إلى يسر، ومن صحة إلى مرض، ومن مرض إلى عافية، ومن راحة إلى تعب، هذه هي الدنيا وهذه أحوالها، عزها لا يدوم، ورخاؤها لا يبقى، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عِمرَان: ٢٦] فحاسبي نفسك يا أمة الله قبل أن تحاسبي، وزني أعمالك قبل أن توزن عليك، وراقبي مولاك الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وتوبي إليه توبةً نصوحاً فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

يا منفق العمر في حرص وفي طمع إلى متى قد تولى وانقضى العمر
إلى متى ذا التمادي في الضلال أما تثنيك موعظة لو ينفع الذكر
بادر متاباً عسى ما كان من زلل وما اقترفت من الآثام يغتفر
وجنب الحرص واتركه فما أحد ينال بالحرص ما لم يعطه القدر
ولا تؤمل لما ترجو وتحذره من ليس في كفه نفع ولا ضرر
وفوض الأمر للرحمن معتمداً عليه في كل ما تأتي وما تذر
واحذر هجوم المنايا واستعد لها ما دام يمكنك الإعداد والحذر

ورحم الله من قال:

أوصيكم يا معشر الإخوان عليكم بطاعة الديان
إياكم أن تهملوا أوقاتكم فتندموا يوماً على ما فاتكم
وإنما غنيمة الإنسان شبابه والخسر في التواني
ما أحسن الطاعة للشبان فأسعوا لتقوى الله يا إخواني
وأعمروا أوقاتكم بالطاعة والذكر كل لحظة وساعة
ومن تفته ساعة في عمره تكن عليه حسرة في قبره
ومن يكن فرط في شبابه حتى مضى عجبت من تبابه
ويا سعادة امرئ قضاه في عمل يرضى به مولاه
أحب ربي طاعة الشباب يا فوزهم بجنة الرضوان
فتب إلى مولاك يا إنسان من قبل أن يفوتك الأوان
ومن يقل إني صغير أصبر ثم أطيع الله حين أكبر
فإن ذاك غره إبليس وقلبه مغلق مطموس
لا خير فيمن لم يتب صغيراً ولم يكن بعيبه بصيرا
مجانباً للإثم والعصيان مخالفاً للنفس والشيطان
ملازماً تلاوة القرآن مستعصماً بالذكر من نسيان
مراقباً لله في الشؤون محاذراً من سائر الفتون
مجانباً رذائل الأخلاق مجافياً كلاً عدا الخلاق
محارباً لنزعة الضلال وصولة الأهواء وسوء الحال

فإن أردت الفوز بالنجاة فاسلك سبيل الحق والهداة
يا من يروم الفوز في الجنات بالمشتهى وسائر اللذات
إنهض إلى السجدات في الأسحار واحرص على الأوراد والأذكار
واحذر رياء الناس في الطاعات في سائر الأحوال والأوقات
واختر من الأصحاب كل مرشد إن القرين بالقرين يقتدي
وصحبة الأشرار داء وعمى تزيد في القلب السقيم السقما
فإن تبعت سنة النبي فاحذر قرين السوء والدنيي
واختر من الزوجات ذات الدين وكن شجاعاً في حمى العرين
وزود الأولاد بالآداب تحفظ قلوبهم من الأوصاب
وهذب النفوس بالقرآن ولا تدعها نهبة الشيطان
واحرص على ما سنه الرسول فهوا الهدى والحق إذ يقول
دع عنك ما يقوله الضُّلّال ففيه كل الخسر والوبال
وأصدق الحديث قول ربنا وخير هدي الله عن نبينا
يا أيها الغفلان عن مولاه أنظر بأي سيء تلقاه
أما علمت الموت يأتي مسرعاً وليس للإنسان إلا ما سعى
وليس للإنسان من بعد الأجل إلا الذي قدمه من العمل
فبادر التوبة في إمكانها من قبل أن تصد عن إتيانها
يا أيها المغرور ما هذا العمل إلى متى هذا التراخي والكسل
لو يعلم الإنسان قدر موته ما ذاق طول الدهر طعم قوته
مالي أراك لم تفد فيك العبر ويحك هذا القلب أقسى من حجر
وأفلس الناس طويل الأمل مضيع العمر كثير الخطل
نهاره ممضيه في البطالة وليله في النوم بئس الحالة
ادع لنا يا سامعّا وصيتي بالعفو والصفح مع العطية
والستر فضلاً منه للعيوب والمحو في الكتاب للذنوب
يا رب جد بالفضل والإحسان والروح والريحان والجنان
ولا تؤاخذنا على النسيان ولا على الإخطاء ولا العصيان

يا رب واحفظنا من الفتان ... ولا تذقنا حرقة النيران
يا رب وانصرنا على الأعداء ... واحم الحمى من هيشة الغوغائي
ودينك احفظه مع الأمان ... للأهل في الأقطار والأوطان
والحمد لله على الختام ... والشكر لله على الإنعام
ما أعظم الإنعام من مولانا ... وأجزل الإفضال إذ هدانا
لنعمة الإيمان والإسلام ... والاقتداء بسيد الأنام
ثم صلاة الله والسلام ... ما ناح طير الأيك والحمام
على النبي المصطفى البشير ... الهاشمي المجتبى النذير
وآله ما انبلج الصباح ... وصحبه ما هبت الرياح

* * *

(ما يلاقيه العباد في ذلك اليوم)

ويصيب العباد في ذلك اليوم الرعب والفزع والخوف حتى أن الناس يكونون كالسكارى من شدة هول ذلك اليوم وفظاعته وتسقط الحامل حملها وتذهل فيه المرضعة عما أرضعت، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: الآيتان ١، ٢].

ففي هذه الآيات يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم، أن يتقوه، بترك الشرك، والفسوق، والعصيان ويمتثلوا أوامره، مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو: الإخبار بأهوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض، وزلزلت زلزالها، وتصدعت الجبال، واندكت، وكانت كثيباً مهيلاً، ثم كانت هباءً منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من القلاقل والبلابل، ما تنصدع له القلوب، وتوجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ مع أنها مجبولة على شدة

محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها. ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ من شدة الفزع والهول.

﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ أي: تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى. ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم، لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً. ويومئذٍ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾.

وهناك ﴿يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]، وتسود حينئذٍ وجوه وتبيض وجوه. وتنصب الموازين، التي يوزن بها مثاقيل الذر، من الخير والشر، وتنشر صحائف الأعمال، وما فيها من جميع الأعمال والأقوال، والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين. ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٢، ١٣]، ويقال لهم: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾ [الفرقان: ١٤]، وإذا نادوا ربهم، ليخرجهم منها، قال: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]. قد غضب عليهم الرب الرحيم وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها نقيراً ولا قطميراً.

هذا، والمتقون في روضات الجنات يحبرون، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتهت أنفسهم خالدون.

فحقيق بالعاقل، الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يعد له عدته، وأن لا يلهيه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله، وذكره، روح أعماله.

وفي ذلك اليوم يشيب شعر الوليد الذي لم يرتكب ذنباً ولم يقترف إثماً من

شدة ما يرى من أهوال كما قال الحق سبحانه: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾ [المزمّل: الآيتان ١٧، ١٨].

فقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ أي من شدة أهواله وزلازله وبلابله، وقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ قال الحسن وقتادة: أي بسببه من شدته وهوله ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ أي كان وعد هذا اليوم مفعولاً أي واقعاً لا محالة وكائناً لا محيد عنه.

وفي ذلك اليوم تخاف القلوب وتوجل وتخشع الأبصار من شدة ما ترى كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧] وقال سبحانه تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات: ٨، ٩].

وفي ذلك اليوم تشخص أبصار الظلمة فلا تطرف لشدة الرعب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم: ٤٢، ٤٣].

فهذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين. يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ﴾ حيث أمهلهم وأدر عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد، آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم، فإن الله يملي للظالم ويمهله، ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه، لم يفلته ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢].

والظلم ـ ههنا ـ يشمل الظلم فيما بين العبد وربه، وظلمه لعباد الله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: لا تطرف من شدة ما ترى، من الأهوال وما أزعجها من القلاق.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها قد غلت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم، ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ

﴿طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم، وحزن وقلق».

وترتفع قلوب الظالمين لشدة الهول إلى حناجرهم كما قال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨].

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وآن الوصول إلى أهوالها، وقلاقلها، وزلازلها.

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ أي: قد ارتفعت، وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب، من الروع والكرب، إلى الحناجر، شاخصة أبصارهم. ﴿كَٰظِمِينَ ۚ﴾ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨]، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروع الشديد، والمزعجات الهائلة.

وفي ذلك اليوم تنقطع الأنساب بين الناس فلا تنفع حينئذٍ كما قال سبحانه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ففي هذه الآية يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور، نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول، ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب، من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله، لاشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٣]. ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣ ـ ٣٧].

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل، ما له، وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من الخير والشر.

فكل إنسان لا يهتم إلا بنفسه ولا يلتفت إلى غيره، حتى إنه يفر من أحب الناس إليه، يفر من أخيه وأمه وأبيه وزوجته وأبنائه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عَبَسَ: ٣٣ - ٣٧].

أي: إذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذٍ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.

﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ﴾ من أعز الناس عليه، وأشفقهم عليه ﴿مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، أي: زوجته ﴿وَبَنِيهِ﴾.

وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾، أي: قد شغلته نفسه، واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها.

فحينئذٍ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء، وأشقياء.

ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣].

فيأمر تعالى الناس بتقواه، التي هي: امتثال أوامره، وترك زواجره. ويستلفتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد، الذي فيه كل أحد، لا يهمه إلا نفسه ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

فلفت النظر لهذا اليوم المهول، ما يقوي العبد، ويسهل عليه تقوى الله. وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزجرهم عنه بالمواعظ والمخوفات. فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وزخارفها، وما فيها من الفتن والمحن.

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الذي هو الشيطان، ما زال يخدع الإنسان لا يغفل عنه في جميع الأوقات. فإن لله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه، أم قصروا فيه. وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليها.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتانة، والشيطان الموسوس المسول. فنهى تعالى عباده، أن تغرهم الدنيا، أو يغرهم بالله الغرور ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠].

وهكذا يفر الإنسان من أعز الناس لديه حتى إن الكافر ليتمنى لو افتدى نفسه في النار بأعز الناس عنده لينجو هو من العذاب كما قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٨].

فيقول تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، أي: زوجته ﴿وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: قرابته ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾، أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصر، ويعين بعضها بعضاً.

ففي القيامة لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي المجرم المستحق للعذاب بكل من يعرفه ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾﴾ ذلك لم ينفعه.

﴿كَلَّآ﴾، أي: لا حيلة ولا مناصر لهم، قد حقت عليهم كلمة ربك، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾، أي: النار التي تتلظى، تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة.

﴿تَدْعُوا۟﴾ إلى نفسها: ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، أي: أدبر عن اتباع الحق، وأعرض عنه، فلا غرض له فيه، وجمع الأموال بعضها فوق بعض،

وأوعاها فلم ينفق منها ما ينفعه، ويدفع عنه النار، فالنار تدعو هؤلاء إلى نفسها، وتستعد للالتهاب بهم.

وفي ذلك اليوم يقبض الله تعالى الأرض بيده ويطوي السموات بيمينه كما قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُمَر: ٦٧].

فيقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون بهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله، ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء، ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.

فسووا هذا المخلوق الناقص، بالخالق الرب العظيم، الذي ـ من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة ـ أن جميع الأرض يوم القيامة، قبضة للرحمن، وأن السموات ـ على سعتها وعظمتها ـ مطويات بيمينه. فلم يعظمه حق تعظيمه، من سوى به غيره، وهل أظلم ممن فعل ذلك؟

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه، وتعاظم عن شركهم به.

ويقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

فيخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السموات على عظمها واتساعها كما يطوي الكاتب للسجل أي الورقة المكتوب فيها، فتنتثر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ أي إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم فكما ابتدأنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً كذلك نعيدهم بعد موتهم.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ﴾ ننفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض»** متفق عليه.

وفي لفظ مسلم قال ﷺ: **«يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون، أين المتكبرون ثم يطوي الأرض بشماله»**.

وهذا القبض للأرض والطي للسماوات يقع بعد أن يفني الله تبارك وتعالى خلقه.

ويخبرنا ربنا تبارك وتعالى أن أرضنا الثابتة وما عليها من جبال صم راسيات تحمل في يوم القيامة عندما ينفخ في الصور فتدك دكة واحدة: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ [الحاقّة: ١٣ ـ ١٥].

فيقول تعالى مخبراً عن أهوال يوم القيامة وأول ذلك نفخة الفزع ثم يعقبها نفخة الصعق حين يصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم بعدها نفخة القيام لرب العالمين والبعث والنشور وهي هذه النفخة ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ أي فمدت مد الأديم العكاظي وتبدلت الأرض غير الأرض ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾ أي قامت القيامة.

ويقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١].

فيخبر تعالى عما يقع يوم القيامة من الأهوال العظيمة فقال تعالى: ﴿كَلَّآ﴾ أي حقاً ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي وطئت ومهدت وسويت الأرض والجبال وقام الخلائق من قبورهم لربهم.

فعند ذلك تتحول هذه الجبال الصلبة القاسية إلى رمل ناعم كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ أي تصبح ككثبان الرمل بعد أن كانت حجارة صماء.

ويقول الله تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾﴾ [القارعة: ٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبإ: ٢٠].

ويقول الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا

صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

فيقول تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ أي هل تبقى يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ أي يذهبها عن أماكنها ويمحقها ويسيرها تسييرًا: ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أي الأرض ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ أي بساطاً واحداً، والقاع هو المستوي من الأرض والصفصف تأكيد لمعنى ذلك، وقيل الذي لا نبات فيه، والأول أولى وإن كان الآخر مراداً أيضاً باللازم ولهذا قال: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ أي لا ترى في الأرض يومئذٍ وادياً ولا رابية ولا مكاناً منخفضاً ولا مرتفعاً.

أما هذه البحار العظيمة حولنا فإنها تتفجر في ذلك اليوم الرهيب وتشتعل ناراً وتأملي معي أختي المسلمة كيف يكون منظر هذه البحار وهي تشتعل ناراً واللهب يرتفع منها إلى أعلى.

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ [الانفطار: ٣].

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾﴾ [التكوير: ٦].

أما هذه السماء الجميلة الزرقاء التي ننظر إليها ونتمتع في النظر إليها فإنها تمور موراناً وتضطرب اضطراباً عظيماً كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾﴾ [الطُّور: ٩].

ثم إنها تنفطر وتتشقق كما قال الحق سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾﴾ [الانفِطار: ١].

وكما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾﴾ [الانشقاق: ١، ٢].

فيقول تعالى مبيناً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾﴾ أي انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها وخسف شمسها وقمرها ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاخت لخطابه ﴿وَحُقَّتْ﴾ أي حق لها ذلك فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

وعند ذلك تصبح السماء ضعيفة واهية كالبنيان المتين الذي تصيبه الزلازل وتجعله ضعيفاً متصدعاً، يقول الله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقّة: ١٦].

أما لون السماء الأزرق الجميل فإنه يزول ويذهب ويتغير كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٣٧].

أما هذه الشمس الجميلة التي يشع نورها في أرضنا والتي ننتفع منها منافع عديدة فإنها تجمع وتكور ويذهب ضوؤها كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾﴾ [التكوير: ١].

أما هذا القمر الجميل الذي ننبهر بجماله ويؤنسنا في ليلنا فإنه يخسف ويذهب ضوؤه كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾ [القيامَة: ٧ ـ ٩].

أما تلك النجوم المتناثرة في السماء الزرقاء فإن عقدها ينفرط فتتناثر وتتكدر كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ٢].

وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ٢].

وتدنو الشمس من رؤوس العباد في ذلك اليوم حتى لا يكون بينها وبينهم إلا ميل واحد ولولا أنهم مخلوقون خلقاً غير قابل للفناء لانصهروا وذابوا وتبخروا ولكنهم بعد الموت لا يموتون.

ويذهب عرقهم في الأرض حتى يرويها ثم يرتفع فوق الأرض ويأخذهم على قدر أعمالهم، ففي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تدني الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل**» قال سليم بن عامر فوالله ما أدري ما يعني بالميل: أمسافة الأرض أم الميل الذي تكتحل به العين؟ قال: «**فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً**» قال: وأشار رسول الله ﷺ إلى فيه.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «روى الترمذي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: ١]، و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: ١]». قال: هذا حديث حسن.

وإنما كانت هذه السور الثلاث أخص بالقيامة، لما فيها من انشقاق السماء وانفطارها، وتكور شمسها وانكدار نجومها، وتناثر كواكبها، إلى غير ذلك من أفزاعها وأهوالها، وخروج الخلق من قبورهم إلى سجونهم أو قصورهم، بعد نشر صحفهم، وقراءة كتبهم، وأخذها بأيمانهم وشمائلهم، أو من وراء ظهورهم في موقفهم.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ [الانشقاق: ١]. وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ [الانفطار: ١]. وقال: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾ [الفرقان: ٢٥]، فتراها واهية منفطرة متشققة، كقوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ۝١٩﴾ [النبإ: ١٩]، ويكون الغمام سترة بين السماء والأرض، وقيل إن الباء بمعنى عن، أي تشقق عن سحاب أبيض. ويقال: إنشقاقها لما يخلص إليها من حر جهنم، وذلك إذا بطلت المياه، وبرزت النيران، فأول ذلك أنها تصير حمراء صافية كالدهن، وتتشقق لما يريد الله من نقض هذا العالم، ورفعه. وقد قيل: إن السماء تتلون، فتصفر، ثم تحمر، أو تحمر، ثم تصفر، كالمهرة تميل في الربيع إلى الصفرة، فإذا اشتد الحر مالت إلى الحمرة، ثم إلى الغبرة.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١] قال ابن عباس رضي الله عنه: تكويرها إدخالها في العرش. وقيل: ذهاب صفوها، قاله الحسن وقتادة، وروي ذلك عن ابن عباس ومجاهد. وقال أبو عبيدة: كورت مثل تكوير العمامة، تلف فتمحى. وقال الربيع بن خيثم: كورت رمي بها، ومنه: كورته، فتكور. أي سقط. قلت: وأصل التكوير الجمع، مأخوذ من كار العمامة على رأسه يكورها، أي لاثها، وجمعها، فهي تكور، ثم يمحو ضوءها ثم يرمى بها، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير: ٢] أي انتثرت، قيل: تتناثر

من أيدي الملائكة، لأنهم يموتون، وفي الخبر أنها معلقة بين السماء والأرض بسلاسل بأيدي الملائكة. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنكدرت تغيرت، وأصل الانكدار الإنصباب، فتسقط في البحار، فتصير معها نيراناً، إذا ذهبت المياه.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير: ٣] هو مثل قوله: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧] أي تحول عن منزلة الحجارة، فتكون كثيباً مهيلاً، أي رملاً سائلاً، وتكون كالعهن، وتكون هباءً منبثاً، وتكون سراباً، مثل السراب الذي ليس بشيء. وقيل: إن الجبال بعد اندكاكها أنها تصير كالعهن من حر جهنم، كما تصير السماء من حرها كالمهل قال الحليمي: وهذا والله أعلم لأن مياه الأرض كانت حاجزة بين السماء والأرض، فإذا ارتفعت، وزيد مع ذلك في إحماء جهنم أثر في كل واحد من السماء والأرض ما ذكر.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾ [التكوير: ٤] أي عطلها أهلها، فلم تحلب من الشغل بأنفسهم. والعشار الإبل الحوامل، وأحدها عشر، وهي التي أتى عليها في الحمل عشرة أشهر، ثم لا يزال ذلك إسمها حتى تضع، وبعدما تضع، وإنما خص العشار بالذكر، لأنها أعز ما يكون على العرب، فأخبر أنها تعطل يوم القيامة. ومعناه أنهم إذا قاموا من قبورهم، وشاهد بعضهم بعضاً ورأوا الوحوش والدواب محشورة، وفيها عشارهم التي كانت أنفس أموالهم، لم يعبؤوا بها، ولم يهمهم أمرها، ويحتمل تعطل العشار إبطال الله تعالى أملاك الناس عما كان ملكهم إياها في الدنيا، وأهل العشار يرونها، فلا يجدون إليها سبيلاً. وقيل: العشار: السحاب، يعطل مما يكون فيه، وهو الماء، فلا يمطر. وقيل: العشار الديار، تعطل فلا تسكن. وقيل: الأرض التي يعشر زرعها تعطل فلا تزرع، والقول الأول أشهر وعليه من الناس الأكثر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ [التكوير: ٥] أي جمعت، والحشر الجمع، وقد تقدم.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾ [التكوير: ٦]. أي أوقدت، وصارت ناراً. رواه الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنه. وقال قتادة: غار ماؤها، فذهب. وقال

الحسن والضحاك: فاضت. قال ابن أبي زمنين: سجرت حقيقته ملئت، فيفضي بعضها إلى بعض، فتصير شيئاً واحداً. وهو معنى قول الحسن. ويقال: أن الشمس تلف، ثم تلقى في البحار، فمنها تحمى، وتنقلب ناراً. قال الحليمي: ويحتمل إن كان هذا هكذا أن البحار في قول من فسر التسجير بالامتلاء هو أن النار حينئذٍ تكون أكثرها، لأن الشمس أعظم من الأرض مرات كثيرة، فإذا كورت، وألقيت في البحر، فصارت ناراً، إزدادت إمتلاءاً.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝﴾ [التكوير: ٧] تفسير الحسن أن تلحق كل شيعة شيعتها: اليهود باليهود، والنصارى بالنصارى، والمجوس بالمجوس، وكل من كان يعبد من دون الله شيئاً يلحق بعضهم ببعض، والمنافقون بالمنافقين، والمؤمنون بالمؤمنين. وقال عكرمة: المعنى تقرن بأجسادها، أي ترد إليها، وقيل: يقرن الغاوي بمن أغواه من شيطان أو إنسان. وقيل: يقرن المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝﴾ [التكوير: ٨] يعني بنات الجاهلية، كانوا يدفنوهن أحياء، لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله، فألحقوا البنات به. الثانية: مخافة الحاجة والإملاق، وسؤال الموؤدة على وجه التوبيخ لقاتلها، كما يقال للطفل إذا ضرب: لم ضربت؟ وما ذنبك؟ وقال الحسن: أراد الله أن يوبخ قاتلها، لأنها قتلت بغير ذنب. وبعضهم يقرأ: وإذا الموؤدة سألت، تعلق الجارية بأبيها، فتقول: بأي ذنب قتلتني؟ وقيل: معنى سئلت، يسأل عنها كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝﴾ [التكوير: ١٠] أي للحساب.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝﴾ [التكوير: ١١] قيل: معناه طويت، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، أي كطي الصحيفة على ما فيها، فاللام بمعنى «على»، يقال: كشطت السقف، أي قلعته، فكان المعنى: قلعت، فطويت والله أعلم، والكشط والقشط سواء، وهو القلع.

وقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝﴾ [التكوير: ١٢] أي أوقدت. وقوله: ﴿وَإِذَا

ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾ [التكوير: ١٣] أي قربت لأهلها، وأدنيت.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾ [التكوير: ١٤] أي من عملها، وهو مثل قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار: ٥].

ومما قيل في وصف أهوال ذلك اليوم شعراً:

مثل لنفسك أيها المغرور	يوم القيامة والسماء تمور
إذ كورت شمس النهار وأدنيت	حتى على رأس العباد تسير
وإذا النجوم تساقطت وتناثرت	وتبدلت بعد الضياء كدور
وإذا البحار تفجرت من خوفها	ورأيتها مثل الجحيم تفور
وإذا الجبال تقلعت بأصولها	فرأيتها مثل السحاب تسير
وإذا العشار تعطلت وتخربت	خلت الديار فما بها معمور
وإذا الوحوش لدى القيامة أحشرت	وتقول للأملاك أين تسير
وإذا تقاة المسلمين تزوجت	من حور عين زانهن شعور
وإذا الموؤدة سئلت عن شأنها	وبأي ذنب قتلها ميسور
وإذا الجليل طوى السماء بيمينه	طي السجل كتابه المنشور
وإذا الصحائف نشرت فتطايرت	وتهتكت للمؤمنين ستور
وإذا السماء تكشطت عن أهلها	ورأيت أفلاك السماء تدور
وإذا الجحيم تسعرت نيرانها	فلها على أهل الذنوب زفير
وإذا الجنان تزخرفت وتطيبت	لفتى على طول البلاء صبور
وإذا الجنين بأمه متعلق	يخشى القصاص وقلبه مذعور
هذا بلا ذنب يخاف جنينه	كيف المصر على الذنوب دهور»

وقال الحارث المحاسبي رحمه الله واصفاً ما يقع في ذلك اليوم من أهوال:

«حتى إذا تكاملت عدة الموتى، وخلت من سكانها الأرض والسماء، فصاروا خامدين بعد حركاتهم، فلا حس يسمع، ولا شخص يرى، وقد بقي الجبار الأعلى كما لم يزل أزليّاً واحداً منفرداً بعظمته وجلاله، ثم لم يفجأ روحك إلا بنداء المنادي لكل الخلائق معك للعرض على الله عزّ وجلّ بالذل والصغار منك ومنهم.

فتوهم كيف وقوع الصوت في مسامعك وعقلك وتفهم بعقلك بأنك تدعى إلى العرض على الملك الأعلى، فطار فؤادك، وشاب رأسك للنداء، لأنها صيحة واحدة بالعرض على ذي الجلال والإكرام والعظمة والكبرياء ـ فبينما أنت فزع للصوت إذ سمعت بانفراج الأرض على رأسك، فوثبت مغبرّاً من قرنك إلى قدمك بغبار قبرك قائم على قدميك، شاخص ببصرك نحو النداء، وقد ثار الخلائق كلهم معك ثورة واحدة وهم مغبرون من غبار الأرض التي طال فيها بلاؤهم.

فتوهم ثورتهم بأجمعهم بالرعب والفزع منك ومنهم، فتوهم نفسك بعريك ومذلتك وانفرادك بخوفك وأحزانك وغمومك وهمومك في زحمة الخلائق، عراة حفاة صموت أجمعون بالذلة والمسكنة والمخافة والرهبة، فلا تسمع إلا همس أقدامهم والصوت لمدة المنادي، والخلائق مقبلون نحوه، وأنت فيهم مقبل نحو الصوت، ساعٍ بالخشوع والذلة، حتى إذا وافيت الموقف إزدحمت الأمم كلها من الجن والإنس عراة حفاة، قد نزع الملك من ملوك الأرض ولزمتهم الذلة والصغار، فهم أذل أهل الجمع وأصغرهم خلقة وقدراً بعد عتوهم وتجبرهم على عباد الله عزّ وجلّ في أرضه.

ثم أقبلت الوحوش من البراري وذرى الجبال منكسة رؤوسها لذل يوم القيامة بعد توحشها وانفرادها من الخلائق ذليلة ليوم النشور لغير بلية نابتها ولا خطيئة أصابتها، فتوهم إقبالها بذلها في اليوم العظيم ليوم العرض والنشور.

وأقبلت السباع بعد ضراوتها وشهامتها منكسة رؤوسها ذليلة ليوم القيامة حتى وقفت من وراء الخلائق بالذل والمسكنة والانكسار للملك الجبار، وأقبلت الشياطين بعد عتوها وتمردها خاشعة لذل العرض على الله سبحانه فسبحان الذي جمعهم بعد طول البلاء واختلاف خلقهم وطبائعهم وتوحش بعضهم من بعض قد أذلهم البعث وجمع بينهم النشور.

حتى إذا تكاملت عدة أهل الأرض من إنسها وجنها وشياطينها ووحوشها وسباعها وأنعامها وهوامها، واستووا جميعاً في موقف العرض والحساب تناثرت نجوم السماء من فوقهم وطمست الشمس والقمر، وأظلمت الأرض بخمود سراجها وإطفاء

نورها. فبينما أنت والخلائق على ذلك إذ صارت السماء الدنيا من فوقهم، فدارت بعظمها من فوق رؤوسهم، وذلك بعينك تنظر إلى هول ذلك، ثم انشقت بغلظها خمسمائة عام، فيا هول صوت انشقاقها في سمعك، ثم تمزقت وانفطرت بعظيم هول يوم القيامة والملائكة قيام على أرجائها وهي حافات ما يتشقق ويتفطر، فما ظنك بهول تنشق فيه السماء بعظمها، فأذابها ربها حتى صارت كالفضة المذابة تخالطها صفرة لفزع يوم القيامة كما قال الجليل الكبير: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ [الرّحمٰن: ٣٧]، ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾﴾ [المعَارج: ٨، ٩].

فبينا ملائكة السماء الدنيا على حافتها إذ انحدروا محشورين إلى الأرض للعرض والحساب، وانحدروا من حافتيها بعظم أجسامهم وأخطارهم وعلو أصواتهم بتقديس الملك الأعلى الذي أنزلهم محشورين إلى الأرض بالذلة والمسكنة للعرض عليه والسؤال بين يديه.

فتوهم تحدرهم من السحاب بعظيم أخطارهم وكبير أجسامهم وهول أصواتهم وشدة فرقهم منكسين لذل العرض على الله عزّ وجلّ. فيا فزعك وقد فزع الخلائق مخافة أن يكونوا أمروا بهم، ومسألتهم إياهم: أفيكم ربنا؟ ففزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لمليكهم أن يكون فيهم، فنادوا بأصواتهم تنزيلاً لما توهمه أهل الأرض: سبحان ربنا ليس هو بيننا فهو آتٍ، حتى أخذوا مصافهم محدقين بالخلائق منكسين رؤوسهم لذل يومهم. فتوهمهم، وقد تسربلوا بأجنحتهم ونكسوا رؤوسهم في عظم خلقهم بالذل والمسكنة والخشوع لربهم، ثم كل شيء على ذلك وكذلك إلى السماء السابعة كل أهل سماء مضعفين بالعدد، وعظم الأجساد، وكل أهل سماء محدقين بالخلائق صفًا.

حتى إذا وافى الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع أدنيت الشمس من رؤوس الخلائق قاب قوس أو قوسين، ولا ظل لأحد إلا ظل عرش رب العالمين، فمن بين مستظل بظل العرش، وبين مضحو بحر الشمس، قد صهرته بحرها واشتد كربه وقلقه من وهجها، ثم ازدحمت الأمم وتدافعت، فدفع بعضهم بعضاً وتضايقت فاختلفت الأقدام وانقطعت الأعناق من العطش واجتمع حرّ الشمس

ووهج أنفاس الخلائق وتزاحم أجسامهم، ففاض العرق منهم سائلاً حتى استنقع على وجه الأرض ثم على الأبدان على قدر مراتبهم ومنازلهم عند الله عزّ وجلّ بالسعادة والشقاء، حتى إذا بلغ من بعضهم العرق كعبيه، وبعضهم حقويه، وبعضهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من كاد أن يغيب في عرقه ومن قد توسط العرق من دون ذلك منه.

فتوهم نفسك يا عبد الله وقد علاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضاقت نفسك في صدرك من شدة العرق والفزع والرعب، والناس معك منتظرون لفصل القضاء إلى دار السعادة أو إلى دار الشقاء، حتى إذا بلغ المجهود منك ومن الخلائق منتهاه، وطال وقوفهم لا يكلمون ولا ينظرون في أمورهم.

عن قتادة أو كعب، قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. قال: يقومون مقدار ثلاثمائة عام، قال سمعت الحسن يقول: ما ظنك بأقوام قاموا لله عزّ وجلّ على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لم يأكلوا فيها أكلة ولم يشربوا فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم من العطش، واحترقت أجوافهم من الجوع إنصرف بهم إلى النار، فسقوا من عين آنية قد آن حرها، واشتد نفحها، فلا بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً في طلب من يكرم على مولاه أن يشفع لهم في الراحة من مقامهم وموقفهم لينصرفوا إلى الجنة أو إلى النار من وقوفهم ففزعوا إلى آدم ونوح ومن بعده إبراهيم، وموسى وعيسى من بعد إبراهيم، كلهم يقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، فكلهم يذكر شدة غضب ربه عزّ وجلّ وينادي بالشغل بنفسه فيقول: نفسي نفسي، فيشتغل بنفسه عن الشفاعة لهم إلى ربهم لاهتمامه بنفسه وخلاصها، وكذلك يقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

فتوهم أصوات الخلائق وهم ينادون بأجمعهم، منفرد كل واحد منهم بنفسه، ينادي نفسي نفسي، فلا تسمع إلا قول نفسي نفسي. فيا هول ذلك وأنت تنادي معهم بالشغل بنفسك والاهتمام بخلاصها من عذاب ربك وعقابه، فما ظنك بيوم ينادي فيه المصطفى آدم، والخليل إبراهيم، والكليم موسى، والروح والكلمة عيسى

مع كرامتهم على الله ـ عزّ وجلّ ـ وعظم قدر منازلهم عند الله عزّ وجلّ، كل ينادي: نفسي نفسي، شفقاً من شدة غضب ربه، فأين أنت منهم في إشفاقك في ذلك اليوم واشتغالك بذلك اليوم، وبحزنك وبخوفك؟ حتى إذا أيس الخلائق من شفاعتهم أتوا النبي محمداً ﷺ فسألوه الشفاعة إلى ربهم فأجابهم إليها، ثم قام إلى ربه عزّ وجلّ واستأذن عليه فأذن له ثم خر لربه ساجداً، ثم فتح عليه من محامده والثناء عليه لما هو أهله، وذلك كله بسمعك وأسماع الخلائق، حتى أجابه ربه عزّ وجلّ إلى تعجيل عرضهم والنظر في أمورهم».

وقال أحد العلماء رحمه الله واعظاً إخوانه: «إخواني إنكم في دار هي محل العبر والآفات، وأنتم على سفر والطريق كثيرة المخافات، فتزودوا من دنياكم قبل الممات، وتداركوا هفواتكم قبل الفوات، وحاسبوا أنفسكم وراقبوا الله في الخلوات، وتفكروا فيما أراكم من الآيات، وبادروا بالأعمال الصالحات، واستكثروا في أعماركم القصيرة من الحسنات، قبل أن ينادي بكم مناد الشتات، قبل أن يفاجئكم هادم اللذات، قبل أن يتصاعد منكم الأنين والزفرات قبل أن تنقطع قلوبكم عند فراقكم حسرات، قبل أن يغشاكم من غم الموت الغمرات، قبل أن تزعجوا من القصور إلى بطون الفلوات، قبل أن يحال بينكم وبين ما تشتهون من هذه الحياة، قبل أن تتمنوا رجوعكم إلى الدنيا وهيهات.

بكى لأن مات ميت من عشيرته ... وقال واحربا وصاح يا هربا
وبات فوق حشاه للأسى لهب ... إذا أراد خبواً فار والتهبا
ولو رآى بصحيح العقل حين رآى ... وكشف الله عنه للهوى حجبا
لما رآى الدهر ميتاً أو أحس به ... إلا بكى نفسه المسكين وانتحبا
ومن رآى السمر في جنبيه شارعة ... أنى يراها بجنب ناءٍ أو قربا
وطلعة الموت إن تطلع على أحد ... أرته في نفسه من هولها عجبا

ألا إن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، شابها يهرم، وحيها يموت، ولا يغركم إقبالها مع معرفتكم بصرعة إدبارها، المغرور من اغتر بها.

أين سكانها الذين بنوا مرابعها وشققوا أنهارها وغرسوا أشجارها وأقاموا فيها

أياماً يسيرة وغرتهم بصحبتهم وغروا بنشاطهم فركبوا المعاصي، إنهم كانوا والله بالدنيا مغبوطين بالمال على كثرة المنع عليه محسودين على جمعه.

وما صنع التراب بأبدانهم والرمل بأجسامهم والديدان بأوصالهم ولحومهم وعظامهم وإذا مررت فنادهم إن كنت منادياً وادعهم إن كنت لا بد داعياً.

ومر بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم وسل غنيهم ما بقي من غناه وسل فقيرهم ما بقي من فقره واسألهم عن الألسن التي كانوا بها يتكلمون وعن الأعين التي كانوا بها ينظرون وسلهم عن الأعضاء الرقيقة، والوجوه الحسنة والأجساد الناعمة ما صنعت بها الديدان.

محت الألوان، وأكلت اللحمان، وعفرت الوجوه، ومحت المحاسن، وكسرت الفقار، وأبانت الأعضاء، ومزقت الأشلاء قد حيل بينهم وبين العمل وفارقوا الأحبة.

فكم من ناعم وناعمة أصبحت وجوههم بالية، وأجسادهم من أعناقهم بائنة وأوصالهم متمزقة، وقد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه صديداً، ودبت دواب الأرض في أجسامهم، وتفرقت أعضاؤهم.

ثم لم يلبثوا إلا يسيراً حتى عادت العظام رميماً قد فارقوا الحدائق فصاروا بعد السعة إلى المضائق قد تزوجت نساؤهم وترددت في الطرق أبناؤهم.

فمنهم والله الموسع له في قبره الغض الناعم فيه المتنعم بلذاته، فيا ساكن القبر ما الذي غرك في الدنيا هل تظن أنك تبقى أو تبقى لك؟ أين دارك الفيحاء ونهرك المطرد؟ وأين ثمرتك الحاضر ينعها؟ وأين رقاق ثيابك؟ وأين كسوتك لصيفك وشتائك؟ هيهات هيهات يا مغمض الوالد والأخ وغاسله وحامله يا مدليه في قبره وراحل عنه، ليت شعري كيف نمت على خشونة الثرى، وبأي خديك بدأ البلى، يا مجاور الهلكى صرت في محلة الموت، ليت شعري ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروج روحي من الدنيا.

فيا عباد الله أوصيكم ونفسي بتقوى الله فالزموها، وأحثكم على الأعمال الصالحة فاغتنموها، إن الزمان يطوي بكم مسافة الأعمار لا شك وأنتم راحلون عن

هذه الدار فيا معشر الشيوخ ماذا تنتظرون بعد المشيب وهل بعده إلا الموت فإن الموت قريب، إنه ليس إلى البقاء من سبيل فماذا تزودتم للرحيل، ويا معشر الشباب أنفقتم غرر الأعمار عند المذياع والكرة ونحو ذلك مما يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، ويا معشر التجار لقد ضاعت أعماركم في ألوفكم، ربح فلان وكم بيع البيت الفلاني والأرض الفلانية وخذ هذه الجريدة وأعطني الأخرى ألا صرفتم بعض الوقت إلى المسابقة إلى غرف الجنة وأراضيها وأنفقتم بعض ما وهبكم الله من المكاسب إلى ما يرضي الله تعالى، من تفقد الفقراء الذين ليس لهم موارد لا قليلة ولا كثيرة ممن يستعينون بها على طاعة الله تعالى، ومن مساجد تحتاج إلى ترميم أو فرش وإلى إنشاء مساجد عند من ليس عندهم شيء منها أو إلى طباعة مصاحف طباعة جيدة فتوزعوها على التالين للقرآن آناء الليل والنهار أو طبع كتب دينية فيها تقوية للشريعة ونشر لمحاسن الإسلام ككتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وابن رجب، وابن مفلح، وابن كثير، والموفق، والشيخ محمد بن عبد الوهاب ونحوهم من العلماء العاملين بعلمهم المصلحين المخلصين الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم نسأل الله أن ييسر لنا في هذا الزمان أمثالهم لنصر دينه إنه القادر على ذلك.

المال يذهب حله وحرامه ... طرّاً وتبقى في غد آثامه
ليس التقي بمتق لإلاهه ... حتى يطيب شرابه وطعامه
ويطيب ما يحوي ويكسب كفه ... ويكون في حسن الحديث كلامه
نطق النبي لنا به عن ربه ... فعلى النبي صلاته وسلامه

أيها الإخوان لقد ذهب أكثر عامكم وفات، وتقضت أيامه ولياليه وأنتم منهمكون في اللذات، فما أسرع ما تصرمت منه الأوقات، وما أكثر ما خطبكم لسان حاله بزواجر العظات، وما أطول ما نادى بكم منادي الشتات.

أبني أبينا نحن أهل منازل ... أبداً غراب البين فيها ينعق

فطوبى لمن تدارك الهفوات، وبشرى لمن لازم تقوى الله، وعمل بالباقيات الصالحات، وهنيئاً لمن أذهب السيئات بالحسنات، ويا خيبة من شغلته الملاهي والمنكرات، عن طاعة رفيع الدرجات، وما أعظم خسارة من باع نفيس آخرته

بخسيس دنياه، وحسرة له يوم ﴿تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وتعسا وجدعاً له ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبإ: ٤٠].

عباد الله قد سبق ذكر الموت وأحوال الميت في سكراته وفتنة القبر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر ونعيمه وخطر من كان مسخوطاً عليه وأعظم من ذلك الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث والنشور والعرض على الجبار والسؤال عن الدقيق والجليل ونصب الميزان لمعرفة المقادير.

ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالإشقاء فهذه أحوال وأهوال لا بد من معرفتها ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة.

كما جاء في الكتاب والسنة، يجمع الله فيه الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر لا يغيب منهم أحد وتدنو منهم الشمس ويلجمهم العرق هذا اليوم هو اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عن ما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

في ذلك اليوم يبلغ الأمر من الحيرة والدهشة والاضطراب والذهول أن تذهل المرضعة عن ولدها الذي فمه في ثديها وهو أعز شيء لديها فكيف بالذهول عما سواه، وتسقط الحوامل من الفزع والرعب والروع ما في بطونها من الأجنة قبل التمام وترى الناس كأنهم سكارى من شدة الروع والفزع والخوف الذي صير من رآهم يشبههم بالسكارى لذهاب عقولهم من شدة الخوف كما يذهب عقل السكران من الشراب ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: الآيتان ٦ ـ ٧] تكون الأرض كالسفينة في البحر عند اضطراب الأمواج تكفأ بأهلها.

فيميد الناس على ظهرها ويتساقطون من شدة الأمر وبلوغه أقصى الغايات ولهذا أذهل العقول وأذهب التمييز والفكر والصحو، إنه يوم القيامة: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

إنها لهزة عنيفة للقلوب الغافلة حيث ترجف الأرض الثابتة إرتجافاً وتزلزل زلزالاً وتنفض ما في جوفها نفضاً وتخرج ما يثقلها من أجساد ونقود وغيرها مما حملته طويلاً وهو مشهد يهز كل شيء ثابت والأرض تهتز والسماء تمور.

إنه لمشهد مجرد تصوره، يخلع القلوب يرى الإنسان ما لا يعهد ويواجه ما لا يدرك ويشهد ما لا يملك الصبر أمامه ولا السكوت عنه ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ [الزلزلة: ٣] ما الذي يزلزلها هكذا ويرجها رجّاً.

وكأنه من شدة ما نزل يتمايل على ظهر الأرض ويتشبث ويحاول أن يمسك بشيء لعله يثبت لأن كل ما حوله يمور موراً شديداً قد امتلأ من الرعب والفزع والدهشة والعجب.

يرى الجبال وهي تسير ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، هذه الجبال وقد نسفت وبست وراءها ذرات في الهواء ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾، ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

هذه تصرح وتشير إلى حدث عظيم تتزلزل منه الجبال وتذهب هباءً يتلاشى ثباتها ورسوخها واستقرارها وتماسكها والإنسان ينظر ولا يكاد يلتقط أنفاسه ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: ١٨].

هنا يشاهد ويواجه الحشر والحساب والوزن والجزاء ويقف جبريل عليه السلام والملائكة صفاً بين يدي الرحمن ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝١٠٣ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝١٠٤ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٣ ـ ١٠٥] ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾.

وموقف هؤلاء المقربين صامتين خاشعين خاضعين لعظمه الله ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨] ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

موقفهم هكذا صامتين لا يتكلمون إلا بإذن من الرحمن يلقي في النفس

الرهبة والرعب والفزع من ذلك اليوم العظيم الذي ينكشف فيه كل مستور ويعلم فيه كل مجهول.

وتقف فيه النفس أمام ما أحضرت من الرصيد والزاد في موقف الفصل والحساب ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبإ: ٤٠] ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].

في ذلك اليوم يكون التغير العظيم الشامل للمعهودات السموات والأرض الشمس مكورة والنجوم منكدرة والسماء منشقة والوحوش الناقرة محشورة والأنعام والطيور والعشار معطلة ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ٧ ـ ١٠] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الإنفطار: ١ ـ ٣] ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ۝﴾ [الفرقان: ٢٥] ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۝﴾ [الرحمٰن: ٣٧].

هذه الآيات وأمثالها تشير إلى ذلك الحادث الهائل في الكون كله ولا يعلم حقيقته إلا الله إنه حادث عظيم ترجف الأرض منه وتخاف وتنهار فكيف بالخلق الضعاف المهازيل الذين تهزهم الصواعق هزاً وتخلع قلوبهم خلعاً ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ۝ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: الآيتان ١٧ ـ ١٨] ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝﴾ [المزمل: ١٤].

وفي وسط هذا الرعب والخوف والقلق والفزع والذهول والانقلاب يتساءل الإنسان المذعور المرعوب أين المفر ويبدو ذلك في سؤاله وكأنما ينظر في كل اتجاه فإذا هو مسدود دونه مأخوذ عليه ولا ملجأ ولا محيص ولا منفذ ولا وقاية من قهر الله وأخذه والرجعة إليه والمصير والمستقر عند ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمٰن: ٣٣].

ففي هذا الموقف الرهيب يتبين عجز الخلائق وضعفهم وكمال سلطان الله

وقدرته ونفوذ مشيئته ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأنعام: ١٣٤] إنكم في قبضة الله ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ [هود: ٥٦] إنه ليوم عصيب وموقف رهيب ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٢ ـ ٩٤].

فلا مجال لهرب أحدٍ ولا نسيان لأحدٍ فعين الله على كل فرد وكل فرد يقوم وحيداً لا يأنس بأحدٍ فإذا هو فريد وحيد أمام الديان ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ ـ ٣٧].

مشهد المرء يفر وينسلخ ويهرب من أقرب الناس إليه وألصقهم به أولئك الذين تربطهم به وشائج وروابط لا تنفصم ولكن الصاخة والطامة تمزق هذه الروابط وتقطع الوشائج والصلات ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

فالهول يفزع النفس ويقلقها ويفصلها من محيطها ويستبد بها استبداداً فلكل نفسه وشأنه ولديه الكفاية من الهم الخاص به الذي لا يدع له فضلة من وعي أو جهد ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾.

فها هي ذي الساعة التي يغفل عنها الغافلون ويلهوا عنها اللاهون ويستعجل بها المستعجلون ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُولَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

وهؤلاء المجرمون حائرين يائسين لا أمل في النجاة ولا رجاء ولا خلاص بل قد أيقنوا في العطب ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣] ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

هنا يعترفون بالخطيئة ويقرون بالحق الذي جحدوه بالدنيا ويعلنون اليقين بما شكوا فيه ويطلبون العودة إلى الدنيا لإصلاح ما فات في الدنيا ومنظرهم إذ ذاك مفزع مخيف وهم ناكسوا الرؤوس خجلاً وخزياً.

فالأمر أمر فظيع والحال مزعجة أقواماً حاسرين مكروبين وسؤال غير مجاب لفوات وقت الإمهال ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سَبَإ: ٥٢].

فيا عباد الله إنتبهوا من رقدتكم، واستدركوا بقية أعماركم، واحذروا الانهماك في دار الغرور، فالويل كل الويل لكم إن أدرككم الموت وأنتم على هذه الحالة، زينتم الفلل والقصور ونسيتم القبور، أذكروا القبر وظلمته، ووحشته، والموت وسكرته، والميزان وخفته أو رجحته، والكتاب وأخذته، والصراط ودقته، والموت سكرة في سكرة وحيرة في حيرة وجذبة يا لها من جذبة وكربة يا لها من كربة فالمسكين يكابد غصص المنون داهش العقل كالمحزون.

فالله الله عباد الله أفيقوا من سكراتكم، وانتبهوا من نوماتكم، واستيقظوا من غفلاتكم، قبل مفاجأة المنية، وحلول الرزية، ووقوع البلية، حيث لا مال ولا ولد نافع، ولا حميم شافع، ولا فرح واقع، ولا رجاء طامع، ولا حسنة تزاد، ولا سيئة تحذف، ولا حياة تعاد، ويزودك أحبابك بالحزن عليك، والبكاء فلا عثرة تقال، ولا رجعة تنال».

إيـاك والـدنـيـا الـدنـيـة إنـهـا ... هي السحر في تخييله وافترائه
متـاع غـرور لا يـدوم سـرورهـا ... وأضغاث حلم خادع بهبائه
فـمـن أكرمت يوماً أهانت له غداً ... ومن أضحكت قد آذنت ببكائه
ومن تسقه كأساً من الشهد غدوة ... تجرعه كأس الردى في مسائه
ومن تكس تاج الملك تنزعه عاجلاً ... بأيدي المنايا أو بأيدي عدائه
ألا إنـهـا لـلـمـرء مـن أكـبـر الـعـدا ... ويحسبها المغرور من أصدقائه
فـلـذاتـهـا مـسـمـومـة ووعـودهـا ... سراب فما الظامي روى من عنائه
وكـم فـي كـتـاب الله مـن ذكـر ذمـهـا ... وكم ذمها الأخيار من أصفيائه

فدونك آيات الكتاب تجد بها … من العلم ما يجلوا الصدا بجلائه
ومن يك جمع المال مبلغ علمه … فما قلبه إلا مريضاً بدائه
فدعها فإن الزهد فيها محتم … وإن لم يقم جل الورى بأدائه
ومن لم يذرها زاهداً في حياته … ستزهد فيه الناس بعد فنائه
فتتركه يوماً صريعاً بقبره … رهيباً أسيراً آيساً من ورائه
وينساه أهلوه المفدى لديهم … تكسوه ثوب الرخص بعد غلائه
وينتهب الوراث أمواله التي … على جمعها قاسى عظيم شقائه
وتسكنه بعد الشواهق حفرة … تضيق به بعد اتساع فضائه
يقيم بها طول الزمان وماله … أنيس سوى دود سعى في حشائه
فواهًا لها من غربة ثم كربة … ومن تربة تحوي الفتى لبلائه
ومن بعد ذا يوم الحساب وهوله … فيجزى به الإنسان أو في جزائه
ولا تنس ذكر الموت فالموت غائب … ولا بد يوماً للفتى من لقائه
قضى الله مولانا على الخلق بالفنا … ولا بد فيهم من نفوذ قضائه
فخذ أهبة للموت من عمل التقى … لتغنم وقت العمر قبل انقضائه
وإياك والآمال فالعمر ينقضي … وأسبابها ممدودة من ورائه
وحافظ على دين الهدى فلعله … يكون ختام العمر عند انتهائه
فدونك مني فاستمعها نصيحة … تضارع لون التبر حال صفائه
وصلي على طول الزمان مسلّماً … سلاماً يفوق المسك عرف شذائه
على خاتم الرسل الكرام محمد … وأصحابه والآل أهل كسائه
وأتباعهم في الدين ما اهتز بالربا … رياض سقاها ظلها بندائه

* * *

(الحساب والجزاء)

ولما يوقف الله تعالى عباده في يوم القيامة بين يديه، يعرفهم على أعمالهم التي عملوها وأقوالهم التي قالوها في حياتهم الدنيا، من إيمان وكفر، واستقامة وانحراف وطاعة وعصيان، فيحاسبهم على كل شيء عملوه وقالوه ثم يجازيهم على ما عملوه من خير أو شر.

ولا شك أنه حساب عسير، سيسأل عنه الإنسان عن كل صغير وكبير، ونقير وقطمير، كما قال سبحانه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فماذا أعددت لذلك السؤال يا أمة الله؟!

وقد حدثنا المولى تبارك وتعالى عن مشهد الحساب والجزاء يوم القيامة فقال سبحانه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩] فالقاضي والمحاسب في ذلك اليوم هو رب العزة جلّ وعلا عندما يجيء سبحانه لفصل القضاء: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١٠].

فيقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض المتبعون لخطوات الشيطان النابذون لأمر الله إلا يوم الجزاء بالأعمال الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع، ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحيق به الجزاء السيء على المفسدين، وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام، فتحيط بالخلائق، وينزل الباري تبارك

وتعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء والعدل. فتوضع الموازين، وتنشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهنالك يعض الظالم على يديه، إذا علم حقيقة ما هو عليه.

فهو موقف جليل تحضره ملائكة الرحمن بكتب الأعمال التي أحصت على الخلق أعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم ليكون حجة على العباد، وهو كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

أي تحضر كتب الأعمال التي كتبها الملائكة الأبرار، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليهم أعمالهم، محصى عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ أي: لا يترك خطيئة، صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار.

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾ لا يقدرون على إنكاره ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، فحينئذٍ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب، ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ [آل عمران: ١٨٢] بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

ويؤتى بالعباد ويقومون صفوفاً للعرض على رب العباد ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ ويؤتى بالمجرمين منهم وهم الذين كذبوا الرسل وتمردوا على ربهم واستعلوا في الأرض مقرنين في الأصفاد مسربلين بالقطران مسلسلين بسلاسل من نار وثيابهم من قطران وذلك لشدة اشتعال النار فيهم فتكون نتنة الرائحة والعياذ بالله: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم: ٤٩ ـ ٥١].

فيقول تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي الذين وصفهم الإجرام، وكثرة الذنوب، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في ذلك اليوم ﴿مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ أي يسلسل كل أهل عمل من المجرمين، بسلاسل من نار، فيقادون إلى العذاب، في أذل صورة وأشنعها، وأبشعها.

﴿سَرَابِيلُهُم﴾ أي: ثيابهم ﴿مِّن قَطِرَانٍ﴾ وذلك لشدة اشتعال النار فيهم وحرارتها، ونتن ريحها، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ﴾ التي هي أشرف ما في أبدانهم ﴿ٱلنَّارُ﴾ أي: تحيط بها، وتصلاها من كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا ظلماً من الله، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا قال تعالى: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر، بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ كقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتمل أن معناه: سريع المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة ما يرزقهم ويدبرهم بأنواع التدابير، في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن شأن، وليس ذلك بعسير عليه سبحانه.

ولشدة الهول تجثوا الأمم على الركب عندما يدعى الناس للحساب لعظم ما يشاهدون وما هم فيه مواقعون: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٨﴾ [الجاثية: ٢٨].

ففي هذه الآية وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره الناس، ويستعد له العباد، فقال: ﴿وَتَرَىٰ﴾ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ على ركبها خوفاً وذعراً، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، أي: إلى شريعة نبيهم، الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها، فيحصل لهم الخسران.

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به.

هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها، من خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾.

ويحاكم الله جلّ وعلا عباده محاكمة عادلة لم تشهد البرية لها مثيلاً من قبل فيوفي الله جلّ وعلا أجور عباده في يوم القيامة كاملة غير منقوصة ولا تظلم نفس شيئاً ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وكما في سورة أخرى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ﴾ وفي سورة الزلزلة قال سبحانه أيضاً: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فيوفى كل عبد عمله ولا ينقص من هذا العمل مقدار الذرة حتى الهباءة والخردلة التي ترى في أشعة الشمس إذا دخلت من النافذة فإنها لن تنقص من عمله ذاك.

فالله جلّ وعلا يجازي العباد بأعمالهم إن كان خيراً فخير وإن كان شرّاً فشر، ولا يحمل الله تبارك وتعالى أحداً وزر غيره كما قال جلّ وعلا: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

فيقول تعالى: ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ﴿إِلَّا عَلَيْهَا ۚ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصّلت: ٤٦].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ بل كل عليه وزر نفسه. وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإنه عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك، أوفى الجزاء.

وهذا هو العدل الذي لا عدل فوقه فالمهتدي يقطف ثمار هدايته والضال ضلاله على نفسه ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ

﴿وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

ومن عدل الله تبارك وتعالى في عباده أن يطلعهم على ما قدموه من صالح أعمالهم وطالحها حتى يحكموا على أنفسهم فلا يكون لهم بعد ذلك عذر كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] وقال أيضاً: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فيقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾ والخير: إسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء إسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾.

فوالله لترك كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وآجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رأفة بنا ورحمة لئلا يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] فنسأله أن يمن علينا بالحذر منه على الدوام، حتى لا نفعل ما يسخطه ويغضبه.

ويعطى العبد كتابه يوم القيامة ويقال له: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ

حَسِيبًا﴾. كما قال سبحانه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: الآيتان ١٣، ١٤].

وهو كتاب شامل لجميع الأعمال صغيرها وكبيرها جليلها وحقيرها كما قال سبحانه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

ومن رحمته جلّ وعلا أنه يضاعف أجر الأعمال الصالحة كما قال سبحانه: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ﴾ فأقل ما تضاعف به الحسنة عشرة أضعاف ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهذا مقتضى عدله سبحانه وتعالى فله الحمد والمنة والفضل.

ومن الأعمال التي أخبر الرسول ﷺ أنها تضاعف عشرة أضعاف قراءة القرآن الكريم فقد قال ﷺ: **«من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف بل ألف حرف ولام حرف وميم حرف»**.

وقد يضاعف الله الحسنة أكثر من ذلك فقد تصل الحسنة إلى سبعمئة ضعف وأكثر من ذلك ومن ذلك أجر المنفق في سبيل الله كما قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

ومن الأعمال التي تضاعف أضعافاً لا تدخل تحت الحصر ولا يحصيها إلا الله سبحانه الصوم ففي الحديث المتفق عليه قال ﷺ: **«كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف قال الله تعالى: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»**.

والسر في كون الصائم يعطى من غير تقدير أن الصوم من الصبر والصابرون يوفون أجورهم بغير حساب كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وكذلك الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها وكربها التي يبتلي الله بها عباده: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٧].

وعندما يرى أهل العافية عظم أجر الصابرين يتمنون أن تكون جلودهم قرضت بالمقاريض لينالوا أجر الصابرين فقد قال ﷺ كما في سنن الترمذي بإسناد صحيح: «**ليودن أهل العافية يوم القيامة أن جلودهم قرضت بالمقاريض مما يرون من ثواب أهل البلاء**».

ومن فضل الله تبارك وتعالى أن المؤمن الذي يهم بفعل الحسنة ولكنه لا يفعلها تكتب له حسنة تامة، والذي يهم بفعل السيئة ثم تدركه مخافة الله فيتركها تكتب له حسنة تامة ففي صحيح البخاري قال ﷺ: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة**».

وتبلغ رحمه الله بعباده وفضله عليهم أن يبدل سيئاتهم حسنات فقد قال ﷺ: «**إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولا الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال أعرضوا عليه صغار ذنوبه فيقال: عملت يوم كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا فيقول: نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول: رب عملت أشياء لا أراها ها هنا**» يعني يتمنى لو عرضت عليه كل ذنوبه حتى يبدلها الله حسنات، يقول الراوي: «فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه» رواه مسلم.

ويقيم الله سبحانه الشهود على الكفرة والمنافقين في ذلك اليوم ولا شك أن أعظم الشهداء في يوم القيامة على العباد هو ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى الذي يعلم السر وأخفى حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن

قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس: ٦١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٣٣].

ولكن الله سبحانه يحب الإعذار إلى خلقه فيبعث من مخلوقاته شهداء على المكذبين الجاحدين حتى لا يكون لهم عذر كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر: ٥١] وقال سبحانه: ﴿وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ﴾ [الزمر: ٦٩].

وأول من يشهد على الأمم رسلها فيشهد كل رسول على أمته بالبلاغ كما قال الحق سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩].

فلما ذكر تعالى فيما تقدم أنه يبعث ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ذكر ذلك أيضاً هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر. وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم إطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل، وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون. وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾.

وكما يشهدون على أممهم بالبلاغ يشهدون عليهم بالتكذيب كما قال سبحانه: ﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وقال سبحانه: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٦ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧﴾ [الأعراف: ٦، ٧].

قال الإمام القرطبي مصوراً مشهد الحساب: «فإذا بعث العباد من قبورهم إلى الموقف، وقاموا فيه ما شاء الله، حفاة عراة، وجاء وقت الحساب الذي يريد الله أن يحاسبهم فيه، أمر بالكتب التي كتبها الكرام الكاتبون بذكر أعمال الناس فأتوها، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه، فأولئك هم السعداء ومنهم من يؤتى كتابه بشماله أو وراء ظهره، وهم الأشقياء فعند ذلك يقرأ كل كتاب به، وأنشدوا:

مثل وقوفك يوم العرض عرياناً ... مستوحشاً قلق الأحشاء حيرانا
والنار تلهب من غيظ ومن حنق ... على العصاة ورب العرش غضبانا
إقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... فهل ترى فيه حرفاً غير ما كانا
لما قرأت ولم تنكر قراءته ... إقرار من عرف الأشياء عرفانا
نادى الجليل خذوه يا ملائكتي ... أمضوا بعبد عصا للنار عطشانا
المشركون غداً في النار يلتهبوا ... والمؤمنون بدار الخلد سكانا

فتوهم نفسك يا أخي إذا تطايرت الكتب، ونصبت الموازين، وقد نوديت باسمك على رؤوس الخلائق: أين فلان بن فلان؟ هلم إلى العرض على الله تعالى. وقد وكلت الملائكة بأخذك، فقربتك إلى الله، لا يمنعها اشتباه الأسماء باسمك واسم أبيك، إذ عرفت أنك المراد بالدعاء إذا قرع النداء قلبك، فعلمت أنك المطلوب، فارتعدت فرائصك، واضطربت جوارحك، وتغير لونك وطار قلبك، تخطى بك الصفوف إلى ربك للعرض عليه، والوقوف بين يديه، وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم، وأنت في أيديهم، وقد طار قلبك، واشتد رعبك، لعلمك أين يراد بك.

فتوهم نفسك، وأنت بين يدي ربك، في يدك صحيفة مخبرة بعملك، لا تغادر بلية كتمتها، ولا مخبأة أسررتها، وأنت تقرأ ما فيها بلسان كليل، وقلب منكسر، والأهوال محدقة بك من بين يديك ومن خلفك، فكم من بلية قد كنت نسيتها ذكركها! وكم من سيئة قد كنت أخفيتها قد أظهرها وأبداها! وكم من عمل ظننت أنه سلم لك وخلص فرده عليك في ذلك الموقف وأحبطه بعد أن كان أملك فيه عظيماً! فيا حسرة قلبك، ويا أسفك على ما فرطت فيه من طاعة ربك.

فأما من أوتي كتابه بيمينه، فعلم أنه من أهل الجنة، فيقول: هاؤم إقرأوا كتابية، وذلك حين يأذن الله، فيقرأ كتابه، فإذا كان الرجل رأسًا في الخير يدعو إليه، ويأمر به، ويكثر تبعه عليه، دعي باسمه واسم أبيه، فيتقدم حتى إذا دنى أخرج له كتاب أبيض، في باطنه السيئات، وفي ظاهره الحسنات، فيبدأ بالسيئات فيقرؤها فيشفق ويصفر وجهه ويتغير لونه، فإذا بلغ آخر الكتاب، وجد فيه: هذه سيئاتك، وقد غفرت لك، فيفرح عند ذلك فرحاً شديداً، ثم يقلب كتابه، فيقرأ حسناته، فلا يزداد إلا فرحاً، حتى إذا بلغ آخر الكتاب وجد فيه: هذه حسناتك، قد ضوعفت لك، فيبيض وجهه، ويؤتى بتاج، فيوضع على رأسه، يكسى حلتين، ويحلّى كل مفصل فيه، ويطول ستين ذراعاً، وهي قامة آدم. ويقال له: إنطلق إلى أصحابك فبشرهم، وأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فإذا أدبر قال: ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَـٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَـٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الحَاقَّة: ١٩ ـ ٢٠]. قال الله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحَاقَّة: ٢١]، أي مرضية، قد رضيها، ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الحَاقَّة: ٢٢] في السماء، ﴿قُطُوفُهَا﴾ [الحَاقَّة: ٢٣] ثمارها وعناقيدها ﴿دَانِيَةٌ﴾ [الحَاقَّة: ٢٣] أدنيت منهم. فيقول لأصحابه: هل تعرفوني؟ فيقولون: قد غمرتك كرامة الله، من أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان، ليبشر كل رجل منكم بمثل هذا ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحَاقَّة: ٢٤] أي: قدمتم في أيام الدنيا.

وإذا كان الرجل رأساً في الشر يدعو إليه، ويأمر به، فيكثر تبعه عليه، ونودي باسمه واسم أبيه، فيتقدم إلى حسابه، فيخرج له كتاب أسود، بخط أسود، في باطنه الحسنات، وفي ظاهره السيئات، فبدأ بالحسنات فيقرؤها، ويظن أنه سينجو، فإذا بلغ آخر الكتاب، وجد فيه: هذه حسناتك، وقد ردت عليك، فيسود وجهه، ويعلوه الحزن، ويقنط من الخير، ثم يقلب كتابه، فيقرأ سيئاته، فلا يزداد إلا حزناً، ولا يزداد وجهه إلا سواداً. فإذا بلغ آخر الكتاب، وجد فيه: هذه سيئاتك، وقد ضوعفت عليك، أي: يضاعف عليه العذاب، ليس المعنى أنه يزاد عليه ما لم يعمل. قال فيعظم إلى النار، وتزرق عيناه، ويسود وجهه، ويكسى سرابيل القطران.

ويقال له: إنطلق إلى أصحابك فأخبرهم أن لكل إنسان منهم مثل هذا، فينطلق وهو يقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾ [الحَاقَّة: ٢٥ ـ ٢٧] يعني الموت ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾ [الحَاقَّة: ٢٩] قال ابن عباس رضي الله عنهما: هلكت عني حجتي. قال الله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١﴾ [الحَاقَّة: ٣٠،٣١] أي: اجعلوه يصلى الجحيم ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝٣٢﴾ [الحَاقَّة: ٣٢] الله أعلم بأي ذراع. قال الحسن وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سبعون ذراعاً بذراع الملك. ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحَاقَّة: ٣٢] قيل: يدخل عنقه فيها، ثم يجربها، لو أن حلقة منها وضعت على جبل لذاب.

فينادي أصحابه فيقول: هل تعرفوني؟ فيقولون: لا، ولكن قد نرى ما بك من الحزن. فمن أنت؟ فيقول: أنا فلان بن فلان، لكل إنسان منكم مثل هذا.

وأما من أوتي كتابه وراء ظهره، تخلع كتفه اليسرى، فيجعل يده خلفه، فيأخذ بها كتابه. وقال مجاهد: يحول وجهه في موضع قفاه، فيقرأ كتابه كذلك.

فتوهم نفسك إن كنت من السعداء، وقد خرجت على الخلائق مسرور الوجه، قد حل بك الكمال والحسن والجمال، كتابك في يمينك، أخذ بضبعيك ملك ينادي على رؤوس الخلائق: هذا فلان بن فلان، سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وأما إن كنت من أهل الشقاوة، فيسود وجهك، وتتخطى الخلائق كتابك في شمالك، أو من وراء ظهرك، تنادي بالويل والثبور، وملك أخذ بضبعيك ينادي على رؤوس الخلائق: ألا إن فلان بن فلان شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبداً».

وفي يوم القيامة أيضاً يقتص الله تبارك وتعالى للمظلوم من ظالمه حتى لا يبقى لأحد عند أحد مظلمة حتى الحيوان يقتص لبعضه من بعض فإذا انطحت شاتان أحدهما جلحاء أي: لا يقرون لها والأخرى ذات قرون فإنه يقتص لتلك من هذه ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»**.

وأيضاً: فقد روى البخاري في الأدب المفرد بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال: **«من ضرب بسوط ظلماً إقتص منه يوم القيامة»**.

وثروة الإنسان ورأس ماله في يوم القيامة هي حسناته فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم فإن لم يكن له حسنات أو فنيت حسناته فإنه يؤخذ من سيئاتهم فيطرح فوق ظهره ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»**.

وهذا الذي يأخذ الناس حسناته ثم يقذفون فوق ظهره بسيئاتهم هو المفلس كما سماه الرسول ﷺ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أتدرون من المفلس؟»** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال ﷺ: **«إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه، أخذت من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»**.

والمدين الذي مات وللناس في ذمته أموال يأخذ أصحاب الأموال حسناته بمقدار ما لهم عنده فقد روى ابن ماجه رحمه الله بإسناد صحيح أن رسول الله ﷺ قال: **«من مات وعليه دينار أو درهم قضى من حسناته ليس ثَمّ دينار ولا درهم»**.

ومن أعظم الأمور عند الله أن يسفك العباد بعضهم دم بعض في غير الطريق الذي شرعه الله تبارك تعالى ففي الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي قال ﷺ: **«يجيء الرجل آخذاً بيد الرجل فيقول: يا رب هذا قتلني فيقول: لم قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزة لك فيقول: فإنها لي، ويجيء الرجل آخذاً بيد الرجل فيقول: أي رب أن هذا قتلني، فيقول الله: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان فيقول: أنها ليست لفلان فيبوء بإثمه»**.

وفي السنن بإسناد صحيح قال ﷺ: **«يجيء المقتول بالقاتل يوم القيامة ناصيته ورأسه بيده، وأوداجه تشخب دماً، فيقول: يا رب سل هذا فيم قتلني حتى يدنيه من العرش»**.

ولعظم هذا الأمر فإنه يكون أول شيء يقضى فيه بين العباد.

فقد روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء»**.

قال الإمام ابن حجر رحمه الله في شرحه للحديث: وفي الحديث عظم أمر الدم فإن البداءة إنما يكون بالأهم والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة ولا يتعارض هذا الحديث حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: **«إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته»** فحديث الدماء محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق وهذا الحديث فيما يتعلق بعبادة الخالق.

وهكذا يقضي الله جلّ وعلا بين خلقه الجن والإنس حتى البهائم يقضى فيما بينهم، حتى إذا لم يبق تبعة عند واحدة لأخرى قال الله للبهائم: كونوا تراباً، فعند ذلك يقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً.

فقد روى ابن جرير رحمه الله في تفسيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: إذا كان يوم القيامة مدّ الأديم، وحشر الدواب والبهائم والوحوش، ثم يحصل القصاص بين الدواب، يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها، فإذا فرغ من القصاص بين الدواب، قال لها: كوني ترابًا، قال: فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «فتوهم نفسك يا أخي إذا صرت على الصراط ونظرت إلى جهنم سوداء مظلمة قد لظى سعيرها، وعلا لهيبها، وأنت تمشي أحياناً وتزحف أخرى، فيا له من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه، ثم قال:

أبت نفسي تتوب فما احتيالي ... إذا برز العباد لذي الجلال
وقاموا من قبورهم سكارى ... بأوزار كأمثال الجبال
وقد نصب الصراط لكي يجوزوا ... فمنهم من يكب على الشمال
ومنهم من يسير لدار عدن ... تلقاه العرائس بالغوالي
يقول له المهيمن يا وليي ... غفرت لك الذنوب فلا تبالي»

وهكذا فإن جميع الناس يوم القيامة سينقسمون إلى قسمين: قسم ناجٍ وقسم هالك، فالقسم الناجي هو القسم الذي فاز بدار النعيم الأبدي والفوز السرمدي ألا وهي الجنة التي أعدها سبحانه لعباده الصالحين وجعل فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهي كما قيل: أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العلماء الأكياس، وأحرى ما زاحم عليه عقلاء الناس.

والحسرة كل الحسرة أن تضيع لحظة من الوقت الشريف والعمر النفيس في غير الاشتغال بالعمل الذي يوصل إلى هذه الدار.

فالمتقون آمنون في الآخرة وأصل التقوى لله تعالى هو الخوف منه جلّ وعلا فأثابهم الأمن عوضاً عن خوفهم في الدنيا من عقابه جلّ وعلا والجزاء من جنس العمل، هذا بالإضافة إلى ما لهم من البشرى في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

وعند الموت تتنزل عليهم الملائكة مبشرين لهم بالجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٢].

وعند الفزع الأكبر ينجون من الأهوال والمخاوف والأحزان ويبشرون بالجنان كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٣].

وكذلك يهنؤون عندما يؤتون كتبهم بأيمانهم وتكاد أفئدتهم تطير فرحاً كما

قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٤].

ثم إذا كانوا على الصراط سعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم وبشروا بالنعيم المقيم والفوز العظيم، ثم تعظم فرحتهم عند تقريب الجنة لهم مزخرفة مزينة كما قال سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٢].

ويزداد فرحهم وسرورهم وغبطتهم إذا دخلوا الجنة ورأوها بأعينهم، ودخلوا قصورها العالية فشاهدوا أنوارها وعانقوا أبكارها وباشروا ما فيها من أصناف الملذات وفنون الشهوات، كما قال سبحانه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٨ ـ ٧٣].

ويبلغ فرحهم منتهاه إذا سلم الله تعالى عليهم فسمعوا صوته، وتنعموا بخطابه، وكشف الحجاب عن وجهه الكريم فرأوه عياناً كما قال سبحانه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ وقال أيضاً: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ فوجوههم وجوه حسنة بهية مشرقة مسرورة إلى ربها ناظرة أي تراه عياناً.

وتمام نعيمهم أن ما هم فيه لا ينقطع أبداً فحق للعاقل أن يزهد في الدنيا الفانية من أجل هذا النعيم، وأن يعمل العمل الصالح الكثير، لأجل الحصول على الجنة، فلمثل هذا فليعمل العاملون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. فنسأل الله عزّ وجلّ أن لا يحرمنا ما عنده من الخير الكثير بشر ما عندنا من الغفلة والتقصير.

والقسم الثاني: هو القسم الذي هلك في دار الشقاء دار الهموم والأحزان والغموم التي جعلها الله تعالى لمن خالف أمره، وتمادى في معاصيه، فأعد فيها من النكال والهوان والأهوال العظام ما لا يخطر بالبال ولا يدخل تحت الحسبان،

لا يعلم خطره إلا هو سبحانه، فما إن يراها أهلها حتى يبهتوا لهولها، ويفزعوا لفظاعتها، ويندموا أعظم الندم، ويتمنوا الرجعة إلى دار العمل، ويقولوا: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فمن أي الفريقين تريدين أن تكوني يا أمة الله يوم يكون فريق في الجنة وفريق في السعير؟

ورحم الله الإمام ابن القيم حيث قال:

فيا ساهياً في غمرة الجهل والهوى ... صريع الأماني عن قريب ستندم
أفق قد دنا الوقت الذي ليس بعده ... سوى جنة أو حر نار تضرم
وجد من تقى الرحمن أعظم جنة ... ليوم به تبدو عياناً جهنم
وينصب ذاك الجسر من فوق متنها ... فهاوٍ ومخدوش وناجٍ مسلم
ويأخذ للمظلوم ربك حقه ... فيا بؤس عبد للخلائق يظلم
فلا مجرم يخشى ظلامة ذرة ... ولا محسن من أجره ذاك يهضم
وتشهد أعضاء المسيء بما جنى ... كذاك على فيه المهيمن يختم
فيا ليت شعرى كيف حالك عندما ... تطاير كتب العالمين وتقسم
أتأخذ باليمنى كتابك أم تكن ... بالأخرى وراء الظهر منك تسلم
وتقرأ فيه كل شيء عملته ... فيشرق منك الوجه أو هو يظلم
تقول كتابي فاقرؤوه فإنه ... يبشر بالفوز العظيم ويعلم
فإن تكن الأخرى فإنك قائل ... ألا ليتني لم أوته فهو مغرم
فبادر إذن ما دام في العمر فسحة ... وعدلك مقبول وصرفك قيم
وجد وسارع واغتنم زمن الصبا ... ففي زمن الإمكان تسعى وتغنم
وسر مسرعاً فالسيل خلفك مسرع ... وهيهات ما منه مفر ومهزم
فهن المنايا أي واد نزلته ... عليها القدوم أو عليك ستقدم

* * *

الجنة دار النعيم

الحمد لله الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلّى الله وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فإن الله تعالى قد أعد للمؤمنين داراً يتنعمون فيها بكل ما تشتهيه نفوسهم وتلذ أعينهم، جزاء على ما عملوه من الأعمال الصالحة في هذه الدنيا.

وهذه الدار التي وعدها الله عباده المؤمنين هي الجنة، فهي سلعة الله الغالية التي وعدها سبحانه لهؤلاء العباد المتقين، الذين اتقوا الله تعالى في هذه الدنيا.

إنها بشرى من الرحمن لعباده، بشرى من الرحمن ولا بد أن تتحقق ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١].

بشرى من الرحمن لكل من آمن وعمل صالحاً.

بشرى من الرحمن للمؤمنين والمؤمنات: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

هنيئاً والله لهؤلاء العباد، عبدوا الله تعالى في هذه الحياة، ووحدوا الله جل وعلا في هذه الدنيا، وأطاعوا الله تعالى في كل صغيرة وكبيرة أُمروا بها، فنالوا أعظم نعيم، وأفضل عطاء، ألا وهو الجنة، نعيم والله لا يشبهه نعيم، نعيم والله ليس له نظير، نعيم والله ليس له مثيل، نعيم يفوق الوصف، نعيم لا يخطر على بال، نعيم كامل لا يشوبه نقص ولا يعكر صفوه كدر.

(وصف روعة ذلك النعيم)

وما حدثنا الله جل وعلا به عنها، وما أخبرنا به رسولنا محمد ﷺ عن تلك الجنة، يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه، استمع إلى قول الله جل وعلا في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**»، ثم قال رسول الله ﷺ اقرءوا أن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فهذا عطاء الرب جل جلاله — وبذاك تعرف حكمة الديّان

وفي صحيح البخاري قال ﷺ: «**موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها**».

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما**» وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرَّحمٰن: ٤٦] فوصف تلك الجنتان، ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢﴾ [الرَّحمٰن: ٦٢].

فالذي خاف ربه، فترك ما نهى عنه جل وعلا، وفعل ما أمر به سبحانه فله جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما من ذهب، وهاتان الجنتان للسابقين، ومن دون تلك الجنتين جنتان من فضة، بنيانهما وحليتهما وما فيهما من فضة، وهما لأصحاب اليمين.

وأول زمرة تدخل من هذه الأمة الجنة، هم القمم الشامخة في الإيمان والتقى

والعمل الصالح والاستقامة على الدين الحق، يدخلون الجنة صفاً واحداً، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم، صورتهم على صورة القمر ليلة البدر.

فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوه** (وهو العود الذي بخر به أي البخور). **ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشياً**».

وفي هذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

هذا وأوّل زمرة فوجوههم ... كالبدر ليل الست بعد ثمانِ
والزمرة الأخرى كأضواء كوكب ... في الأفق تنظره به العينان
أمشاطهم ذهب ورشحهم فمسك ... خالص يا ذلة الحرمان

وقد سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن بناء الجنة فقال: «**لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم**».

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:

وبناؤها اللبنات من ذهب ... وأخرى فضة نوعان مختلفان
وقصورها من لؤلؤ وزبرجد ... أو فضة أو خالص العقيان
حصباؤها در وياقوت كذاك ... لآلىء نُثِرت كنثر جمان
وترابها من زعفران أو من ... المسك الذي ما استل من غزلان

أما إن سألت أختي المسلمة عن أبواب الجنة فللجنة أبواب يدخل منها المؤمنون كما يدخل منها الملائكة كما قال جل وعلا: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣ -٢٤] وأخبرنا الله جل وعلا أن هذه الأبواب تفتح عندما يصل المؤمنون إليها وتستقبلهم الملائكة مهنئة لهم بسلامة الوصول، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ

﴿ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الزمر: ٧٣].

وعدد أبواب الجنة ثمانية، وأحد هذه الأبواب يسمى الريان وهو خاص بالصائمين، ففي الصحيحين عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل غيرهم»**.

وهناك باب للمكثرين من الصلاة وباب للمتصدقين وباب للمجاهدين بالإضافة إلى باب الصائمين، ففي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أنفق زوجين في سبيل الله من ماله دعي من أبواب الجنة»** ومعنى قوله ﷺ كما قال ابن عبد البر رحمه الله: أي من أنفق شيئين من نوع واحد نحو درهمين أو فرسين أو قميصين وكذلك من صلى ركعتين أو صام يومين ونحو ذلك وإنما أراد والله أعلم أقل التكرار وأقل وجوه المداومة على العمل من أعمال البر لأن الاثنين أقل الجمع، ثم يتابع المصطفى ﷺ الحديث فيقول: **«وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام»**. فقال أبو بكر رضي الله عنه هل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها يا رسول الله؟ قال: **«نعم وأرجوا أن تكون منهم»**.

فهذه أربعة أبواب ذكرت في هذا الحديث باب الصلاة وباب الجهاد وباب الريان وباب الصدقة، والباب الخامس هو الباب الأيمن وهو باب المتوكلين فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتي رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرُفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة فقال: **«أنا سيِّدُ الناس يومَ القيامة وهل تدرون لم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيُسْمِعُهُمُ الداعي ويَنفُذُهُمُ البصر»** ثم ذكر حديث الشفاعة بطوله وقال في آخره: **«فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاءُ الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»** أي أنهم لا يمنعون من سائر الأبواب.

والباب السادس: هو باب الوالد فقد قال ﷺ: **«الوالد»** ـ وفي رواية:

«الوالدة أوسط أبواب الجنة» أي خير أبواب الجنة وأعلاها.

والباب السابع هو باب لا حول ولا قوة إلا بالله، فعن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما أن أباه دفعه إلى النبي ﷺ يخدمه قال: فمر بي النبي ﷺ وقد صليت ركعتين فضربني برجله وقال: **«ألا أدلك على باب من أبواب الجنة؟»** قلت: بلى، قال: **«لا حول ولا قوة إلا بالله»**.

ومعنى لا حول ولا قوة إلا بالله أي لا تحول من حال إلى حال في أي شيء مهما صغر أو كبر، ومهما ظهر أو بطن في أي مكان من العالم، ولا قوة على هذا التحول والحركة إلا بالله تعالى بقوته وقدرته وعلمه ومشيئته.

فلا تحول للقلب من هدى إلى ضلال، ولا من ضلال إلى هدى، ولا قوة على هذا التحول إلا بالله تعالى، ولا تحول من جلوس إلى قيام ولا من قيام إلى حالة أخرى، ولا قوة على هذا التحول إلا بالله تعالى، ولا تحول من ليل إلى نهار ولا من نهار إلى ليل، ولا من أي حال إلى آخر مهما كان نوع التحول ولا قوة على هذا التحول إلا بالله تعالى الذي له ملك السموات والأرض، لا يخرج عن ملكه مثقال ذرة ولا أكبر من ذلك ولا أصغر، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

أما الباب الثامن من أبواب الجنة فقد يكون باب الحج كما قال ابن حجر رحمه الله أو باب التوبة، والله أعلم في ذلك، فلم يثبت عنه ﷺ حديثاً صحيحاً في الباب الثامن لكن ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «للجنة ثمانية أبواب سبعةٌ مغلقةٌ، وباب مفتوح للتوبة حتى تطلع الشمس من نَحْوِهِ» فإن كان هذا الحديث ثابتاً فثامن أبواب الجنة هو باب التوبة لكن الحديث قد ضعفه شيخنا الإمام الألباني رحمه الله في ضعيف الجامع.

وفي هذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

أَبْــوابُــهَــا حَــقــاً ثَــمَــانِــيَــةٌ أَتَــتْ ... في النَّصِّ وَ هْيَ لِصَاحِبِ الإِحْسَانِ

بــابُ الــجِــهَــادِ وَذَاكَ أَعْــلاَهَــا ... وبَابُ الصَّوْمِ يُدْعَى البابُ بالرَّيَّانِ

ولِــكُــلِّ سَــعْــيٍ صَــالِــحٍ بــابٌ ... ورَبُّ الــسَّــعْــيِ مِــنْــهُ داخِــلٌ بِــأَمَــانِ

ولَـسَـوْفَ يُـدْعـى الـمَـرءُ مِـنْ أبْوَابِهَا جَمْعاً إذَا وَفىً حُلَى الإيمَانِ
مِـنْـهُـمْ أبـو بَـكـرٍ هُـوَ الـصِّـدِّيـقُ ذاكَ خَـلـيـفـةُ الـمـبَـعْـوثِ بـالـقُـرآنِ

أما أنهار الجنة وعيونها فيخبرنا عن ذلك ربنا سبحانه حيث يقول: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥] .

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٥، ٦] .

ويقول سبحانه: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٧، ١٨] .

ويقول جل وعلا: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٨] .

أما قصور الجنة وخيامها فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢] ويقول جل وعلا: ﴿لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزمر: ٢٠] .

فأخبر تعالى عن عباده السعداء أن لهم غرفاً في الجنة وهي القصور أي الشاهقة وأخبر أنها غرف فوق غرف طباق فوق طباق مبنيات محكمات مزخرفات عاليات، فهي مبنية بناء حقيقياً لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل، وأن ليس هناك بناء بل تتصور النفوس غرفاً مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض حتى كأنها تنظر إليها عياناً.

وقد وصف لنا رسول الله ﷺ هذه القصور فقال: «**إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وآلان الكلام، وتابع الصيام، وصلى بالليل والناس نيام**».

وقد أخبرنا الحق جل وعلا أن في الجنة خياماً فقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ

﴿فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمٰن: ٧٢] وهذه الخيام خيام عجيبة فهي من لؤلؤ بل هي من لؤلؤة واحدة مجوفه طولها في السماء ستون ميلاً وفي بعض الروايات عرضها ستون ميلاً.

ففي صحيح البخاري عن عبد الله بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ: «**الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلاً في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون**».

وروى مسلم عن عبد الله بن قيس عن النبي ﷺ: «**إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً**».

وقد أخبرنا ﷺ بالطريق الذي يحصل به المؤمن على مزيد من البيوت في الجنة فقال: «**من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة**» متفق عليه، وفي صحيح مسلم ومسند أحمد عن أم حبيبة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**من صلى في اليوم والليلة اثنتي عشرة ركعة تطوعاً غير الفريضة إلا بنى الله له بيتاً في الجنة**».

ورحم الله الإمام ابن القيم حيث قال:

غُرُفاتُها في الجَوِّ يُنْظَرُ بَطْنُها ... مِنْ ظَهرِهَا والظَّهْرُ مِنْ بَطْنانِ
سُكّانُهَا أهْلُ القيام مع الصِّيام ... وطَيِّب الكَلِمَاتِ والإحْسَانِ
ثِنْتَانِ خالِصٌ حَقُّه سُبْحانَهُ ... وعبيدُهُ أيضاً لَهُمْ ثِنْتَانِ
لِلْعَبْدِ فِيهَا خَيْمَةٌ مِنْ لُؤلُؤٍ ... قَدْ جُوفَتْ هِيَ صَنْعَةُ الرَّحْمٰنِ
سِتُونَ ميلاً طُولُهَا في الجَوِّ في ... كُلِّ الزَوَايَا أجمل النِّسْوانِ
يَغْشَى الجَمِيعَ فلا يُشَاهِدُ ... بَعْضُهُمْ بَعْضاً وهذَا لاتِّساعِ مكانِ
فيها مَقَاصِير بِهَا الأَبْوابُ ... مِنْ ذَهَبٍ ودُرٍّ زِيْنُ بالمُرْجَانِ
وخِيامُها مَنْصُوبَة بِرِيَاضِها ... وشواطِىءِ الأنْهارِ ذِي الجَرَيَانِ
ما في الخِيامِ سِوَى التي لَو قابَلَتْ ... لِلنَّيِّرَيْنِ لَقُلْتِ مُنْكَسِفَانِ
لِلّه هاتيك الخيام فكم بها ... للقلب من علق ومن أشجان

فِـيـهِـنَّ حـورٌ قـاصـراتُ الـطَّـرْفِ خَـيْـراتٌ حِـسـانٌ هُـنَّ خَـيْـرُ حِـسَـانِ
خَـيْـرَاتُ أَخْـلاقٍ حَـسَـانٌ أَوْجَـهـاً فـالـحُـسْـنُ والإِحْـسَـانُ مُـتَّـفِـقَـانِ

أما إن سألت أختي المسلمة عن أنهار الجنة، فقد أخبرنا الله تبارك وتعالى بأن الجنة تجري من تحتها الأنهار في كثير من الآيات، فقال سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] وأحياناً يقول سبحانه: تجري من تحتهم الأنهار: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]

وقد حدثنا المصطفى ﷺ عن أنهار الجنة حديثاً واضحاً ففي إسرائه ﷺ رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها ـ أي من أصل سدرة المنتهى ـ نهران ظاهران ونهران باطنان «**فقلت: يا جبريل ما هذه الأنهار؟ قال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات**».

ومن أنهار الجنة نهر الكوثر الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] وقد رآه الرسول ﷺ وحدثنا عنه، فقال كما في صحيح البخاري: «**بينما أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك**».

وروى الإمام مسلم رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن الرسول ﷺ حين أنزلت عليه ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**هو نهر وعدنيه الله عز وجل عليه خير كثير**».

وفي مسند أحمد قال ﷺ: «**أعطيت الكوثر فإذا نهر يجري على ظهر الأرض حافتاه قباب اللؤلؤ ليس مسقوفاً، فضربت بيدي إلى تربته فإذا تربته مسك أذفر وحصباؤه اللؤلؤ**».

وفي رواية أيضاً عند الإمام أحمد رحمه الله قال ﷺ: «**هو نهر أعطانيه الله في الجنة، ترابه مسك، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، ترده طيور أعناقها مثل أعناق الجزور**».

وأنهار الجنة ليست ماء فحسب بل منها الماء ومنها اللبن ومنها الخمر ومنها العسل المصفى كما قال الله جل وعلا: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

وفي سنن الترمذي بإسناد صحيح قال ﷺ: «**إن في الجنة بحر العسل وبحر الخمر وبحر اللبن وبحر الماء ثم تنشق الأنهار بعد**»، فأنهار الجنة تنشق من تلك البحار التي ذكرها الرسول ﷺ، وأيضاً فقد أخبرنا ﷺ عن نهر في الجنة يسمى بارق يكون على باب الجنة، ويكون الشهداء في البرزخ عند هذا النهر ففي مسند الإمام أحمد رحمه الله بإسناد حسن قال ﷺ: «**الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً**».

وفي هذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

أنهارُهَا في غيرِ أخدُودٍ جَرَتْ ... سُبْحانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الفَيَضَانِ
مِنْ تَحْتِهِمْ تَجرِي كَمَا شَاؤُوا مفَجَّرَةً ... ومَا لِلنَّهرِ مِنْ نُقصَانِ
عسلٌ مُصَفىً ثُمَّ مَاءٌ ثُمَّ خَمرٌ ... ثُمَّ أنْهارٌ مِنَ الألبَانِ
والله ما تِلْكَ المَوَادُ كَهَذِهِ ... لكِنْ هُمَا في اللَّفظِ مُجتَمِعانِ
هذا وفيهما يَسيرُ تَشابُهٍ ... وَهُوَ اشتِراكٌ قامَ بالأذهانِ

وفي الجنة أختي المسلمة عيون كثيرة مختلفة الطعوم والمشارب فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾ [الحجر: ٤٥] وقال في وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾ [الرحمٰن: ٥٠] وقال في وصف الجنتين اللتين دونهما: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦﴾ [الرحمٰن: ٦٦].

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءهما صرفاً غير مخلوطاً ويشرب الأبرار منها الشراب مخلوطاً وممزوجاً بغيره.

فالعين الأولى هي عين الكافور كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٥، ٦].

فقد أخبر سبحانه أن الأبرار يشربون شرابهم ممزوجاً من عين الكافور بينما عباد الله يشربون شرابهم خالصاً غير ممزوج.

والعين الثاني هي عين التسنيم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٨].

ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل كما قال جل وعلا: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان: ١٧ ـ ١٨].

ورحم الله الإمام ابن القيم حيث قال:

وشَرَابُهُمْ مِنْ سَلْسَبِيلٍ مَزْجُهُ الكافور ... ذاكَ شرابُ ذِي الإحسانِ
هذا شَرَابُ أُولي اليمين ولكِنْ ... الأَبْرَارُ شُرْبُهُمُ شَرابٌ ثانِ
يُدْعَى بتسنيمٍ سَنَامُ شُرْبِهِمْ ... شِرْبُ المُقَرَّبِ خِيرَةِ الرَّحمنِ
صَفَّى المُقَرَّبُ سَعْيَه فَصَفَا لَهُ ... ذاك الشَّرابُ فتِلْكَ تَصْفِيَتانِ
لَكِنَّ أصْحَابَ اليَمِينِ فأهْلُ مَزْجٍ ... بِالمُبَاحِ ولَيْسَ بالعِصْيانِ
مُزِجَ الشَّرابُ لهُمْ كَما مَزَجُوا ... هُمُ الأَعْمالَ ذاكَ المَزْجَ بالمِيزانِ
هَذا وذُو التَّخْليطِ مَزْجَى أمْرُهُ ... والحُكْمُ فيهِ لِرَبِّهِ الدَّيَّانِ

وللجنة رائحة عبقة زكية تملأ جنباتها، وتفوح فيها، هذه الرائحة يجدها المؤمنون من مساحات شاسعة.

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «**من قتل مجاهداً لم يَرَحْ رائحةَ الجنةِ، وإنَّ ريحَها ليوجدُ من مسيرةِ أربعين عاماً**» رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**ألا مَنْ قتلَ نفساً معاهداً له ذمةُ الله وذمةُ رسوله، فقد أخفَر بذِمَّةِ الله، فلا يَرَح رائحةَ الجنةِ، وإنَّ ريحَها ليوجدُ من مسيرةِ سبعينَ خَرِيفاً**».

وفي «الصحيحين» من حديث أنس قال: لم يشهدْ عمي مع رسول الله ﷺ بدراً، قال: فَشقَّ عليه، قال: أولُ مَشهدٍ شهدهُ رسولُ الله ﷺ غبتُ عنه، فإن أراني الله مشهداً فيما بعدُ مع رسولِ ﷺ ليرينَّ الله ما أصنعُ، قال: فهابَ أن يقولَ غيرَها، قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يومَ أحدٍ، قال: فاستقبل سعدَ بن معاذٍ فقال له: أين؟ فقال: واهاً لريحِ الجنةِ أجدُه دونَ أحدٍ، قال: فقاتلَهمْ حتى قُتلَ، قال: فُوجدَ في جسدِهِ بِضع وثمانُونَ من بينِ ضربة وطعنة ورمية. فقالت أختهُ عمةُ الربيع بنتُ النضر: فما عرفتُ أخي إلا ببنانهِ، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. قالوا: فكانوا يرونَ أنَّها نزلتْ فيه وفي أصحابه.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

«وريح الجنة نوعان: ريحٌ يوجد في الدنيا تَشمهُ الأرواحُ أحياناً ولا تدركهُ العبارة، وريح يدْرَك بحاسة الشم للأبدان، كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار آثاراً من آثار الجنة، وأنموذجاً منها من الرائحة الطيبة، واللذات المشتهاة، والمناظر البهية، والفاكهة الحسنة، والنعيم والسرور، وقرة العين.

كما جعل سبحانه نارَ الدنيا وآلامَها وغمومَها وأحزانَها تذكرةً بنارِ الآخرةِ، قال تعالى في هذه النار: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: ٧٣]. وأخبر النبي ﷺ: أنَّ شدة الحرِّ والبردِ من أنفاس جهنّم. فلا بدَّ أن يشهدَ عباده أنفاس جنته، وما يذكرهم بها. والله المستعان».

وقال رحمه الله في نونيته:

وَالرِّيحُ يُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِيـ ... ـنَ وَإِنْ تَشَأْ مِائَةً فَمَرْوِيَّانِ
وَكَذَا رُوِي سَبْعِينَ أَيْضاً صَحَّ هَـ ... ـذَا كُلُّهُ وَأَتَى بِهِ أَثَرَانِ
مَا في رِجَالِهِمَا لَنَا مِنْ مَطْعَنٍ ... وَالْجَمْعُ بَيْنَ الكُلِّ ذُو إِمكَانِ
وَلَقَدْ أَتَى تَقْدِيرُهُ مِائَةً بِخَمْـ ... ـسٍ ضَرْبُهَا مِنْ غَيْرِ مَا نُقْصَانِ
إنْ صَحَّ هَذَا فَهُوَ أَيْضاً وَالَّذي ... مِنْ قَبْلِهِ فِي غَايَةِ الإمْكَانِ

إمَّا بِحَسْبِ المُدْرِكِينَ لِرِيحِهَا قُرْباً وبُعْداً مَا هُمَا سِيَّانِ
أوْ بِاخْتِلاَفِ قَرَارِهَا وَعُلُوِّهَا أيْضاً وَذَلِكَ وَاضِحُ التِّبْيَانِ
أوْ بِاخْتِلاَفِ السَّيْرِ أيْضاً فَهُوَ أنْـ ـوَاعٌ بِقَدْرِ إطَاقَةِ الإنْسَانِ
مَا بَيْنَ ألْفَاظِ الرَّسُولِ تَنَاقُضُ بَلْ ذَاكَ فِي الأفْهَامِ والأذْهَانِ

وفي الجنة أيضاً أشجار كثيرة طيبة متنوعة، وقد أخبرنا الله جل وعلا أن في الجنة أشجار العنب والنخل والرمان، كما فيها أشجار السدر والطلح، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ [النبإ: ٣١ ـ ٣٣].

وقال جل وعلا: ﴿وَأَصْحَبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الواقِعَة: ٢٧ ـ ٣٢].

وأشجار الجنة دائمة العطاء، فهي ليست كأشجار الدنيا تعطي في وقت دون وقت، وفصل دون فصل، بل هي دائمة الأثمار والظلال كما قال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرّعد: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَفَكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾[الواقِعَة: ٣٢، ٣٣].

وقال ﷺ: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة وأقرأوا إن شئتم**: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الواقِعَة: ٣٠]» رواه البخاري.

ومن الأشجار التي أخبرنا عنها ﷺ شجرة سدرة المنتهى، وهذه الشجرة ذكرها الله في كتابه وأخبرنا أن رسولنا محمد ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عند هذه الشجرة وأخبرنا أيضاً أن هذه الشجرة عند جنة المأوى كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٣-١٧].

وفي الصحيحين قال ﷺ في حديث الإسراء: «**ثم انطلق بي** ـ أي جبريل ـ **حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، ونبقها مثل قلال هجر وورقها مثل آذان الفيلة، تكاد الورقة تغطي هذه الأمة**».

ومن الأشجار أيضاً التي أخبرنا عنها ﷺ شجرة طوبى وهي شجرة عظيمة

كبيرة تصنع ثياب أهل الجنة، فقد قال ﷺ: **«طوبى شجرة في الجنة مسيرة مائة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»**.

ومن عجيب ما أخبرنا به الرسول ﷺ أن سيقان أشجار الجنة من الذهب فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ما في الجنة من شجرة إلا وساقها من ذهب»**.

ورحم الله الإمام ابن القيم حيث قال:

أَشْجَارُهَا نَوْعَانِ مِنْهَا مَا لَهُ … فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِثَالٌ ثَانِ
كَالسِّدْرِ أَصْلُ النَّبْقِ مَخْضُودٌ مَكَا … نَ الشَّوْكِ مِنْ ثَمَرٍ ذَوِي أَلْوَانِ
هَذَا وَظِلُّ السِّدْرِ مِنْ خَيْرِ الظِّلاَ … لِ وَنَفْعُهُ التَّرْوِيحُ لِلأَبْدَانِ
وَثِمَارُهُ أَيْضاً ذَوَاتُ مَنَافِعٍ … مِنْ بَعْضِهَا تَفْرِيحُ ذِي الأَحْزَانِ
وَالطَّلْحُ وَهْوَ المَوزُ مَنْضُودٌ كَمَا … نُضِدَتْ يَدٌ بِأَصَابِعٍ وَبَنَانِ
أَوْ أَنَّهُ شَجَرُ البَوَادِي مُوقَراً … حِمْلاً مَكَانَ الشَّوْكِ فِي الأَغْصَانِ
وَكَذَلِكَ الرُّمَّانُ والأَعْنَابُ وَالنَّـ … ـخْلُ الَّتِي مِنْهَا القُطُوفُ دَوَانِ
هَذَا وَنَوعٌ مَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّ … نْيَا نَظِيرٌ كَيْ يُرَى بِعِيَانِ
يَكْفِي مِنَ التَّعْدادِ قَوْلُ إِلَهِنَا … مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ بِهَا زَوْجَانِ
أَتَوْا بِهِ مُتَشَابِهاً فِي اللَّوْنِ مُخْـ … ـتَلِفَ الطُّعُومِ فَذَاكَ ذُو أَلْوانِ
أَوْ أَنَّهُ مُتَشَابِهٌ فِي الاسْمِ مُخْـ … ـتَلِفُ الطُّعُومِ فَذَاكَ قَوْلٌ ثَانِ
أَوْ أَنَّهُ وَسَطٌ خِيَارٌ كُلُّهُ … فَالفَحْلُ مِنْهُ لَيْسَ ذَا ثِنْيَانِ
أَوْ أَنَّهُ لِثِمَارِنَا ذِي مُشْبِهٌ … فِي اسْمٍ وَلَوْنٍ لَيْسَ يَخْتَلِفَانِ
لَكِنْ لِبَهْجَتِهَا وَلَذَّةِ طَعْمِهَا … أَمْرٌ سِوَى هَذَا الذي تَجِدانِ
فَيَلَذُّهَا فِي الأَكْلِ عِنْدَ مَنَالِهَا … وَتَلَذُّهَا مِنْ قَبْلِهِ العَيْنَانِ
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمَا بِالجَنَّةِ الـ … ـعُلْيَا سِوَى أَسْمَاءِ مَا تَرَيَانِ
يَعْنِي الحَقَائِقَ لاَ تُمَاثِلُ هَذِهِ … وكِلاَهُمَا فِي الاسْمِ مُتَّحِدَانِ
يَا طِيبَ هَاتِيكَ الثِّمَارِ وَغَرْسِهَا … فِي المِسْكِ ذَاكَ التُّرْبُ لِلْبُسْتَانِ
وَكَذَلِكَ المَاءُ الَّذِي يُسْقَى بِهِ … يَا طِيبَ ذَاكَ الوِرْدِ لِلظَّمآنِ

وَإِذَا تَنَاوَلَتِ الثِّمَارَ أَتَتْ نَظِيـ
رَتُهَا فَحَلَّتْ دُونَهَا بِمَكَانِ

لَمْ تَنْقَطِعْ أَبَداً وَلَمْ تَرْقُبْ نُزُو
لَ الشَّمْسِ مِنْ حَمَلٍ إِلَى مِيزَانِ

وَكَذَاكَ لَمْ تُمْنَعْ وَلَمْ تَحْتَجْ إِلَى
أَنْ تَرْتَقِي لِلْقِنْوِ فِي الْعِيدَانِ

بَلْ ذُلِّلَتْ تِلْكَ الْقُطُوفُ فَكَيْفَ مَا
شِئْتَ انْتَزَعْتَ بِأَسْهَلِ الإِمْكَانِ

وَلَقَدْ أَتَى أَثَرٌ بِأَنَّ السَّاقَ مِنْ
ذَهَبٍ رَوَاهُ التِّرْمِذِي بِبَيَانِ

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَهَاتِيكَ الْجُذُو
عُ زُمُرُّدٌ مِنْ أَحْسَنِ الأَلْوانِ

وَمُقَطَّعَاتُهُمْ مِنَ الكَرَبِ الَّذِي
فِيهَا وَمِنْ سَعَةٍ مِنَ الْعِقْيَانِ

وَثِمَارُهَا مَا فِيهِ مِنْ عَجَمٍ كَأَمْـ
ثَالِ الْقِلاَلِ فَجَلَّ ذُو الإِحْسَانِ

وَظِلاَلُهَا مَمْدُودَةٌ لَيْسَتْ تَقِيْ
حَرًّا وَلاَ شَمْساً وَأَنَّى ذَانِ

أَوَ مَا سَمِعْتَ بِظِلِّ أَصْلٍ وَاحِدٍ
فِيهِ يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْعَجْلاَنِ

مِائَةَ سِنِينَ قُدِّرَتْ لاَ تَنْقَضِي
هَذَا الْعَظِيمُ الأَصْلِ وَالأَفْنَانِ

وَلَقَدْ رَوَى الْخُدْرِيُّ أَيْضاً أَنَّ طُو
بَى قَدْرُهَا مِائَةٌ بِلاَ نُقْصَانِ

تَتَفَتَّحُ الأَكْمَامُ فِيهَا عَنْ لِبَا
سِهِمُ بِمَا شَاؤوا مِنَ الأَلْوانِ

وقد طلب خليل الرحمن أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام من نبينا محمد ﷺ في ليلة الإسراء أن يبلغ أمته السلام وأن يخبرهم بالطريقة التي يستطيعون بها تكثير حظهم من أشجار الجنة، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لقيت إبراهيم ليلة اسري بي فقال: يا محمد اقرىء أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة أرض طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان وأن غراسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».**

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله في ذلك:

أَو ما سَمِعْتَ بأنها القِيعَانُ
فاغْرِسْ ما تشاءُ بذا الزمان الفاني

وغراسها التسبيحُ والتكبيرُ
والتحْمِيدُ والتوحيدُ للرَّحمْنِ

تبًّا لتارِكِ غرسِهِ ماذا
الذي قَدْ فاتَهُ من مُدَّةِ الإمْكانِ

يا مَنْ يُقَرُّ بذا ولا يَسْعَى لَهُ
باللّٰهِ قُلْ لي كَيْفَ يَجْتَمعانِ

أرَأَيتَ لَوْ عَطَّلْتَ أرْضَكَ من
من غراسٍ ما الذي تجني مِنَ البُسْتانِ

وكذاكَ لَوْ عَطَّلْتَها مِنْ بَذْ
رِهَا تَرْجُو المَغَلَّ يكون كالكِيمَانِ

أما إن سألت يا أمة الله عن طعام أهل الجنة وشرابهم، ففي الجنة يتنعم أهلها من ثمارها بما يريدون وبما يشتهون، ففي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب كما قال سبحانه: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾ [الواقعة: ٢٠ ـ ٢١].

فقوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠﴾، أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه. ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢١﴾، أي من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا إن شاءوا مشوياً، أو طبيخاً، أو غير ذلك.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ٤٢ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾ [المرسلات: ٤١ ـ ٤٣].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، أي: للتكذيب، المتصفين بالتصديق، في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم. ولا يكونون كذلك، إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات. ﴿فِي ظِلَٰلٖ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهرة البهية. ﴿وَعُيُونٖ﴾ جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرهما. ﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ٤٢﴾، أي: من خيار الفواكه وأطيبها، ويقال لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة، ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾، أي: من غير منغص ولا مكدر. ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب، من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع، ولا زائل. ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى جنات النعيم المقيم.

وقال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٤].

فهؤلاء هم أهل السعادة، يُعطَوْنَ كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم، تمييزاً لهم، وتنويهاً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم.

ويقول أحدهم عند ذٰلك من الفرح والسرور، ومحبة أن يطلع الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، أي: دونكم كتابي، فاقرأوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب.

والذي أوصلني إلى هٰذا الحال، ما منَّ الله به عليَّ من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العلم، ولهٰذا قال: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴿٢٠﴾﴾، أي: أيقنت، فالظن ـ هنا ـ بمعنى اليقين. ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴿٢١﴾﴾، أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ﴿٢٢﴾﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴿٢٣﴾﴾ أي: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين. ويقول لهم إكراماً: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهيٍّ. ﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾، أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر، ولا منغص.

وذٰلك الجزاء حاصل لكم ﴿بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصالحة، من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله، وإنابة إليه، وترك الأعمال السيئة.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لنعيمها، وأصلاً لسعادتها.

وقال الله تعالى: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ [الرعد: ٣٥].

فيقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ﴾ الذين تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقي تلك البساتين، والأشجار، فتحمل جميع أنواع الثمار. ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ﴾ دائم أيضاً، ﴿تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ﴾ أي: مآلهم وعاقبتهم، التي إليها يصيرون، ﴿وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!!

وقال الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور: ٢٢ ـ ٢٣].

وقوله: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾، أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع، ورزقنا العميم ﴿بِفَٰكِهَةٍ﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون. ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، من لحوم الطير وغيرها. ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، أي تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق. ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأثيم وهو: الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها، سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم ومحبته لهم.

وقال الله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين: ٢٥ ـ ٢٨].

فقوله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها. ﴿مَّخْتُومٍ﴾ ذٰلك الشراب ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾. يحتمل أن المراد مختوم عن أن يدخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذٰلك الختام، الذي ختم به مسك، ويحتمل أن المراد أنه الذي يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر. فهٰذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا، أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة. ﴿وَفِى ذَٰلِكَ﴾ النعيم المقيم، الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله. ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾، أي: فليتسابقوا في المبادرة إليه بالأعمال الموصلة إليه، فهٰذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال. ﴿وَ﴾ هٰذا الشراب ﴿ مِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ صرفاً وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذٰلك كانت

خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين، أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٥ ـ ٦].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ وهم: الذين برت قلوبهم، بما فيها من معرفة الله ومحبته، والأخلاق الجميلة، فبرت أعمالهم، واستعملوها بأعمال البر، فأخبر أنهم ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾، أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور، أي: خلط به، ليبرده، ويكسر حدته، وهٰذا الكافور في غاية اللذة، قد سلم من كل مكدر ومنغص موجود في كافور الدنيا، فإن الآفة الموجودة في الدنيا، تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة. كما قال تعالى: ﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩﴾، ﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾، أي: ذٰلك الكأس اللذيذ، الذي يشربونه، لا يخافون نفاده، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيراً، أنى شاءوا، وكيف أرادوا. فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض النضرات، أو بين جوانب القصور، والمساكن المزخرفات، أو إلى أي جهة يرونها من الجهات المونقات.

وقال الله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ [الإنسان: ١٧ ـ ١٨].

فقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿كَأْسًا﴾ وهو الإناء من خمر ورحيق ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي خلطها ﴿زَنجَبِيلًا﴾ ليطيب طعمه وريحه ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨﴾ وذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

ورحم الله الإمام ابن القيم حيث قال:

وطعامُهُمْ ما تَشْتَهِيهِ نُفُوسُهُمْ ولحومُ طيرٍ ناعمٍ وسِمانِ

وفـواكِـهٌ شتَّـى بِـحسَـبِ مُـنَـاهُـمُ　　يـا شَـبْـعَـة كَـمُـلَـتْ لِـذِي الإيـمَـانِ
لـحْـمٌ وخَـمْـرٌ والـنِّـسـا وفَـواكِـهٌ　　والـطِّـيـبُ مَـعْ رَوْحٍ ومَـعْ رِيْـحـانِ
وصِحَافُهُمْ ذَهبٌ يَطوفُ عَلَيْهِمُ　　بِـأكُـفِّ خُـدَّامٍ مِـنَ الـوِلْـدَانِ

ومن الشراب الذي يتفضل الله به على أهل الجنة الخمر، وخمر الجنة خالي من العيوب والآفات التي تتصف بها خمر الدنيا، فخمر الدنيا تذهب العقول وتصدع الرؤوس وتوجع البطون وتمرض الأبدان وتجلب الأسقام، أما خمر الجنة فإنها خالية من ذلك كله، جميلة صافية رائقة، كما قال الله جل وعلا: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات: ٤٥ ـ ٤٧].

فقوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم عليهم، بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهو كاسات الخمر. وتلك الخمر، تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿بَيْضَآءَ﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده. وأنها سالمة ـ ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ العقل وذهابه، ونزفه، ونزف مال صاحبها، وليس فيها صداع ولا كدر. فلما ذكر طعامهم وشرابهم، ومجالسهم، وعموم النعيم وتفاصيله، داخلة في قوله: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ .

وقد وصف الله جل وعلا جمال لونها حيث أنها بيضاء ثم بين أنها تلذُّ شاربها من غير ذهاب لعقله كما قال سبحانه: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥] ثم إن شاربها لا يمل من شربها ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧].

وقال سبحانه في موضع آخر يصف خمر الجنة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة: ١٧- ١٩].

فقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾، أي: يدور على أهل الجنة لخدمتهم وقضاء حوائجهم، ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء. ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾، أي: مستور، لا يناله ما يغيره. مخلوقون للبقاء والخلد، لا

يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بآنية شرابهم ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهي التي لا عرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ الأواني التي لها عرى. ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾، أي: من خمر لذيذ المشرب، لا آفة فيه. ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾، أي: لا تصدع رؤوسهم، كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربها ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمر الدنيا.

والحاصل: أن كل ما في الجنة من النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة كما قال تعالى: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ وذكر هنا خمر الجنة ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا.

ورحم الله ابن القيم حيث قال:

يُسْقُوْنَ منها مِنْ رَحيقٍ خَتْمُهُ ... بالمِسْكِ أوَّلُهُ كَمِثْلِ الثَّانِي
مَعَ خَمْرَةٍ لَذَّتْ لشاربِهَا بِلاَ ... غَوْلٍ ولا داءٍ ولا نُقْصَانِ
والخمرُ في الدُّنْيا فهَذَا وَصْفُهَا ... تَغْتَالُ عَقْلَ الشاربِ السَّكْرَانِ
وبِهَا مِن الأدوَاءِ ما هي أهلُهُ ... ويَخَافُ مِنْ عَدَمٍ لِذِي الوِجْدَانِ
فَنَفَى لنا الرَّحْمنُ أجْمَعَهَا ... عَنِ الخَمْرِ التي في جَنَّةِ الحَيَوَانِ

وأول طعام يتحف الله به أهل الجنة هو زيادة كبد الحوت فقد روى البخاري ومسلم رحمهما الله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يكتفأ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة»**.

والنزل هو ما يعد للضيف عند نزوله، ويتكفأها بيده: أي يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوي، ومعنى الحديث: أن الله جل وعلا يجعل الأرض كالرغيف العظيم ويكون طعاماً ونزلاً لأهل الجنة.

ثم يتابع أبو سعيد الخدري رضي الله عنه الحديث فيقول: فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة قال: «بلى» قال: تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ، فنظر

النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: «**ألا أخبرك بإدامهم؟ بالام والنون**»، قالوا وما هذا؟ قال: «**نور ونون يأكل من زائدة كبدهما سبعون ألفا**». والبالام هي لفظة عبرانية معناها ثور وزائده كبد الحوت هي القطع المنفردة المتعلقة في الكبد وهي أطيبها.

وفي صحيح البخاري أن عبد الله بن سلام سأل النبي ﷺ أول قدومه المدينة أسئلة منها: ما أول شيء يأكله أهل الجنة؟ فقال: «**زيادة كبد الحوت**».

وفي صحيح مسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن يهودياً سأل الرسول ﷺ قال: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «**زيادة كبد الحوت**» قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «**ينحر لهم ثور الجنة الذي يأكل من أطرافها**» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «**من عين تسمى سلسبيل**» قال: صدقت.

وقد يتبادر إلى الذهن أن الطعام والشراب في الجنة ينتج عنه ما ينتج عن طعام أهل الدنيا وشرابهم من البول والغائط والمخاط والبزاق ونحو ذلك، ولكن الأمر ليس كذلك فالجنة دار خالصة من الأذى وأهلها مطهرون من أوشاب أهل الدنيا ففي الحديث الذي يرويه البخاري ومسلم رحمهما الله تعالى قال ﷺ: «**أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون**».

وليس هذا خاص بأول زمرة تدخل الجنة، وإنما هو عام في كل من يدخل الجنة ففي رواية مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء أضاءه، ثم هم بعد ذلك منازل لا يتغوطون ولا يتبولون ولا يمتخطون ولا يبزقون**».

فالذي يتفاوت فيه أهل الجنة هو قوة نور كل منهم، أما خلوصهم من الأذى فإنهم يشتركون فيه جميعاً فهم لا يتغوطون ولا يتبولون ولا يتفلون ولا يمتخطون.

وقد يقال فأين تذهب فضلات الطعام والشراب، فالجواب على ذلك ما

قاله ﷺ عندما سأله أصحابه نفس السؤال، فأفاد أن بقايا الطعام والشراب يتحول إلى رشح كرشح المسك يفيض من أجسادهم كما يتحول بعض منه أيضاً إلى جشاء ولكنه جشاء تنبعث منه روائح طيبة عبقة عطرة، ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يتبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون**»، قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «**جشاء كجشاء المسك**».

وفي هذا قال الإمام ابن القيم رحمه الله:

هـذا وتـصـريـفُ الـمـآكِـلِ مِـنْـهُـمُ ... عَـرَقٌ يَـفِـيـضُ لَـهُـمْ مِـن الأَبْـدَانِ
كَرَوائِحِ الـمِسْكِ الـذي مـا فيـه خَلْـ ... طٌ غَـيْـرُهُ مِـنْ سـائِـرِ الألْـوانِ
فَـتَـعـودُ هـاتِـيـكَ الـبُـطُـونُ ضَـوامِـراً ... تَـبْـغِـي الـطَّـعَـامَ عَـلَـى مـدَى الأزمـانِ
لا غـائِـطٌ فِـيـهَـا ولا بَـوْلٌ ولا مَـخْـطٌ ... ولا بَـصْـقٌ مِـنَ الإنْـسَـانِ
ولَـهُـمْ جُـشَـاءٌ رِيـحُـهُ مِـسْـكٌ ... يَـكُـونُ بِـهِ تَـمَـامُ الـهَـضْـمِ بـالإحْـسـانِ
هَـذَا وهَـذَا صَـحَّ عَـنْـهُ فَـوَاحِـدٌ ... فِـي مُـسْـلِـمٍ ولأَحْـمَـدَ الأثْـرانِ

أما آنية طعام أهل الجنة التي يأكلون ويشربون بها فهي من الذهب والفضة، فقد قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

وأهل الجنة يلبسون في الجنة اللباس الفاخر، ويتزينون فيها بأنواع الحلي من الذهب والفضة واللؤلؤ، فمن لباسهم الحرير ومن حلاهم أساور الذهب والفضة واللؤلؤ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١٢] وقال أيضاً: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١] وقال أيضاً: ﴿جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [فاطر: ٣٣].

وملابس أهل الجنة ذات ألوان، ومن ألوان الثياب التي يلبسونها الخضر من السندس والإستبرق كما قال تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١].

ويخدم أهل الجنة ولدان ينشئهم الله لخدمتهم، يكونون في غاية الجمال والكمال، كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨] وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان: ١٩].

أما أعظم نعيم وأفضل عطاء يعطاه أهل الجنة، فهو النظر إلى وجه الله الكريم.

وقد صرح الله جل وعلا برؤية العباد له في جنات النعيم فقال سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] بينما الكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم كما قال جل وعلا: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

وقد روى الإمام مسلم رحمه الله عن صهيب الرومي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى** - وزاد في رواية - ثم تلا هذه الآية ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]».

والنظر إلى وجه الله تعالى من المزيد الذي وعد الله به المحسنين حيث قال سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥] وقال أيضاً: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] وقد فسرت الحسنى بالجنة، والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم كما ثبت ذلك في الحديث الذي رواه مسلم.

ورحم الله ابن القيم حيث قال:

ويرونه سبحانه من فوقهم ... رؤيا العيان كما يرى القمران
هذا تواتر عن رسول الله لم ... ينكره إلا فاسد الإيمان
وأتى به القرآن تصريحا ... وتعريضا هما بسياقه نوعان
وهي الزيادة قد أتت في يونس ... تفسير من قد جاء بالقرآن
ورواه عنه مسلمٌ بصحيحه ... يروي صهيب ذا بلا كتمان
هذا ويكفي أنه سبحانه ... وصف الوجوه بنظرة بجنان

وأعـاد أيـضـاً وصـفـهـا نـظـراً وذا ... لا شـك يُـفـهـم رؤيـة بـعـيـان
وأتـت أداة إلـى لـرفـع الـوهـم مـن ... فـكـر كـذلـك تـرقـب الإنـسـان
ولـقـد أتـى فـي سـورة الـتـطـفـيـف أن ... الـقـوم قـد حـجـبـوا عـن الـرحـمـن
فـيـدل بـالـمـفـهـوم أن الـمـؤمـنـيـن ... يـرونـه فـي جـنـة الـحـيـوان

ثم يقول رحمه الله بعد ذلك بعدة أبيات:

والله لولا رؤية الرحمن في الجنات ... مـا طـابـت لـذي الـعـرفـان
أعـلـى الـنـعـيـم نـعـيـم رؤيـة وجـهـه ... وخـطـابـه فـي جـنـة الـحـيـوان
وأشـد شـيء فـي الـعـذاب حـجـابـه ... سـبـحـانـه عـن سـاكـنـي الـنـيـران
وإذا رآه الـمـؤمـنـون نـسـوا الـذي ... هـم فـيـه مـمـا نـالـت الـعـيـنـان
والله مـا فـي هـذه الـدنـيـا ألـذ ... مـن اشـتـيـاق الـعـبـد لـلـرحـمـن
وكـذاك رؤيـة وجـهـه سـبـحـانـه ... هـي أكـمـل الـلـذات لـلإنـسـان

وهكذا يتنعم المؤمنون في الجنة بما أعده الله تبارك وتعالى لهم من خيرات عظام فترتفع ألسنتهم تسبح ربهم وتقدسه، فقد أذهب عنهم الحزن، وصدقهم وعده وأورثهم الجنة كما قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وآخر دعواهم في تلك الجنان أن الحمد لله رب العالمين: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس: ١٠].

فهؤلاء هم أصحاب الجنان... هؤلاء هم عباد الله المتقون... هؤلاء هم المؤمنون الموحدون... هؤلاء هم العابدون الخاضعون... الذين استحقوا دخول تلك الجنان.

استحقوا دخول الجنان، لأنهم آمنوا وعملوا الصالحات في هذه الحياة الدنيا، والله تعالى يقول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

استحقوا دخول الجنان، لأنهم أخلصوا دينهم لله جل وعلا، والله تعالى يقول: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾ [الصافات: ٤٠ ـ ٤٣].

استحقوا دخول الجنان، لأنهم صبروا وتوكلوا على ربهم المنان، والله جل وعلا يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩].

استحقوا دخول الجنان لأنهم استقاموا على شرع الله، وعلى منهج الله، مع الإيمان بالله سبحانه، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

استحقوا دخول الجنان، لأنهم خافوا من الله تعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمٰن: ٤٦].

استحقوا دخول الجنان، لأنهم اتصفوا بصفات عباد الرحمن، والله تعالى يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

فهنيئاً والله لمن نال الجنان...

هنيئاً وربي لمن نال رضى الرب المنان...

هنيئاً لمن التزم بطريق الرحمن...

هنيئاً لمن صبر وتحمل آلام الطريق حتى وصل إلى الجنة بسلام.

طوبى للمتقين... وطوبى للسائرين في طريق الرحمن... وطوبى للمؤمنين الموحدين المتقين... طوبى لكل هؤلاء... طوبى لهم وحسن مآب، فقد نالوا أعظم وأغلى وأكبر نعيم، ألا وهو الجنة، ألا وهو سلعة الله الغالية.

ورحم الله ابن القيم حيث قال:

يا سلعة الرحمن لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها إلا أولوا التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن سوقك كاسد بين الأراذل سفلة الحيوان
يا سلعة الرحمن هل من مشترى فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب فالمهر قبل الموت ذو إمكان
يا سلعة الرحمن كيف تصبر الخطاب عنك وهم ذوو إيمان
يا سلعة الرحمن لولا أنها حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة ليصد عنها المبطل المتواني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى رب العلى بمشيئة الرحمن
فاتعب ليوم معادك الأدنى تجد راحاته يوم المعاد الثاني

نعم والله...

فاتعب ليوم معادك الأدنى تجد راحاته يوم المعاد الثاني

فيا أختي المسلمة: الجنة درجة عالية، والصعود إلى العلياء يحتاج إلى جهد كبير، وطريق الجنة فيه مخالفة لأهواء النفس ومحبوباتها، وهذا يحتاج إلى عزيمة شديدة وإرادة قوية، فيا من تطلبين رضى الله والجنة، اعملي وسارعي، وجدي وثابري، وجاهدي واصبري، وسابقي وأخلصي، عسى أن تنالي نفحة من نفحات المولى جل وعلا يرحمك بها، فتكوني من أهل الجنان، وتنالي النجاة من النيران.

* * *

النار دار العذاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

أختي المسلمة: النار هي الدار التي أعدها الله سبحانه للكافرين به، المتمردين على شرعه، المكذبين لرسله، وهي عذابه الذي يعذب فيه أعداءه، وسجنه الذي يسجن فيه المجرمين، وهي الخزي الأكبر، والخسران الأعظم الذي لا خزي فوقه ولا خسران أعظم منه، يقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران: ١٩٢].

فقوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته وأوليائه ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ لها. ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

ويقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

فقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ حقيقة هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيث حرموها الثواب، واستحقت بسببهم وخيم العقاب ﴿وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾ أي فرق بينهم وبينهم واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ

﴿وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦] فيا من منّ الله عليهم بالإيمان قوموا بلوازم هذا الإيمان وقوا أنفسكم من هذه النار بإلزامها أمر الله جل وعلا امتثالاً، ونهيه اجتناباً والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، وقوا أهليكم أيضاً النار بتأديبهم وتعليمهم على أمر الله سبحانه، ثم وصف الله تلك النار العظيمة فقال سبحانه: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ أي شديدة، يفزعون بأصواتهم ويهينون أصحاب النار بقوتهم، وينفذون فيهم أمر الله جل وعلا الذي حتم عليهم بالعذاب في تلك النار، فأولئك الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، أي مهما أمرهم الله تعالى فيبادرون إلى تنفيذه لا يتأخرون عنه طرفة عين.

ويقول تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: ١٤ ـ ١٦].

فيقول تعالى ذكره: فأنذرتكم أيها الناس ناراً تتوهج وهي نار جهنم يقول: احذروا أن تعصوا ربكم في الدنيا وتكفروا به فتصلونها في الآخرة. ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾ يقول جل ثناؤه: لا يدخلها فيصلى بسعيرها إلا الأشقى ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ يقول: الذي كذب بآيات ربه وأعرض عنها، ولم يصدق بها.

فأنذر الله جل وعلا عباده ناراً تتوهج، وهي نار جهنم فاحذروا أن تعصوا الله في الدنيا وتكفروا به فتصلوا النار في الآخرة، فهي نار تتوهج وتتوقد كلما سكن لهبها زيد في وقودها وسعرها لا يصلاها إلا الأشقى، وهو الذي كذب الخبر بقلبه وتولى عن العمل بجوارحه نعوذ بالله من ذلك.

وقال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٢٦ ـ ٣٠].

فيقول تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ أي سأورده باباً من أبواب جهنم اسمه سقر ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ يقول تعالى ذكره: وأي شيء أدراك يا محمد، أي شيء سقر. ثم بين الله تعالى ذكره ما سقر، فقال: هي نار ﴿لَا تُبْقِى﴾ من فيها حياً ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ من فيها ميتاً، ولكنها تحرقهم كلما جدد خلقهم. وقوله: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾

يعني جل ثناؤه: مغيرة لبشر أهلها ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ يقول تعالى ذكره: على سقر تسعة عشر من الخزنة.

فما هي سقر؟ وما هي النار؟ إنها ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي تأكل لحومهم وعروقهم وجلودهم ثم تبدل غير ذلك ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ أي حراقة للجلود ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ وهم الزبانية فخلقهم عظيم، وخُلُقهم عظيم نعوذ بالله من النار.

وقال سبحانه: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾﴾ [الهمزة: ٤ ـ ٧].

فيقول جل وعلا: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنبَذَنَّ﴾ أي ليطرحن في الحطمة ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ وهو تعظيم لها وتهويل بشأنها ثم فسرها بقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾﴾ التي وقودها الناس والحجارة والتي من شدتها أنها تطلع على الأفئدة أي تنفذ من الأجساد إلى القلوب، ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها قد أيسوا من الخروج منها، نعوذ بالله من ذلك.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٤] فأولئك الذين أخذوا كتابهم بشمالهم هم في سموم وحميم، والسموم هو ريح حارة من حر نار جهنم تأخذ بأنفاسهم تقلقهم أشد القلق والحميم هو الماء الحار الذي يقطع أمعاءهم ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ أي لهب نار يختلط بدخان أسود شديد السواد ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ أي ليس ذلك الظل بارد كبرد ظل أي شيء، ولكنه حار لأنه دخان من سعير جهنم وليس بكريم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم**» متفق عليه.

فقوله ﷺ: «**ناركم هذه**» أي التي توقدونها في جميع الدنيا وتنتفعون بها فيها «**جزء**» واحد «**من سبعين جزءاً من نار جهنم**» أي حرارة كل جزء من السبعين جزءاً من نار جهنم مثل حرارة ناركم. معناه أن النار التي نجدها في الدنيا بالنسبة إلى نار

جهنم في حرها ونكايتها وسرعة اشتعالها واحد من سبعين، وكأنها فضلت على ما عندنا بتسعة وستين جزءاً من الشدة والحرارة، ولذلك تتقد فيها نيران الدنيا كالناس والحجارة.

يا غافلاً عن منايا ساقها القدرُ ... ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظرُ
عاين بقلبك إن العين غافلة ... عن الحقيقة واعلم أنها سقرُ
سوداء تزفر من غيظ إذا سعرت ... للظالمين فما تُبقي ولا تذر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة ... لكان فيه عن اللذات مزدجر

* * *

(وصف شدة ذلك العذاب)

أما إن سألت يا أمة الله عن وقود النار فيخبرنا عن ذلك المولى تبارك وتعالى حيث يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم: ٦] وقال أيضاً: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة والشدة، أن كان وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي تتقد بالحطبة، وهذه النار الموصوفة، معدة، ومهيأة للكافرين بالله ورسله، فاحذروا الكفر برسوله، بعد ما تبين لكم أنه رسول الله.

والمراد بالناس الذين توقد النار بهم الكفرة المشركون وأما نوع الحجارة التي تكون للنار وقوداً فالله أعلم بحقيقتها.

ومما توقد به النار الآلهة التي كانت تعبد من دون الله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ٩٩].

أي وإنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي وقودها وحطبها ﴿أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ وأصنامكم. والحكمة من دخول الأصنام النار وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة وليزداد عذابهم فلهذا قال: ﴿لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ﴾ كقوله تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٩] وكل من

العابدين والمعبودين فيها، خالدون، لا يخرجون منها ولا ينقلون عنها.

أما إذا أردت أن تعرفي شدة هذه النار فتأملي معي قول الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الواقعة: ٤١ ـ ٤٢] فأصحاب النار أولئك يعذبون في النار بريح حارة من حر نار جهنم تأخذ بأنفاسهم وتقلقهم أشد القلق ويعذبون كذلك بماء حار يقطع أمعاءهم، وبظل من دخان أسود شديد السواد وليس ذلك الظل ببارد كبرد ظلال سائر الأشياء ولكنه حار لأنه دخان من سعير جهنم وليس بكريم لأنه يؤلم من استظل به.

فقد تضمنت الآية ذكر ما يتبرد به الناس في الدنيا من الكرب والحر وهو ثلاثة: الماء والهواء والظل، وهذه الثلاثة لا تغني عن أهل النار شيئاً فهواء جهنم السموم وهو الريح الحارة الشديدة الحر، وماؤها الحميم الذي اشتد حره، وظلها اليحموم وهو الدخان الحار الأسود أعاذنا الله وإياكم من النار.

ويقول الله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات: ٣٠ ـ ٣٣].

فيقول تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾، أي: إلى ظل نار جهنم، التي تتمايز في خلاله ثلاث شعب، أي: قطع من النار، تعاوره وتتناوبه، وتجتمع به.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ ذلك الظل، أي: لا راحة فيه، ولا طمأنينة.

﴿وَلَا يُغْنِى﴾ من مكث فيه ﴿مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ بل اللهب قد أحاط به، يمنة ويسرة، ومن كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف: ٤١].

ثم ذكر عظيم شرر النار، الدال على عظمها وفظاعتها، وسوء منظرها، فقال: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ وهي: السود التي

تضرب إلى لون فيه صفرة، وهٰذا يدل على أن النار مظلمة، لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء، كريهة المنظر، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها، ومن الأعمال المقربة منها.

ويقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ٨ ـ ١١].

فيقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته. ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾، أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥].

وقيل: إن معنى ذٰلك، فأم دماغه هاوية في النار، أي: يلقى في النار على رأسه.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾﴾ وهٰذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾، أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها، على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

ويقول الله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾. [المدثر: ٢٦ ـ ٢٩]

يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾ سأورده باباً من أبواب جهنم اسمه سقر ولم يجرّ سقر لأنه اسم من أسماء جهنم ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ يقول تعالى ذكره: وأي شيء أدراك يا محمد، أي شيء سقر، ثم بين الله تعالى ذكره ما سقر، فقال: هي نار ﴿لَا تُبْقِى﴾ من فيها حياً ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ من فيها ميتاً، ولكنها تحرقهم كلما جدد خلقهم ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ يعني وهذه النار لا يخبو أوارها ولا ينطفىء لهبها مع تطاول الأزمان ومرور الليالي والأيام.

ويقول الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠].

فقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ أيها المكذبون لهذا العذاب الأليم والخزي الدائم

﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم. وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها.

ويقول تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

فقوله تعالى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ﴾ أي مقرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ التي جمعت كل هم وغم وعذاب ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي تهيأت للانطفاء ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ أي سعرناها به لا يُفتر عنهم العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم فأنكروا تمام قدرته.

فيظل الكفار يتعذبون في النار، لا يجدون طعم الراحة ولا يخفف عنهم من عذابها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بل هو باق على شدته وفظاعته وألمه، لا يحصل لهم راحة ولا سكن بوقت من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فيدفع عنهم ذلك المكروه ويخلصون منه.

فتأملي في ذلك أختي المسلمة.

ولنا أن نتخيل سعة جهنم وبعد قعرها إذا تأملنا في حديث النبي ﷺ الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **«ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع»** متفق عليه، وفي حديث آخر: **«إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار، وإن ضرسه مثل أحد، وإن مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة»**.

فيالله، إذا كانت صفة الكافر الواحد بهذه الضخامة، فكيف بسعة جهنم التي يكون بها الكفرة من عهد نبينا آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!

وعن مجاهد قال: قال ابن عباس: أتدري ما سعة جهنم؟ قلت: لا، قال: أجل والله ما تدري، حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ عن قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] قال: قلت: فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: **«على جسر جهنم»**.

وعن خالد بن عمير العدوي قال: خطبنا عتبة بن غزوان فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد؛ فإن الدنيا قد آذنت بصُرم وولت حَذَّاء، ولم يبق منها إلاّ صُبابة كصبابة الإناء، يتصابُّها صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذُكر لنا أنَّ الحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهوِي فيها سَبْعِينَ عاماً لا يُدْرِكُ لَهَا قَعْراً، وَوَاللّهِ؛ لَتُمْلأَنَّ؛ أَفَعَجِبْتُم؟ ولقد ذكر لنا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةٍ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ. . .» الحديث رواه مسلم.

وعن الحسن؛ قال: قال عتبة بن غزوان ـ على منبرنا هٰذا منبر البصرة ـ عن النبي ﷺ؛ قال: **«إِنَّ الصَّخْرَةَ العَظِيمَةَ لَتُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ؛ فَتَهْوِي فِيها سَبْعِينَ عَاماً، وَمَا تُفْضِي إِلَى قَرارِها»**.

قال: وكان عمر يقول: أكثروا ذكر النار؛ فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامعها حديد.

ويدل على عظمة جهنم ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال قال رسول الله ﷺ: **«يُؤتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»** رواه مسلم.

فعلى هٰذا؛ فإن عدد الملائكة التي تجر جهنم هو أربعة آلاف وتسعمئة ألف ألف (٤,٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠) مَلَك.

فلو قدرنا أن إنساناً أراد أن يقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله. . .، بمقدار هٰذا الرقم لا يفتر أبداً؛ لاحتاج من الزمان إلى أكثر من مئة وخمسين سنة!

فبعد أن قرأت هذا أختي المسلمة هل لك جلد على النار؟ هل تستطيعي أن تتحملي عذابها وحرها؟ نسأل الله تعالى أن يصرفها عنا بمنه وكرمه.

أما إن سألت أختي المسلمة عن بكاء أهل النار فيخبرنا عن ذلك ربنا سبحانه حيث يقول: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨٢].

أي: فليتمتعوا في هٰذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها،

فسيبكون كثيراً في عذاب أليم، ﴿جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ أَهْلَ النَّارِ لَيَبْكُونَ حَتَّى لَوْ أُجْرِيَتِ السُّفُنُ فِي دُمُوعهم لَجَرَتْ، وإنَّهُم لَيَبْكُونَ الدَّمَ** (يعني: مكان الدمع)».

فانظري يا أمة الله! إلى شدة بكائهم في النار، وتخيلي نفسك لو كنت منهم؛ كيف ستبكين الدم من شدة ما أنت فيه من العذاب؟! فاتقي الله تعالى وابكي على خطيئتك من قبل أن لا ينفعك البكاء، ولا يُقبل منك الندم.

اتقي الله ولا تفرحي بتحصيل الدنيا الزائلة، ونيل شهواتها المحرمة؛ فإنها ستعقبك آلاماً شديدة، وأحزاناً كثيرة، وويلات طويلة.

وتدبري قول الله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق: ١٠ ـ ١٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَفَرِحُوا بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد؛ ٢٦].

وقوله تبارك اسمه: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [غافر: ٧٥].

فإن أهل الدنيا يفرحون بالشهوات المحرمات مدة الدنيا القصيرة، ثم يفارقونها، فينتقلون من المسرات إلى الحسرات؛ فإفٍّ للذات منغصة فانية، تورث ندامة باقية دائمة.

ثم تفكري في مقابل ذٰلك في حال أهل الإيمان والتقوى، وما هم فيه من النعيم واللّذة والسرور والنّضرة؛ كما قال أرحم الراحمين:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق: ٧ ـ ٩].

وقال سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الإنسان: ١١ و١٢].

جازاهم الجنات لأنهم خافوه تعالى؛ فاتَّقَوْهُ واجتنبوا ما يُسخطه سبحانه، متحملين من أجله كل شاق وصعب ومكروه للنفس، ولم يفرحوا بتناول ما حرمه عليهم، بل إذا فعلوا شيئاً من ذٰلك؛ ضاق صدرهم وتنغص عيشهم؛ فسارعوا بالتوبة والاستغفار، ولم يصروا على ما فعلوا من الأوزار؛ فالواحد منهم إذا عصى وأساء؛ هاج في قلبه الخوف، واشتد ندمه، وكثر منه البكاء.

وقد نبه الحق جل وعلا على ما ينبغي الفرح به مما يورث الفرح الأكبر، والسرور الأعظم؛ فقال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨].

فيقول تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ﴾؛ الذي هو القرآن؛ الذي هو أعظم نعمة ومِنة وفضل تفضل الله به على عباده، ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾؛ الدين والإيمان وعبادة الله ومحبته ومعرفته.

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من متاع الدنيا ولذاتها؛ فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته؛ لأن ذٰلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما، وهٰذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل فإن هٰذا مذموم؛ كما قال تعالى عن قول قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

وَكَيْفَ قَرَّتْ لأهْلِ العِلْمِ أَعْيُنُهُم أو اسْتَلَذُّوا لَذِيذَ النَّوْمِ أَوْ هَجَعُوا
والمَوْتُ يُنْذِرُهُم جَهْراً عَلاَنِيَةً لَوْ كَانَ للقَوْمِ أَسْمَاعٌ لَقَدْ سَمِعُوا
وَالنَّارُ ضَاحِيَةٌ لاَ بُدَّ مَوْرِدُهُم وَلَيْسَ يَدْرُونَ مَن يَنْجُو وَمَنْ يَقَعُ
والآدَمِيُّ بِهٰذَا الكَسْبِ مُرْتَهَنٌ لَهُ رَقِيبٌ عَلَى الأسْرَارِ يَطَّلِعُ
حَتَّى يُوَافِيهِ يَومَ الجَمْعِ مُنْفَرِداً وَخَصْمُهُ الجِلْدُ والأبْصَارُ والسَّمَعُ
إذِ النَّبِيُّونَ والأشْهَادُ قَائِمَةٌ والإنْسُ والجِنُّ والأمْلاَكُ قَدْ خَشَعُوا
وطَارَتِ الصُّحُفُ فِي الأيْدِي مُنَشَّرَةً فِيهَا السَّرائِرُ والأخْبَارُ تُطَّلَعُ
يَوَدُّ قَومٌ ذَوو عِزٍّ لَو آنَّهُمُ هُمُ الخَنَازِيرُ كَيْ يَنْجُوا أَوِ الضُّبُعُ
كَيْفَ شُهُودُكَ والأنْبَاءُ وَاقِعَةٌ عَمَّا قَلِيلٍ وَلاَ تَدْرِي بِمَا يَقَعُ
أَفِي الجِنَانِ وَفَوْزٍ لاَ انْقِطَاعَ لَهُ أَم الجَحِيمِ فَمَا تُبْقِي وَلاَ تَدَعُ
تَهْوِي بِهَلْكَاتِها طوراً وَتَرْفَعُهُم إذَا رَجَوا مَخْرجاً مِنْ غَمِّها وَقَعُوا
طَالَ البُكَاءُ فَلَمْ يَنْفَعْ تَضَرُّعُهُم هَيْهَاتَ لاَ رِقَّةٌ تُغْنِي وَلاَ جَزَعُ
هَلْ يَنْفَعُ العِلْمُ قَبْلَ المَوْتِ عَالِمَهُ قَدْ سَالَ قَومٌ بِهَا الرُّجْعَى فَمَا رَجَعُوا

* * *

(حال الكفار والعصاة في النار)

والنار ـ أختي المسلمة ـ عذابها شديد وفيها من الأهوال وألوان العذاب ما يجعل الإنسان يبذل في سبيل الخلاص منها نفائس الأموال.

يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾ [آل عمران: ٩١].

فيقول تعالى: أن من كفر وأصر على كفره، ولم يزدد إلا كفراً حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدي، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولو بذلوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به، لم ينفعهم شيئاً فعياذاً بالله من الكفر وفروعه.

وشدة النار وهولها تفقد الإنسان صوابه وتجعله يجود بكل أحبابه لينجو من النار، وأنى له النجاة ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٨] فهذه لظى أعاذنا الله وإياكم منها ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ أي تنزع جلدة الرأس وما دون العظم من اللحم ﴿تَدْعُوا۟﴾ (أي النار) أبناءها الذين عملوا عملها واستحقوا دخول النار، فتدعوهم يوم القيامة بلسان طلق ﴿تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ أي كذب بقلبه، وترك العمل بجوارحه، ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي جمع المال بعضه على بعض فأوعاه ومنع حق الله منه.

وقال الله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾﴾ [الكهف: ١٠٠ ـ ١٠١].

فعرضت النار للكافرين لتكون مأواهم ومنزلهم ويتمتعوا بأغلالها وسعيرها وحميمها وزمهريرها وليذوقوا من العقاب ما تبكم له القلوب وتصم الآذان، وهذا جزاؤهم فإنهم كانوا في الدنيا معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم وفي أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة، وكانوا لا يستطيعون سمعاً، أي لا يقدرون على سمع آيات الله الموصلة إلى الإيمان لبغضهم القرآن والسنة، فكفروا بالله وجحدوا آياته وكذبوا رسله فاستحقوا جهنم وساءت مصيراً.

وقال تعالى أيضاً: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٤ ـ ٣٩].

فإذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده والصاحب عن صاحبه ويتذكر الإنسان ما سعى في هذه الدنيا من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ أي جعلت ظاهرة لكل أحد فقد هيئت لأهلها واستعدت لأخذهم منتظرة أمر الله جل وعلا ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ أي فمن جاوز الحد بأن تجرأ على المعاصي الكبار ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على الآخرة فصار سعيه لها ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة والعمل لها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي هي مقره ومسكنه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويقول تعالى أيضاً: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢١ ـ ٢٦].

ففي يوم القيامة يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف

ملك يجرونها، فيومئذ يتذكر الإنسان تفريطه في الدنيا في طاعة الله جل وعلا وفيما يقرب إليه من صالح الأعمال ولكن ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ فمن أي وجه سيتذكر، وعندها يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ فيندم على تفريطه في الصالحات من الأعمال في الدنيا التي تورثه النعيم المقيم الذي لا انقطاع له في الآخرة ولكن هيهات هيهات.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة: ١٢].

ففي يوم القيامة ترى أولئك المجرمين الذين أصروا على الذنوب العظيمة ناكسوا رؤوسهم أي: خاشعين خاضعين أذلاء مقرين بجرمهم سائلين الرجعة قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾، أي بان لنا الأمر ورأيناه بأعيننا ﴿فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ فصار عندنا الآن يقين بما كنا نكذب به فارجعنا يا رب إلى الدنيا لكي نعمل ما أمرتنا به من الأعمال الصالحة حتى ترضى عنا، ولكن يأتيه قول الله جل وعلا كما في سورة المؤمنون: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٨] فيتعذبون في النار، ويذوقون ألوان عذابها وآلامها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

ففي يوم القيامة يحضر كتاب الأعمال الذي فيه الجليل والحقير والصغير والكبير فترى المجرمين مشفقين مما في هذا الكتاب من أعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة، ويقولون يا حسرتنا ويا ويلتنا ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ فمال هذا الكتاب لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه محفوظة فلم يُنسَ منها عمل سرٌ ولا علانية، ولا ليل ولا نهار ثم قال جل وعلا: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ فهم لا يقدون على الإنكار ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وأيضاً فقد قال جل وعلا: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ

﴿مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

فيحشر الله جل وعلا المجرمين يوم القيامة على وجوههم عمياً لا يبصرون، وبكماً لا ينطقون، وصماً لا يسمعون، جزاء لهم كما كانوا في الدنيا بكماً وعمياً وصمّاً عن الحق والجزاء من جنس العمل، فمصيرهم ومأواهم ومنقلبهم جهنم، كلما سكن لهبها زدناهم سعيراً، أي زدنا لهباً ووهجاً وجمراً كما قال جل وعلا في سورة أخرى: ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٣٠].

ويقول تعالى أيضاً: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأحقاف: ٢٠].

فيذكر الله جل وعلا حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون فيقال لهم: أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها وألهتكم طيباتها عن السعي لآخرتكم، واستمتعتم بها كما تتمتع الأنعام ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ وهو الإهانة والحزن والآلام الموجعة، والحسرات المتتابعة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن اتباع الحق ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

ويقول الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩ و٤٠].

فـ ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ حالهم الشنيعة ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ إذ قد أحاط بهم من كل جانب وغشيهم من كل مكان ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصرهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ النار ﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ إذ هم أذل وأضعف، من ذلك.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا.

ويقول تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

أي تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاءهم الشريفة ويتقطع لهبها عن وجوههم ﴿وَهُمْ فِيهَا كَـٰلِحُونَ﴾ قد عبست وجوههم، وقلعت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه.

ويقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾﴾ [الأحزاب: ٦٦].

أي يسحبون في النار على وجوهم، وتلوى وجوههم على جهنم يقولون وهم كذلك يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّـٰلِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩].

ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٧، ٤٨].

فيقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي ﴿فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ﴾، أي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تستعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من غيرها، فيهانون بذلك، ويخزون، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾، أي: ذوقوا ألم النار وأسفها، وغيظها ولهبها.

ويقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ٦ ـ ١١].

فالذين كفروا بالله جل وعلا لهم نار جهنم وبئس المصير، فإذا ألقوا في تلك النار على وجه الإهانة والذل ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ أي صوتاً عالياً فظيعاً ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي تغلي بهم ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك أخي إذا دخلوا فيها ماذا ستفعل بهم، ثم ذكر جل وعلا توبيخ الخزنة لأهلها فقال سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ألم يحذركم الله من النار ألم ينذركم منها؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ فكذبوا بكل ما أنزل الله ولم يكفهم هذا حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين، ولم يكتفوا بمجرد الضلال بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً، فأي عناد وتكبر وظلم بعد هذا؟.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدي واعترفوا بعدم أهليتهم للهدي والرشاد، ثم قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ أي بعداً لهم وخسارة وشقاء فما أشقاهم وأرداهم حيث فاتهم ثواب الله فكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم إن النار تلفح وجوه الكافرين والعصاة وتغشاها أبداً فلا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩].

ويسود الله جل وعلا في الدار الآخرة وجوه أصحاب النار كما قال جل وعلا: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦] وهو سواد شديد عظيم كأنما

حلت ظلمة الليل في وجوههم ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس: ٢٧].

وأهل النار هم الذين أحاطت بهم ذنوبهم ومعاصيهم، ولما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم فإن الجزاء من جنس العمل، ولذا فإن النار تحيط بالكفار من كل جهة كما قال جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقال سبحانه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الإعراف: ٤١].

فيقول جل ثناؤه لهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴿مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ وهو ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع؛ كالفراش الذي يفرش، والبساط الذي يبسط، ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وهو جمع غاشية، وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم، وإنما معنى الكلام: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾؛ من تحتهم فُرُش، ومن فوقهم منها لُحف، وإنهم بين ذلك.

ويقول تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُوا۟ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم ١٥ ـ ١٧].

قال مجاهد: «(الصديد): هو القيح والدم».

وقال قتادة: «الصديد ما يسيل من دمه ولحمه وجلده».

وقوله تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ أي: يتغصصه ويَتكرّهُه؛ أي: يشربه قهراً وقسراً، لا يضعه في فمه حتى يضربه الملك بمطراق من حديد، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾؛ أي: يردده لسوء طعمه ولونه وريحه وحرارته أو برده الذي لا يستطاع.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى أن لا يموتوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ

﴿جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ [فاطر: ٣٦ و٣٧]، ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾؛ أي: الجبار العنيد، ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾؛ أي: قوي شديد، لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

وقال قتادة بعد ذكر هٰذه الآية: «هل لكم بهٰذا يدان، أم لكم على هٰذا صبر؟ طاعة الله أهون عليكم يا قوم؛ فأطيعوا الله ورسوله».

وقال الله تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنبياء: ٣٩ ـ ٤٠].

فلو يعلم الذين كفروا حالهم الشنيعة، حين لا يكفون عن وجوههم العذاب، ولا عن ظهورهم؛ إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيهم من كل مكان، ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ أي: لا ينصرهم غيرهم؛ فلا نصروا ولا انتصروا، ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ النار ﴿بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾؛ أي: ليس لهم حيلة في ذٰلك، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي: ولا يؤخر عنهم ذٰلك ساعة واحدة.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الزمر: ٢٤].

أي: هل يستوي هٰذا الذي هداه الله ووفقه لسلوك الطريق الموصلة لدار كرامته، ومن كان في ضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة؛ فجاءه العذاب العظيم، فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه؛ فهو يتقي فيه سوء العذاب؛ لأنه قد غُلَّت يداه ورجلاه، ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي توبيخاً وتقريعاً ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

ونار الجبار يا أمة الله تحرق جلود أهل النار والجلد هو موضع الإحساس بألم الإحراق، ولذلك فإن الله يبدل لهم جلوداً أخرى غير تلك التي أحرقت لتحترق من جديد والعياذ بالله كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ

﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء: ٥٦].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾ أي عظيمة الوقود، شديدة الحرارة.

﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم﴾ أي احترقت ﴿بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي ليبلغ العذاب منهم كل مبلغ. ولما تكرر منهم الكفر والعناد، وصار وصفاً لهم وسجية، كرر عليهم العذاب جزاءاً وفاقاً، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي له العزة العظيمة، والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

فتخيلي يا أمة الله! شدة العذاب في جهنم وفظاعته، وكرري ذٰلك على قلبك، عسى أن تجود نفسك بالندم على المعصية قبل الموت، فتعتقي من النار، وتسلمي من سخط الجبار، عياذاً بالله منه.

واعلمي يا أختي المسلمة أن ما في النار من العذاب فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال؛ فإنه مثوى الحسرة والندم، ومحل الهموم والغموم، ودار الهلاك والخسران، نسأل الله تعالى ذا الرحمة الواسعة أن يصرفها عنا بِمَنّه وكرمه.

فيا أمة الله:

استعدي للموت يا نفس واسعي ... لنجاة فالحازم المستعد
قد تبينت أنه ليس للحيـ ... ـي خلود ولا من الموت بد
أي ملك في الأرض أو أي حظ ... لامرىء حظه من الأرض لحد
كيف يهوى امرؤ لذاذة أيام ... عليه الأنفاس فيها تعد

* * *

فيا ساهياً في غمرة الجهل والهوى ... صريع الأماني عن قريب ستندم
أفق قد دنا الوقت الذي ليس بعده ... سوى جنة أو حر نار تضرم
وخذ من تقى الرحمن أعظم جنة ... ليوم به تبدو عياناً جهنم
وينصب ذاك الجسر من فوق متنها ... فهاوٍ ومخدوش وناج مسلم
ويأخذ للمظلوم ربك حقه ... فيا بؤس عبدٍ للخلائق يظلم

فلا مجرم يخشى ظلامة ذرة ... ولا محسن من أجره ذاك يهضم
وتشهد أعضاء المسيء بما جنى ... كذاك على فيه المهيمن يختم
فيا ليت شعري كيف حالك عندما ... تطاير كتب العالمين وتقسم
أتأخذ باليمنى كتابك أم تكن ... بالأخرى وراء الظهر منك تسلم
وتقرأ فيه كل شيء عملته ... فيشرق منك الوجه أو هو يظلم
تقول كتابي فاقرؤوه فإنه ... يبشر بالفوز العظيم ويعلم
فإن تكن الأخرى فإنك قائل ... ألا ليتني لم أوته فهو مغرم
فبادر إذن ما دام في العمر فسحة ... وعدلك مقبول وصرفك قيم
وجد وسارع واغتنم زمن الصبا ... ففي زمن الإمكان تسعى وتغنم
وسر مسرعاً فالسيل خلفك مسرع ... وهيهات ما منه مفر ومهزم
فهن المنايا أي وادٍ نزلته ... عليها القدوم أو عليك ستقدم

وفي يوم القيامة يتحسر أهل النار ويندمون على ما فرطوا وأضاعوا من حق الله تعالى عليهم كما قال الله تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: ٣١].

فقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾، هٰذا الخسران هو فوت الثواب العظيم في دار النعيم المقيم، وحصول العذاب الأليم في دركات الجحيم.

﴿حَتَّىٰٓ﴾؛ غاية للتكذيب لا للخسران؛ فإنه لا غاية له ﴿إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامة، وسميت ساعة لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تفجأ الناس ﴿بَغْتَةً﴾؛ أي: فجأة في ساعة لا يعلمها أحد إلا الله، يقال: بَغَتَهُم الأمر يَبْغَتُهم بغتاً وبغتةً، قال سيبويه: وهي مصدر، ولا يجوز أن يقال عليه؛ فلا يقال: جاء فلان سرعةً.

و(البَغت) و(البَغْتَة): مفاجأة الشيء بسرعة من غير اعتداد له، ولا جعل بال منه، حتى لو استشعر الإنسان به، ثم جاء بسرعة لا يقال فيه بغتة.

﴿قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا﴾ أوقعوا النداء على الحسرة، وليست بمنادى في الحقيقة؛ ليدل ذٰلك على كثرة تحسرهم، والمعنى: يا حسرتنا احضري، فهٰذا أوانك، وكذا

قال سيبويه في هٰذا النداء وأمثاله، كقولهم: يا للعجب ويا للرجال.

وقيل: هو تنبيه للناس على عظم ما يحل بهم من الحسرة؛ كأنهم قالوا: يا أيها الناس! تنبهوا على ما نزل بنا من الحسرة، و(الحسرة): الندم الشديد، والتلهف والتحسر على الشيء الفائت.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾؛ أي: على تفريطنا في الساعة؛ أي: في الاعتداد لها، والاحتفال بشأنها، والتصديق بها، ومعنى فرطنا: ضيعنا.

وقيل: (التفريط): التقصير في الشيء مع القدرة على فعله .

وتمتلىء الحسرة في صدورهم والندم في قلوبهم عند معاينة الحساب ونصب الموازين كما قال الله تعالى:

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

ففي يوم القيامة تحضر كتب الأعمال التي كتبتها الملائكة الأبرار؛ فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا رأوها مسطرة عليها أعمالهم، مُحصىً عليهم أقوالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾؛ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة إلا وهي مكتوبة فيه محفوظة؛ لم يُنْسَ منها عملُ سرٍّ ولا علانيةٍ، ولا ليلٍ ولا نهارٍ، ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾، لا يقدرون على إنكاره، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠].

فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ الآية، يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر؛ كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ

﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾ [القيامة: ١٣]، فما رأى من أعماله حسناً؛ سره ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح؛ ساءه وغصه، ووَدَّ لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد؛ كما يقول لشيطانه الذي كان مقروناً به في الدنيا، وهو الذي جرَّأه على فعل السوء ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ [الزخرف: ٣٨]، ثم قال تعالى مؤكداً ومهدداً ومتوعداً: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، أي: ويحذركم الله نفسه أن تُسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم؛ فتوافونه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، وهو عليكم ساخط؛ فينالكم من أليم عقابه ما لا قبل لكم به، ثم أخبر عز وجل أنه رؤوف بعباده رحيم بهم، ومن رأفته بهم تحذيره إياهم نفسه وتخويفهم عقوبته، ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معاصيه.

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧ و٨].

وهٰذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر الأشياء، وجوزي عليها، فما فوق ذٰلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾.

وهٰذا، فيه الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

وقال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ٤٠].

فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾؛ يعني: يوم القيامة؛ لتأكد وقوعه صار قريباً؛ لأن كل ما هو آتٍ آت، ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يعرض عليه جميع أعماله؛ خيرها وشرها، قديمها وحديثها؛ كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾، وكقوله تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾؛ أي: يود الكافر يومئذ أنه كان في الدار الدنيا تراباً، ولم يكن خلق، ولا خرج إلى الوجود، وذٰلك حين عاين عذاب الله، ونظر إلى أعماله الفاسدة قد سطرت عليه بأيدي الملائكة السفرة الكرام البررة.

وقيل: إنما يود ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا، فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور، حتى إنه ليقتص للشاة الجماء من القرناء، فإذا فرغ من الحكم بينها؛ قال لها: كوني تراباً؛ فتصير تراباً، فعند ذٰلك يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾؛ أي: كنت حيواناً فأرجع إلى التراب.

وقال الله جل شناؤه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩].

فهٰؤلاء هم أهل الشقاء، يعطونَ كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة بشمالهم؛ تمييزاً لهم، وخزياً وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من الهم والغم والحزن: ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾؛ لأنه يبشر بدخول النار والخسارة الأبدية، ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: ليتني كنت نسياً منسياً ولم أبعث وأحاسب، ولهٰذا قال: ﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بعث بعدها، ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه، لم يُقَدِّمْ منه لآخرته، ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئاً؛ فيقول: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: ما نفعني في الدنيا؛ لأني لم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه، ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾؛ أي: ذهب واضمحل؛ فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العَدَدُ ولا العُدَدُ ولا الجاه العريض، بل ذهب ذٰلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح.

قال أحد العلماء رحمه الله واعظاً أصحابه:

يا أيها الغافل عن نفسه، المغرور بما هو فيه من شواغل هذا الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال، دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه، واصرف الفكر إلى موردك، فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ

﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك. فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعد للنجاة منه. وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها. إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأطلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً وجرجرة الأمم على الركب، حتى أشفق البراء من سوء المنقلب، وخرج المنادي من الزبانية قائلاً: أين فلان ابن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل. المضيع عمره في سوء العمل، فيبادرونه بمقامع من حديد، ويستقبلونه بعظائم التهديد، ويسوقونه إلى العذاب الشديد، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩].

فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء، مظلمة المسالك، مبهمة المهالك، يخلد فيها الأسير، ويوقد فيها السعير، شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم، الزبانية تقمعهم، والهاوية تجمعهم. أمانيهم فيها الهلاك، وما لهم منها فكاك، قد شدت أقدامهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها، ويصيحون في نواحيها وأطرافها، يا مالك قد حق علينا الوعيد، يا مالك قد نضجت منا الجلود، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود، فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسأوا فيها ولا تكلمون، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون، فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون، ولا ينجيهم الندم، ولا يغنيهم الأسف، بل يكبون على وجوههم مغلولين، النار من فوقهم، والنار من تحتهم، والنار عن أيمانهم، والنار عن شمائلهم، فهم غرقى في النار، طعامهم نار، وشرابهم نار، ولباسهم نار، ومهادهم نار، فهم بين مقطعات النيران، وسرابيل القطران، وضرب المقامع، وثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضايقها، ويتحطمون في دركاتها، ويضربون بين غواشيها، تغلي بهم النار كغلي القدور، ويهتفون بالويل والعويل، ومهما دعوا بالثبور، صب من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تهشم بها جباههم، فينفجر الصديد من أفواههم، وتنقطع من

العطش أكبادهم وتسيل على الخدود أحداقهم، ويسقط من الوجنات لحومها، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون.

أعـوذُ بِـرَبِّـي مِـن لَـظَـى وعـذابِـهـا ... ومِنْ حالِ من يَهْوَى بِها يَتَجَلْجَلُ
وَمِنْ حَالِ من في زَمْهَرِيرِ مُعَذَّبِ ... ومن كانَ في الأغلالِ فيها مُكَبَّلُ
وجناتُ عَدْنٍ زُخْرِفَتْ ثُمَّ أُزْلِفَتْ ... لقوم على التَّقْوَىٰ دواماً تَبَتَّلُ
بها كُلُّ ما تَهْوَىٰ النفوسُ وَتَشْتَهِي ... وقُرَّةُ عَيْنٍ لَيْسَ عَنْهَا تَرَحُّلُ
ملابِسُهُم فيها حريرٌ وسُنْدُسٌ ... وإسْتَبْرَقٌ لاَ يَعْتَرِيهِ التَّحَلُّلُ
وَمَأْكولُهُمْ مِنْ كُلِّ ما يَشْتَهُونَهُ ... وَمِنْ سَلْسَبِيلٍ شُرْبُهُمْ يَتَسَلْسَلُ
وأزواجُهُمْ صُوَرٌ حِسانٌ كَواعِبُ ... على مِثْلِ شَكْلِ الشَّمْسِ بل هُوَ أشْكَلُ
يُطاف عَلَيْهِمْ بالذي يَشْتَهونَهُ ... إذا أَكَلُوا نَوْعاً بِآخَرَ بُدِّلُوا
فَواكِهُهَا تَدْنُو إلى مَنْ يُرِيدُها ... وسُكَّانُهَا مَهْمَا تَمَنُّوهُ يَحْصُلُ
وأنْهَارُهَا الألْبَانُ تَجْرِي وأعْسُلٌ ... تَنَاوُلُها عِنْدَ الإرادةِ يَسْهُلُ
بِهَا كُلُّ أنْوَاعِ الفواكِهِ كُلُّها ... وَخَمْرٌ وماءٌ سَلْسَبِيلٌ مُعَسَّلُ
يقالُ لهم طِبْتُمْ سَلِمْتُمْ من الأذَى ... سَلامٌ عَلَيْكُمْ بالسَّلاَمَةِ فادْخُلُوا
بأسْبَابِ تَقْوَى اللَّهِ والعملِ الذي ... يُحِبُّ إلى جَناتِ عَدْنٍ تَوَصَّلُوا
إذا كانَ هذا والذي قَبْلَهُ الجَزاء ... فَحَقٌّ على العَيْنَيْنِ بالدَّمْعِ تُهْمِلُ
وحَقٌّ على من كانَ باللَّهِ مُؤْمِناً ... يُقَدِّمُ لَهُ خيراً وَلاَ يَتَعَلَّلُ
وأن يَأْخُذُ الإنسانُ زاداً من التُّقَىٰ ... ولا يَسْأَمِ التَّقْوَى ولا يَتَمَلْمَلُ
وإنَّ أمامَ الناسِ حَشْرٌ وَمَوْقِفٌ ... ويومٌ طويلٌ ألفُ عامٍ وأطْوَلُ
فيا لَكَ من يوم على كُلِّ مُبْطِلٍ ... فَظِيعٍ وأهوالُ القيامةِ تُعْضِلُ
بِهِ مِلَّةُ الإسلامِ تُقْبَلُ وَحْدَهَا ... ولا غَيْرَهَا من أي دينٍ فَيَبْطُلُ
ومن قَبْلِ ذاكَ الموتُ تُقْبَلُ وَحْدَها ... ولا غَيْرَهَا من أي دينٍ فيَبْطُلُ
ومن قَبْلِ ذاكَ الموتُ يأتيكَ بَغْتَةً ... وهيهاتَ لا تَدْرِي متى الموتُ يَنْزِلُ
كؤوسُ المَنايَا سَوْفَ يَشْرَبُهَا الوَرَى ... على الرَّغْمِ شُبَّانٌ وشيبٌ وأكْهَلُ
إذا أنْتَ لم تَرْحَلْ بزادٍ من التُّقَىٰ ... ابنِ لي أبِنْ يَوْمَ الجزا كَيْفَ تَفْعَلُ
أتَرْضَى بأنْ تأتِي القِيَامَةَ مُفْلِساً ... على ظَهْرِكَ الأوزارُ بالحَشْرِ تَحمِلُ

إلٰهي لَكَ الفَضلُ الذي عَمَّمَ الوَرَى وجودٌ على كُلِّ الخَلِيقَةِ مُسْبَلُ
وغيرُكَ لو يَمْلِكُ خَزَائِنَكَ الَّتي تَزِيدُ مع الإنفاقِ لا بُدَّ يَبْخَلُ
وإنّي بِكَ اللَّهُمَّ رَبّي لواثِقٌ ومالي ببابٍ غيرَ بابِكَ مَدْخَلُ
وإنّي لَكَ اللَّهُمَّ بالدينِ مُخْلِصاً وهَمّي وحاجاتي بِجودِكَ أُنزِلُ
أعوذُ بِكَ اللَّهُمَّ من سوءِ صُنْعِنا وأسألُكَ التثبيتَ أُخْرَى وأوَّلُ
إلٰهي فَثَبِّتْني على دينِكَ الذي رَضِيتَ به ديناً وإياهُ تَقْبَلُ
وَهَبْ لي مِنَ الفِرْدَوْسِ قصراً مُشَيَّداً ومُنَّ بِخَيْرَاتٍ بِها أَتَعَجَّلُ
ولِلَّهِ حَمْدٌ دائِمٌ بدوامِهِ وَأَرْجَحُ من وَزْنِ الجميعِ وأَثْقَلُ
وإنّي بِحَمْدِ اللَّهِ في الحمدِ أبْتَدِي وأُنْهِي بِحَمْدِ اللَّهِ قَوْلي وأبْتَدِي
صلاةً وتَسْليماً وأزْكَى تحيةً تَعُمُّ جميعَ المُرْسَلِينَ وتَشْمَلُ
وأزكَى صلاةُ اللَّهِ ثم سلامُهُ على المُصْطَفَىٰ أزكَى البرِيَّةِ تَنْزِلُ

فيا أمة الله تفكري في النار وما يلاقيه أهلها من الآلام والعذاب وتصوري لو كنت من أهلها كيف سيكون حالك عندها؟

تفكري في ذلك قبل فوات الأوان، وذهاب فرصة الإمكان.

تفكري في ذلك بقلب حاضر غير غائب، وعقل فارغ غير لاه، ومخافة على نفسك من عقاب الله تعالى، وشفقة على بدنك من أليم عذابه.

واعلمي ـ أختاه ـ أنك إذا أردت النجاة من النيران ودخول الجنان، لا بد لك من المسارعة والمسابقة والمبادرة إلى الأعمال الصالحة التي تقربك من مولاك، لا بد لك من عمل كل ما يرضي الله تعالى من أعمال البر والخيرات، لا بد لك من أن تسلكي طريق الأنبياء والصالحين وتسألي الله الثبات على ذلك.

فطريقهم هو طريق النجاة والفوز والفلاح والسعادة. . . فيا من تريدين النجاة والفوز والسعادة، اعملي وجدّي وثابري واثبتي عسى أن تنالي رحمة الله تعالى، فتفوزي بالجنان وتكوني ممن نجي من النيران، إن يسر الله الكريم المنان.

* * *

يا من تريدين النجاة

الحمد لله رب العالمين، وأصلي وأسلم على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

إلى كل مؤمنة بالله واليوم الآخر، إلى كل من تعلم أن الله يراها ويسمعها ويعلم سرها وعلانيتها، إلى كل من ترجو الثواب وتخاف العقاب، إلى من تحب سعادة نفسها ونجاتها.

أدعوكِ ونفسي إلى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، وإلى قراءة القرآن الكريم وتدبره والعمل به، وإلى العمل بسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، لتفوزي بالسعادة الأبدية وتسلمي من الشقاء، والعذاب الشديد.

لو كنت مريضة وأتيت طبيبة ونصحتك بترك ألذ الشهوات، وخوفتك على تناولها الموت!! أو زيادة المرض!! لامتنعتي عنها وأنفتي منها، محافظة على صحتك وحياتك، أكانت الطبيبة عندك أصدق من الله تعالى؟؟ أم كان المرض أشد عليك من النار؟ ألست تتقي برد الشتاء وحر الصيف؟ فنار جهنم أشد حرّاً وأبقى عذاباً ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاً لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، ومن دخلها لا يموت فيها ولا يحيى، ولا يفتر عنه العذاب ساعة ولا يرجو فرجاً ولا مخرجاً، خالدين فيها أبداً.. فهل آمنت بالله حق الإيمان فرجوت ثوابه، وخفت عقابه وعملت أعمالاً صالحة لتنالي النجاة؟ أم فيك صبر وجلد على النار؟ أم أنت ممن يكذب بيوم الدين؟ فاتقي الله ـ يا أمة الله ـ وأنقذي نفسك من النار بفعل الواجبات وترك المحرمات.

أنقذي نفسك من النار بإخلاص العبادة لله. . .

أنقذي نفسك من النار بالمحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها، فقد علمت أن أمر الصلاة عظيم وشأنها جسيم، وعرفت فضل المحافظة عليها وعقوبة المتهاون بها، فهي أول ما فرض الله على عباده من العبادات العملية، وهي أول ما يسأل عنه العبد من عمله يوم القيامة، فإن صلحت فقد أفلح ونجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر.

فاحذري أن تتركي الصلاة متعمدة فتكوني من أهل الخسارة، فهي عماد الدين الفارقة بين الإسلام والكفر، وقد علمت أن الله فرض خمس صلوات في كل يوم وليلة، وعلى كل مسلم بالغ عاقل غير المرأة الحائض والنفساء ـ فرضها على كل حال: في الصحة والمرض، والإقامة والسفر، والأمن والخوف على قدر الاستطاعة، وجعلها مكفرة للذنوب والآثام وناهية عن الفحشاء والمنكر ـ لمن حافظ عليها وأعطاها حقها ـ وجعل الله المحافظة عليها من أسباب دخول الجنة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المعارج: ٣٤ ـ ٣٥].

وتركها من أسباب دخول النار كما قال تعالى عن المجرمين أنهم إذا سئلوا ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٣]، وفي الحديث **«من ترك الصلاة متعمداً فقد برئت منه ذمة الله»**، والتوبة معروضة بعد فمن تاب، تاب الله عليه، وغفر له، ورحمه، وأبدله بسيئاته حسنات.

أختي المسلمة: أنقذي نفسك من النار بأداء زكاة مالك، طيبة بها نفسك، قبل أن يكون عذاباً عليك، وقبل أن يكون مالك ثعباناً يطوقك في قبرك، ويوم حشرك، وقبل أن يحمى على هذه الأموال في نار جهنم فيكوى بها جنبك وجبينك وظهرك كما أخبر بذلك الصادق المصدوق في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم.

أنقذي نفسك من النار بالمحافظة على صيام رمضان، واحذري أن تفطري يوماً من رمضان من غير عذر فإنه كبيرة من كبائر الذنوب. .

اعملي كل هذا من قبل أن تسألي الرجعة عند الموت لكي تصلي وتصومي

وتزكي وتعملي صالحاً فلا يجاب سؤالك ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَآ﴾ [المنافقون: ١١].

احذري أن تؤخري حج الفريضة ـ مع القدرة ـ فتموتين عاصية قبل أن تحجي.

أنقذي نفسك من النار ببر الوالدين وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران، وعدم أذيتهم، واحذري ظلم الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فإن ذلك من أشد المحرمات..

واحذري أن تأكلي ما حرم الله أو تتناوليه على أي وجه كان، فأي لحم نبت من سحت فالنار أولى به.

احذري أن تحلي ما حرم الله، وقد أوجب الله عليك طاعته وحرم عليك مخالفته، واحذري أن تخالفي سنة نبيك ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقول أو فعل، وكما أوجب الله عز وجل الطاعة لنفسه فقد أوجب الطاعة لنبيه ﷺ ولك فيه أسوة حسنة.

احذري المعاملة بالربا فإنها محاربة لله ومن حارب الله فهو مهزوم...

احذري الاستهزاء بشيء فيه ذكر الله أو القرآن، أو الرسول فإنه كفر...

احذري أن تؤخري التوبة فتموتي فجأة قبل أن تتوبي نادمة متحسرة...

واعلمي يا أمة الله أن حياتك محدودة، وأنفاسك معدودة، فلا تضيعيها بغير عمل، ولا تفرطي بساعات عمرك الذاهب بغير عرض، واغتنمي شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل مرضك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، ولا تغتري بما أعطاك ربك من مال وولد وصحة وعافية، واستعيني بها على طاعته فإنك سوف تفارقيها أو تفارقك عن قريب.

قال الشاعر:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وقال آخر:

ولن يصحب الإنسان من بعد موته إلى قبره إلا الذي كان يعمل
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله يقيم قليلاً عندهم ثم يرحل

وليس أحد يموت إلا ندم: إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد إحساناً، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون تاب.

وإذا متِّ فدفنت في قبرك فسوف تجدينه روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار ـ أعاذك الله منها ـ فإن كان عملك صالحاً لم تستأنسي إلا به، وإن كان فاسداً لم تستوحشي إلا منه.

وإذا بعثت من قبرك للحساب والجزاء فسوف تبعثين فريدة حافية عارية ليس معك سوى عملك يقودك إلى الجنة، أو إلى النار، أعاذك الله منها.

فتوبي إلى ربك مادمت في زمن الإمكان، واستعدي للقدوم على ربك بصالح الأعمال.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: ٢٨١].

وتأملي أختي المسلمة في هذه الموعظة البليغة لأحد العلماء رحمهم الله حيث قال واعظاً المسلمين:

عباد الله انتبهوا من رقدتكم واستدركوا بقية أعماركم واحذروا الإنهماك في دار الغرور فالويل كل الويل لكم إن أدرككم الموت وأنتم على هذه الحالة، زينتم الفلل والقصور ونسيتم القبور، اذكروا القبر وظلمته ووحشته، والموت وسكرته، والميزان وخفته أو رجحته، والكتاب وأخذته، والصراط ودقته، والموت، سكرة

في سكرة، وحيرة في حيرة، وجذبة يا لها من جذبة، وكربة يا لها من كربة، فالمسكين يكابد غصص المنون، داهش العقل كالمحزون.

فالله الله عباد الله أفيقوا من سكراتكم، وانتبهوا من نوماتكم، واستيقظوا من غفلاتكم، قبل مفاجأة المنية، وحلول الرزية، ووقوع البلية، حيث لا مال ولا ولد نافع، ولا حميم شافع، ولا فرح واقع، ولا رجاء طامع، ولا حسنة تزاد، ولا سيئة تحذف، ولا حياة تعاد، ويزودك أحبابك بالحزن عليك والبكاء فلا عثرة تقال، ولا رجعة تنال.

ألا إن أيام الحياة مراحل ... طريق الفتى منها إلى الموت ساحل
يسر بما يمضي لما هو آمل ... ويأتي الردى من دون ما هو آمل
وما يومه إلا غريم محكم ... إذا ما اقتضاه نفسه لا يماطل
عجبت لمن يبغي السلامة جاهداً ... ومر الليالي كلهن غوائل
ونحن بنو الأيام نظلم نفوسنا ... ونرجع وهي القاتلات الشواكل

عباد الله: اقتربت الساعة وقرب التحول والمسير، وأزفت الآزفة وليس هناك حميم ولا نصير وكتبت الصحيفة فلا نسيان لقليل ولا كثير ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾ [النمل: ٧٥].

تالله لقد غرت الأماني أكثر خلق الله، فتركوا سبيل الهدى، وأعرضوا عن دار التهاني، والقرار، فوقعوا في شرك الردى، وتمادوا على التواني، وظنوا أن يتركوا سدى ونسوا قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: ٣] وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦].

عباد الله: كيف حالكم إذا قمتم من القبور حيارى حفاة عراة غرلاً، وقد عظمت الأهوال ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢] ولزمت الصحف الأعناق ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

كيف أنتم إذا سمعتم قول الجبار: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝٢٨﴾ [قٓ: ٢٨] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [قٓ: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠﴾ [يسٓ: ٦٠].

فعند ذلك يؤخذ المجرمون بالنواصي والأقدام، ويطرح في الجحيم من كان له على المعاصي جراءة وإقدام، ويمرح بالنعيم من قدم الخيرات لدار السلام، وعمل بالباقيات الصالحات ويحظى بجنة عرضها كعرض السماء والأرض.

فاتقوا الله عباد الله واسلكوا طريق الشرع القويم الذي لا اعوجاج فيه وقوموا بأوامر المنان ولا تتبعوا خطوات الشيطان.

واحذروا أن تكونوا ممن غرتهم الحياة الدنيا بزخارفها الزائلة، وزينتها العاطلة، وأولئك هم الذين تنقص الأيام والليالي آجالهم وهم لاهون، وتجري بهم الأعوام إلى مراقد قبورهم وهم نائمون، وتتخطفهم المنايا وهم لاعبون، وتناديهم العبر والمواعظ وهم لا يسمعون ولا يبصرون، ويرون ما وقع بالأمم من قبلهم، وما نزل بآبائهم ولكن لا يفقهون، والله سبحانه وتعالى أعلم بمآلهم وما إليه صائرون، إذا هم وصلوا إلى الغاية المفهومة من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦﴾ [الإنشقاق: ٦].

يا غافلا عما خلقت له انتبه — جد الرحيل ولست باليقظان
سار الرفاق وخلفوك مع الأولى — قنعوا بذا الحظ الخسيس الفان
ورأيت أكثر من ترى متخلفاً — فتبعتهم ورضيت بالحرمان
لكن أتيت بخطتي عجزٍ وجهـ — ـلٍ بعد ذا وصحبت كل أمان
منتك نفسك باللحاق مع القعو — دِ عن المسير وراحة الأبدان
ولسوف تعلم حين ينكشف الغطا — ماذا صنعت وكنت ذا إمكان

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم، العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه، القريب أوانه، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت، والكواكب قد انتثرت، والبحار قد سجرت، والنجوم قد انكدرت، والشمس قد كورت، والجبال قد سيرت، والعشار

قد عطلت، والوحوش قد حشرت، والنفوس قد زوجت، والجحيم قد سعرت، والجنة قد أزلفت، والجبال قد نسفت، والأرض قد مدت.

يوم ترى الأرض فيه قد زلزلت زلزالها، يوم فيه تخرج الأرض أثقالها، وتحدث أخبارها يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٥ ـ ١٨].

يوم فيه تسير الجبال وترى الأرض بارزة، يوم ترج فيه الأرض رجّاً، وتبس فيه الجبال بسّاً، فكانت هباء منبثا، يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث، وتكون الجبال كالعهن المنفوش.

يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار.

يوم تنسف الجبال فيه نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان، فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان، يوم فيه يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت، يوم تنطق فيه الجوارح.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في ذكر بعض أهوال يوم القيامة:

وتحدث الأرض التي كنا بها ... أخبارها في الحشر للرحمن
وتظل تشهد وهي عدل بالذي ... من فوقها قد أحدث الثقلان
وتمد أيضاً مثل مد أديمنا ... من غير أودية ولا كثبان
وتقيء يوم العرض من أكبادها ... كالأصطوان نفائس الأثمان

كـل يـراه بـعـيـنـه وعـيـانـه ... مـا لامـرىءٍ بـالأخـذ مـنـه يـدان
وكـذا الـجـبـال تـفـت فـتـاً مـحـكـمـاً ... فـتـعـود مـثـل الـرمـل ذي الـكـثـبـان
وتـكـون كـالـعـهـن الـذي ألـوانـه ... وصـبـاغـه مـن سـائـر الألـوان
وتـبـس بـسّـاً مـثـل ذاك فـتـنـثـنـي ... مـثـل الـهـبـاء لـنـاظـر الإنـسـان
وكـذا الـبـحـار فـإنـهـا مـسـجـورة ... قـد فـجـرت تـفـجـيـر ذي الـسـلـطـان
وكـذلـك الـقـمـران يـأذن ربـنـا ... لـهـمـا فـيـجـتـمـعـان يـلـتـقـيـان
هـذي مـكـورة وهـذا خـاسـف ... كـلاهـمـا فـي الـنـار مـطـروحـان
وكـواكـب الأفـلاك تـنـثـر كـلـهـا ... كـلآلـىءٍ نـثـرت عـلـى مـيـدان
وكـذا الـسـمـاء تـشـق شـقّـاً ظـاهـراً ... وتـمـور أيـضـاً أيـمـا مـوران
وتـصـيـر بـعـد الانـشـقـاق كـمـثـل ... هـذا الـمـهـل أو تـك وردة كـدهـان

وقال القحطاني رحمه الله:

يـوم الـقـيـامـة لـو عـلـمـت بـهـولـه ... لـفـررت مـن أهـل ومـن أوطـان
يـوم تـشـقـقـت الـسـمـاء لـهـولـه ... وتـشـيـب مـنـه مـفـارق الـولـدان
يـوم عـبـوس قـمـطـريـر شـره ... في الـخـلـق مـنـتـشـر عـظـيـم الـشـأن
يـوم يـجـيء الـمـتـقـون لـربـهـم ... وفـداً عـلـى نـجـب مـن الـعـقـيـان
ويـجـيء فـيـه الـمـجـرمـون إلـى لـظـى ... يـتـلـمـظـون تـلـمـظ الـعـطـشـان

فيا أيها المهملون الغافلون تيقظوا فإليكم يوجه الخطاب...

ويا أيها النائمون انتبهوا قبل أن تناخ للرحيل الركاب، قبل هجوم هادم اللذات ومفرق الجماعات، ومذل الرقاب، ومشتت الأحباب، فيا له من زائر لا يعوقه عائق ولا يضرب دونه حجاب، ويا له من نازل لا يستأذن على الملوك، ولا يلج من الأبواب، ولا يرحم صغيراً ولا يوقر كبيراً، ولا يخاف عظيماً، ولا يهاب، ألا وإن بعده ما هو أعظم منه من السؤال والجواب، ووراءه هول البعث والحشر، وأحواله الصعاب، من طول المقام والإزدحام في الأجسام والميزان والصراط والحساب والجنة أو النار ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

عباد الله: إنكم الآن في دار هي محل العبر والآفات، وأنتم على سفرٍ والطريق كثيرة المخافات، فتزودوا من دنياكم قبل الممات، وتداركوا هفواتكم قبل

الفوات، وحاسبوا أنفسكم وراقبوا الله في الخلوات، وتفكروا فيما أراكم من الآيات، وبادروا بالأعمال الصالحات، واستكثروا في أعماركم القصيرة من الحسنات، قبل أن ينادي بكم مناد الشتات، قبل أن يفاجئكم هادم اللذات، قبل أن يتصاعد منكم الأنين والزفرات، قبل أن تنقطع قلوبكم عند فراقكم الحسرات، قبل أن يغشاكم من غم الموت الغمرات، قبل أن تزعجوا من هذه الحياة، قبل أن تتمنوا رجوعكم إلى الدنيا وهيهات.

ما دار دنيا للمقيم بدار	وبها النفوس فريسة الأقدار
ما بين ليل عاكف ونهاره	نفسان مرتشفان للأعمار
طول الحياة إذا مضى كقصيرها	واليسر للإنسان كالإعسار
والعيش يعقب بالمرارة حلوه	والصفو فيه مخلف الأكدار
وكأنما تقضي بنيّات الردى	لفنائنا وطراً من الأوطار
والمرء كالطيف المطيف وعمره	كالنوم بين الفجر والأسحار
خطب تضاءلت الخطوب لهوله	أخطاره تعلو على الأخطار
نلقى الصوارم والرماح لهوله	ونلوذ من حرب إلى استشعار
إن الذين بنوا مشيدا وانثنوا	يسعون سعي الفاتك الجبار
سلبوا النضارة والنعيم فاصبحوا	متوسدين وسائد الأحجار
تركوا ديارهم على أعداهم	وتوسدوا مدراً بغير دثار
خلط الحمام قويهم بضعيفهم	وغنيهم ساوى بذي الأقتار
والخوف يعجلنا على آثارهم	لا بد من صبح المجد الساري
وتعاقب الملوين فينا ناثر	بأكر ما نظما من الأعمار

قال بعض العلماء:

إعلم أن الدنيا عبارة عن كل ما يشغل عن الله قبل الموت، فكل ما لك فيه حظ وغرض ونصيب وشهوة ولذة في عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا.

وليس كل ذلك مذموم بل المذموم المنهي عن محبته هو كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة.

وإذا سمعت بذم الدنيا فاعلم أنه ليس راجعاً إلى زمانها الذي هو الليل والنهار المتعاقبان إلى قيام الساعة. فإن الله سبحانه وتعالى جعلهما خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً.

وليس الذم راجعاً إلى مكان الدنيا وهو الأرض ولا إلى ما أنبته الله فيها من الشجر والزرع. فإن ذلك كله من نعم الله على عباده لما لهم فيه من المنافع والمصالح والاعتبار والاستدلال بذلك على وحدانية الله وقدرته وعظمته وحكمته ورحمته بعباده. قال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الذاريات: ٢٠].

وإنما المذموم أفعال بني آدم من المعاصي والكبائر والصغائر كالشرك وترك الصلاة وترك الزكاة أو الصوم أو الحج وكالكذب على الله أو على رسله أو كراهة ما أنزل الله أو قتل نفس بغير حق أو ظلم أو شهادة زور وكذا الكبر والحسد ونحو ذلك.

من يذم الدنيا فإني	بطريق الإنصاف أثني عليها
وعظتنا بكل شيء لوانا	حين جادت بالوعظ من مصطفيها
نصحتنا فلم نر النصح نصحاً	حين أبدت لأهلها ما لديها
أعلمتنا أن المآل يقيناً	للبلى حين جددت عصريها
كم رأينا مصرع الأهل والـ	أحباب لو نستفيق بين يديها
ولكم مهجة بزهرتها اغـ	ترت فأدمت ندامة كفيها
أتراها أبقت على سبإ من	قبلنا حين بدلت جنتيها
يوم بؤسٍ لها ويوم رخاءٍ	فتزود ما شئت من يوميها
وتيقن زوال ذاك وهذا	تسل عن ما تراه من حادثيها
دار زاد لمن تزود منها	وغرور لمن يميل إليها
مهبط الوحي والمصلى التي كم	غفرت صورة بها خديها
متجر الأولياء قد ربحوا الـ	جنة فيها وأوردوا عينيها
رغبت ثم رهبت ليرى كـ	ل لبيب عقباه من حالتيها

فـإذا أنـصـفـت تـعـيـن أن يـثـ ـنـي عـلـيـهـا الـبـار مـن ولـديـهـا

* * *

ألـم تـر أن الـمـرء يـودي شـبـابـه وأن الـمـنـايـا لـلـرجـال تـشـعـب
فـمـن ذائـق كـأسـاً مـن الـمـوت مـرة وآخـر أخـرى مـثـلـهـا يـتـرقـب
لـهـا مـنـهـم زاد حـثـيـث وسـائـق وكـل بـكـأس الـمـوت يـومـاً سـيـشـرب
ومـا وارث إلا سـيـورث مـالـه ولا سـالـب إلا قـريـبـاً سـيـسـلـب
ولا آلـف إلا سـيـتـبـع إلـفـه ولا نـعـمـة إلا تـبـيـدو وتـذهـب
ومـا مـن مـعـان فـي الـمـصـائـب جـمـة يـعـاورهـا الـعـصـران إلا سـيـعـطـب
أرى الـنـاس أصـنـافـاً أقـامـوا بـغـربـة تـقـلـبـهـم أيـامـهـا وتـقـلـب
بـدار غـرور حـلـوة يـعـمـرونـهـا وقـد عـايـنـوا فـيـهـا زوالاً وجـربـوا
يـذمـون دنـيـا لا يـريـحـون درهـا فـلـم أر كـالـدنـيـا تـذم وتـحـلـب

قـال الله تـعـالـى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧] وقال ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

عباد الله: يعيش ابن آدم ما قدر الله له أن يعيش، ويمشي الإنسان في هذه الأرض ويتقلب فيها، ويرى حلوها ومرها وسرورها وأحزانها، ويأخذ فيها حظه من الشقاء وحظه من السعادة، بمقدار ما قدره الله له وما قدره عليه، ولكن لكل هذا نهاية، ولكل ذلك غاية، قال الله جل وعلا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنبياء: ٣٤ ـ ٣٥] وقال ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر: ٣٠] فسبيل الموت غاية كل حي، والخلود في دار الفناء غير معقول.

أيها المسلم عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارقه.

لـعـمـرك مـا الـدنـيـا بـدار إقـامـة إذا زال عـن عـيـن الـبـصـيـر غـطـاؤهـا

وقال آخر:

كـم رأيـنـا مـن أنـاس هـلـكـوا وبـكـى أحـبـابـهـم ثـم بـكـوا
تـركـوا الـدنـيـا لـمـن جـا بـعـدهـم ودهـم لـو قـدمـوا مـا تـركـوا

كم رأينا من ملوك سوقة ... ورأينا سوقة قد ملكوا

وقال آخر:

وكل أم وإن سرت بما ولدت ... يوماً ستثكل ما ربت من الولد

وقال آخر:

وكيف بقاء الناس فيها وإنما ... ينال بأسباب الفناء بقاؤها

وقال آخر:

حسب الخليلين نأي الأرض بينهما ... هذا عليها وهذا تحتها بالي
سلام على دار الغرور فإنها ... منغضة لذاتها بالفجائع
فإن جمعت بين المحبين ساعة ... فعما قليل أردفت بالموانع

وقال آخر:

على مثل هذا كل جمع مآله ... وصال وتفريق يسر ويؤلم
وإن منع الغيّاب أن يقدموا لنا ... فإنا على غيابنا سوف نقدم

فالبقاء في الدنيا محال، هذه الدنيا جسر، هذه الدنيا ممر ومعبر وطريق إلى الآخرة، ومن الناس من يتخبط في هذه الطريق ويتعثر فيها ولا يهتدي، ومن الناس من يوفقه الله فيسلكها مستقيماً لا يلوي على شيء إلا على زاد الآخرة، وأمل يهدف إليه، في تلك الدار الباقية، ذلك الهدف هو رضى رب العزة والجلال، الذي فيه كل نعيم، الذي فيه الهدوء والاطمئنان، والذي فيه الفوز والنجاة من كل مكروه، تلك حال من اتعظ واعتبر فنفعته العبرة، ولمس الموعظة من دروس الحياة وأحداثها فاهتدى، وزاده الله هدى، تلك حال من اعتبروا، فنفعتهم العبرة، وجعلوا التقوى إلى الله أمامهم لا يحيدون عنها، يخافون ربهم ويخشون سوء الحساب. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢].

فحاسب نفسك أيها المسلم، قبل أن تحاسب، وزن أعمالك قبل أن توزن عليك، وراقب مولاك الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وتب إليه توبة نصوحاً، قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٢].

يلذ بهذا العيش من ليس يعقل ويزهد فيه الألمعي المحصل
وما عجب نفس ترى الرأي إنما الـ ـعجيبة نفس مقتضى الرأي تفعل
إلى الله أشكو همة دنيوية ترى النص إلا أنها تتأول

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «فمن له بصيرة بنفسه وبصيرة بحقوق الله وهو صادق في طلبه لم يبق له نظره في سيئآته حسنة البتة فلا يلقى الله إلا بالإفلاس المحض والفقر الصرف.

لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تشترى بها النجاة من عذاب الله فضلاً عن الفوز بعظيم ثوابه.

فإن خلص له عمل وحال مع الله وصفاً له معه وقت شاهد منة الله عليه به ومجرد فضله وأنه ليس من نفسه ولا هي أهل لذاك.

فهو دائماً مشاهد لمنة الله عليه ولعيوب نفسه وعمله، لأنه متى تطلبها رآها وهذا من أجل أنواع المعارف وأنفعها للعبد.

ولذلك كان سيد الاستغفار **«اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**.

فتضمن هذا الاستغفار الاعتراف من العبد بربوبية الله وإلٰهيته وتوحيده والاعتراف بأنه خالقه، العالم به، إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده، وفي قبضته لا مهرب له منه ولا ولي له سواه.

ثم التزم الدخول تحت عهده وهو أمره ونهيه الذي عهده إليه على لسان رسوله ﷺ وأن ذلك بحسب استطاعتي لا بحسب أداء حقك فإنه غير مقدور للبشر إنما هو جهد المقل وقدر الطاقة.

ومع هذا فأنا مصدق بوعدك ثم أنزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك، فإنك إن لم تعذني من شره وإلا أحاطت بي الهلكة،

فإن إضاعة حقك سبب الهلاك وأنا أقر لك وألتزم وأبخع بذنبي.

فمنك المنة والإحسان والفضل ومني الذنب والإساءة فأسألك أن تغفر لي بمحو ذنبي وأن تعفيني من شره إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار.

وهو متضمن لمحض العبودية فأي حسنة تبقى للبصير الصادق مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ومنة الله عليه فهذا هو الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه».

قال بعض العلماء: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك لشريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل.

الناس كلهم للعيد قد فرحوا ... وقد فرحت أنا بالواحد الصمد
الناس كلهم للعيد قد صبغوا ... وقد صبغت ثياب الذل والكمد
الناس كلهم للعيد قد غسلوا ... وقد غسلت أنا الدمع للكبد

وقال الحسن: «المؤمن قوام على نفسه يحاسبها لله تعالى، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة».

المهم أن يعلم العبد أن أعدى عدو له نفسه التي بين جنبيه، وقد خلقت أمارة بالسوء، أمارة بالشر، فرارة من الخير.

والإنسان مأمور بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل العبر إلى عبادة ربها وخالقها ومنعها عن لذاتها وشهواتها المهلكة.

فإن أهملها شردت وجمحت ولم يظفر بها بعد ذلك، وإن لازمها بالتوبيخ والتقريع، والمعاتبة والعذل والملامة، ولم يغفل عن تذكيرها وعتابها اعتدلت بإذن الله تعالى.

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم
وراعها وهي في الأعمال سائمة ... وإن هي استحلت المرعى فلا تسم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة ... من حيث لم يدرِ أن السم في الدسم

فالعاقل اللبيب من يوبخ نفسه ويعاتبها، ويوضح لها عيوبها كلها، ويقرر عندها جهلها وحماقتها، فإنها إذا أراد الله تعذر وترعوي وترجع.

فيقول لها: ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والفطنة وأنت من أجهل الناس وأحمقهم.

وأكبر برهان على ذلك إهمالك واستهانتك أما تعرفين ما بين يديك من الأهوال والعظائم والمزعجات والمخاوف.

أما تقرئين وتسمعين قول أصدق القائلين، وأوفى الواعدين، وأقدر القادرين: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [المزمل: ١٢ ـ ١٤].

يوم القيامة لو علمت بهوله ... لفررت من أهل ومن أوطان

يوم تشققت السماء لهوله ... وتشيب منه مفارق الولدان

وقوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ الآية [الفجر: ٢٣ ـ ٢٤].

وقوله عز من قائل: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ الآية [الفرقان: ١٣]، وقوله جل وعلا: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم: ١٦ ـ ١٧]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ [الليل: ١٤]، وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [المرسلات: ٣٢ ـ ٣٣].

ونحو هذه الآيات المخوفة، ثم يقول لنفسه، فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الأمر العظيم، والخطب الجسيم، وبين يديك إحدى منزلتين الجنة أو النار فكيف يهنؤك نوم، أو يلذ لك مأكول أو مشروب، وأنت لا تدرين في أي الفريقين تكونين ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وكيف تنام العين وهي قريرة ... ولم تدر في أي المكانين تنزل

وقل لها: أما تعلمين يا نفس أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس آت.

أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقدم رسول، ومن غير مواعدة، وأنه لا يأتي في شتاء دون صيف، ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل، ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون الكبر، ولا في الكبر دون الصبا.

بل كل نفس يمكن أن يأتيها الموت بغتة، فإن لم يأت الموت بغتة، جاءه المرض لا محالة، ثم المرض يفضي إلى الموت.

فما لك يا نفس لا تستعدين والموت أقرب إليك من حبل الوريد.

فهكذا معاملة العباد في توبيخ أنفسهم وعتابها فإن مطلبهم من المناجاة الاسترضاء، ومقصودهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء.

فمن أهمل معاتبة نفسه وتوبيخها وأهمل مناجاتها لم يكن لنفسه مراعياً، فنسأل الله العظيم الحي القيوم معرفةً حقيقيةً بأحوال أنفسنا وغرورها.

فالعاقل من بذل وسعه في التفكر التام وعلم أن دار الدنيا رحلة فجمع للسفر رحله.

فمبدأ السفر من ظهور الآباء إلى بطون الأمهات ثم إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم الحشر ثم إلى دار الإقامة الأبدية.

هون عليكم فما الدنيا بدائمة ... وإنما أنت مثل الناس مغرور
ولو تصور أهل الدهر صورته ... لم يمس منهم لبيب وهو مسرور

فدار الإقامة للمؤمن هي دار السلام من جميع الآفات، وهي دار الخلود والعدو سبانا منها إلى دار الدنيا.

فالواجب علينا الاجتهاد في فكاك أسرنا، ثم في حث السير إلى الوصول إلى دارنا الأولى وفي مثل هذا قيل:

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى ... نرد إلى أوطاننا ونسلم

وقال آخر:

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل ... وعدت إلى تصحيح أول منزل
ونادت بي الأشواق مهلا فهذه ... منازل من تهوى رويدك فانزل

ثم أعلم أن مقدار السير في الدنيا يسير ويقطع بالأنفاس كما قيل:

وما نفس إلا يباعد مولداً ... ويدني المنايا للنفوس فتقرب

ويسير الإنسان في هذه الدنيا سير السفينة لا يحس بسيرها وهو جالس فيها كما قيل:

وإنا لفي الدنيا كركب سفينة ... تظن وقوفاً والزمان بها يجري

ويقول آخر:

نسير إلى الآجال في كل لحظة ... وأيامنا تطوى وهن مراحل

واعلم يا عبد الله أن جميع مصيبات الدنيا وشرورها وأحزانها كأحلام نوم أو كظل زائل.

إن أضحكت قليلاً أبكت كثيراً، وإن سرت يوماً أو أياماً، ساءت أشهراً أو أعواماً، وإن متعت قليلاً منعت طويلاً.

وما حصل للعبد فيها من سرور إلا أعقبه أحزان وشرور كما قيل: «من سره زمن ساءته أزمان».

قال بعض العلماء لبعض الملوك: إن أحق الناس بذم الدنيا وقلاها من بسط له فيها وأعطي حاجته منها.

لأنه يتوقع آفة تعدو على ماله فتجتاحه، أو على جمعه فتفرقه، أو تأتي سلطانه فتهدمه من قواعده. أو تدب إلى جسمه فتسقمه، أو تفجعه بشيء هو ضنين به من أحبابه.

فالدنيا أحق بالذم هي الآخذة لما أعطت، والراجعة لما وهبت.

بينما هي تضحك صاحبها إذا هي تضحك منه غيره.

وبينما هي تبكي له إذ بكت عليه.

وبينما هي تبسط كفه بالإعطاء إذ بسطتها بالاسترداد.

تعقد التاج على رأس صاحبها اليوم وتعفره بالتراب غداً.

سواء عليها ذهاب ما ذهب وبقاء ما بقي، تجد في الباقي من الذاهب خلفا وترضى بكل بدلاً.

بأمر دنياك لا تغفل وكن حذراً فقد أبانت لأرباب النهى عبرا
فأي عيش بها ما شابه غير وأي صفو تناهى لم يصر كدراً
كم سالم أسلمته للردى فقضى حتفاً ولم يقض من لذاتها وطرا
ومترفٍ قلبت ظهر المجن له فعاد بعد علو القدر محتقراً
فابعدنها ولا تحفل بزخرفها وغض طرفك عنه قلّ أو كثرا
فكل شيء تراه العين من حسن كر الأهلة لا يبقي له أثراً
واصحب وصل وواصل كل أونةٍ على النبي سلاماً طيباً عطرا
وصحبه ومن استهدى بهديهموا فهم أئمة من صلى ومن ذكرا

ثم اعلم يا عبد الله أن من بورك له في عمره أدرك في يسير الزمن من منن الله ما لا يدخل تحت دوائر العبارة.

فبركة العمر أن يرزق الله العبد من الفطنة واليقظة ما يحمله على الجد والاجتهاد على اغتنام أوقات عمره وانتهاز فرصة إمكانه.

فيبادر إلى الأعمال القلبية والأعمال البدنية، ويستفرغ في ذلك مجهوده بالكلية وكل ذلك في عمر قصير وزمن يسير.

والخذلان كل الخذلان أن تتفرغ من الشواغل ثم لا تتوجه إلى الله جل وعلا.

ومن الخذلان أيضاً أن تصدك العوائق والشواغل عن التوجه إلى الله تعالى.

والواجب عليك أن تبادر إلى التوجه إلى الله بالأعمال الصالحة وأن ترمي بالعوائق والشواغل خلف ظهرك.

مضى أمسك الماضي عليك معدلاً وأصبحت في يوم عليك جديد
فإن كنت بالأمس اقترفت جناية فثني بإحسان وأنت حميد
ولا ترج فعل الصالحات إلى غد لعل غداً يأتي وأنت فقيد

وقد قيل: سيروا إلى الله عرجاً ومكاسير، ولا تنتظروا الصحة فإن انتظار الصحة بطالة، والعاقل من بادر إلى الأعمال الصالحة.

قال الشاعر حاثاً على اغتنام الوقت:

وخذ من قريب واستجب واجتنب غداً وشمر عن الساق اجتهاداً بنهضة
وكن صارماً كالوقت فالمقت في عسى وإياك مهلاً فهي أخطر علة
وسر زمناً وانهض كسيراً فحظك الـ ـبطالة ما أخرت عزماً لصحة
وجد بسيف العزم سَوْف فإن تجد تجد نفساً فالنفس إن جُدْتَ جَدَّت

ثم اعلم يا عبد الله، الحريص على حفظ وقته عن الضياع أنه إن قلت أشغالك، وقلت عوائقك، ثم قعدت عن الجد والاجتهاد فيما يقربك إلى الله من أنواع الطاعات أن هذا هو الخذلان، أعاذنا الله منه.

ففراغ القلب من الأشغال نعمة عظيمة لمن وفقه الله اغتنامها فصرفها في الباقيات الصالحات والويل لمن كفر هذه النعمة بأن فتح على نفسه باب الهوى وانجر في قياد الشهوات.

قال بعضهم: الفكرة سراج القلب فإذا ذهبت فلا إضاءة له فالقلب الخالي من الفكرة خالي من النور مظلم بوجود الجهل والغرور.

ففكر الزاهدين في فناء الدنيا واضمحلالها وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكر زهداً فيها.

وفكر العابدين في جميل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبة فيه.

وفكر العارفين في الآلاء والنعماء فيزدادون نشاطاً في جميع أنواع العبادة، ويزدادون محبة لله وشكراً له وحمداً على نعمه التي لا تعد ولا تحصى قال جل وعلا وتقدس: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

مالي أراك على الذنوب مواظباً ... أأخذت من سوء الحساب أمانا
لا تغفلن كأن يومك قد أتى ... ولعل عمرك قد دنا أو حانا
ومضى الحبيب لحفر قبر مسرعاً ... وأتى الصديق فأنذر الجيرانا
وأتوا بغسّال وجاءوا نحوه ... وبدا بغسلك ميتاً عريانا
فغسلت ثم كسيت ثوباً للبلى ... ودعوا لحمل سريرك الإخوانا
وأتاك أهلك للوداع فودعوا ... وجت عليم دموعهم غدرانا
فخف الإلٰه فإنه من خافه ... سكن الجنان مجاوراً رضوانا
جنات عدن لا يبيد نعيمها ... أبداً يخالط روحه ريحاناً
ولمن عصى ناراً يقال لها لظى ... تشوي الوجوه وتحرق الأبدانا
نبكي وحق لنا البكى يا قومنا ... كي لا يؤاخذنا بما قد كانا

ثم اعلم يا عبد الله أنه ليس ذكر الموت النافع هو أن يقول: الموت فقط، فإن هذا قليل الفائدة، بل لا بد مع ذلك من تفكر بقلب فارغ عن الشهوات، واستحضار لحاله عند الموت وأهواله وشدائده وسكراته، ويتفكر في شدة النزع والألم الذي يعانيه عند خروج الروح من البدن أعاننا الله على ذلك وجميع المسلمين.

فيا عباد الله اغتنموا مواسم الطاعات، فأيام المواسم معدودة، وانتهزوا فرص الأوقات، فساعات الإسعاد محدودة، وجدوا في طلب الخيرات، فمناهل الرضوان مورودة، وقوموا على قدم السداد واتقوا الله الذي إليه تحشرون.

وكونوا من الذين يدعون ربهم خوفاً وطمعاً، ومما رزقهم ينفقون، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٧ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٩﴾ [السجدة: ١٧ ـ ١٩].

فيا سعادة أولي الطاعات الذين اجتباهم مولاهم لدار السلام، واصطفاهم لحضيرة قدسه، وأوردهم مناهل الإنعام، وأولاهم حلاوة الأنس، ووالاهم بمواهب الإكرام، وسقاهم من رحيق مختومٍ، ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ويا مسرة من شاهد معالم الرشد، فسلك مسالكه، وكان من المستبشرين الذين يوم القيامة وجوههم مسفرة ضاحكة ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٣] ا.هـ.

فتدبري يا أمة الله هذا الأمر، وانظري فيه وتفكري، وتذكري العرض يوم الفزع الأكبر بين يدي رب العالمين العليم الخبير، ورحم الله الإمام ابن القيم حيث قال:

لكن ذا الإيمان يعلم أن ها ... ذا كالظلال وكل هذا فان
كخيال طيف ما استتم زيارة ... إلا وصبح رحيله بأذان
وسحابة طلعت بيوم صائف ... فالظل منسوخ بقرب زمان
وكزهرة وافى الربيع بحسنها ... أو لامعاً فكلاهما إخوان
أو كالسراب يلوح للظمآن في ... وسط الهجير بمستوى القيعان
أو كالأماني طاب منها ذكرها ... بالقول واستحضارها بجنان
وهي الغرور رؤوس أموال المفا ... ليس الأولى اتجروا بلا أثمان
أو كالطعام يلذ عند مساغه ... لكن عقباه كما تجدان
هذا هو المثل الذي ضرب الرسو ... ل لها وذا في غاية التبيان
وإذا أردت ترى حقيقتها فخذ ... منه مثالاً واحداً ذا شان
أدخل بجهدك أصبعاً في اليم وان ... ظر ما تعلقه إذا بعيان
هذا هو الدنيا كذا قال الرسو ... ل ممثلاً والحق ذو تبيان
وكذاك مثلها بظل الدوح في ... وقت الحرور لقائل الركبان
هذا ولو عدلت جناح بعوضة ... عند الإله الحق في الميزان
لم يسق منها كافراً من شربة ... ماء وكان الحق بالحرمان
تالله ما عقل امرأ قد باع ما ... يبقى بما هو مضمحل فان
هذا ويفتي ثم يقضي حاكماً ... بالحجر من سفه لذا الإنسان
إذ باع شيئاً قدره فوق الذي ... يعتاضه من هذه الأثمان
فمن السفيه حقيقة إن كنت ذا ... عقل وأين العقل لسكران
والله لو أن القلوب شهدن من مـ ... ـنا كان شأن غير هذا الشان

نفس من الأنفاس هذا العيش إن ... قسناه بالعيش الطويل الثاني
يا خسة الشركاء مع عدم الوفا ... ءِ وطول جفوتها من الهجران
هل فيك معتبر فيسلو عاشق ... بمصارع العشاق كل زمان
لكن على تلك العيون غشاوة ... وعلى القلوب أكنة النسيان
وأخو البصائر حاضر متيقظ ... متفرد عن زمرة العميان
يسموا إلى الرفيق الأرفع أل ... أعلى وخلى اللعب للصبيان
والناس كلهم فصبيان وإن ... بلغوا سوى الأفراد والوحدان
وإذا رأى ما يشتهيه يقول مو ... عدك الجنان وجد في الأثمان
وإذا أبت إلا الجماح أعاضها ... بالعلم بعد حقائق الإيمان
ويرى من الخسران بيع الدائم الـ ... باقي به يا ذلة الخسران
ويرى مصارع أهلها من حوله ... وقلوبهم كمراجل النيران
حسراتها هن الوقود فإن خبت ... زادت سعيراً بالوقود الثاني
جاءوا فرادى مثل ما خلقوا بلا ... مال ولا أهل ولا إخوان
ما معهموا شيء سوى الأعمال فهـ ... ي متاجر للنار أو لجنان
تسعى بهم أعمالهم شوقاً إلى الد ... ارين سوق الخيل بالركبان
صبروا قليلاً فاستراحوا دائماً ... يا عزة التوفيق للإنسان
حمدوا التقى عند الممات كذا السرى ... عند الصباح فحبذا الحمدان
وخدت بهم عزماتهم نحو العلى ... وسروا فما نزلوا إلى نعمان
باعوا الذي يفنى من الخزف الخسيـ ... س بدائم من خالص العقيان
رفعت لهم في السير أعلام السعا ... دة والهدى يا زلة الحيران
فتسابق الأقوام وابتدروا لها ... كتسابق الفرسان يوم رهان
وأخو الهوينا في الديار مخلف ... مع شكله يا خيبة الكسلان

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

الفهرس

من أحدث إصدارات الشيخ محمد بن رياض الأحمد السلفي الأثري

بقلمه:

- الأنوار الجليّة في الشمائل المحمّدية
- البحر الزاخر في أهوال اليوم الآخر
- تبصير البريّة بالحقوق الزوجيّة
- تذكير أهل الإيمان بصفات عباد الرحمن
- تذكير الجماعة بالفتن والملاحم وأشراط الساعة
- الثابت والصحيح في ما ورد عن المهدي ونزول المسيح(ع)
- الخبر اليقين في قصص الأنبياء والمرسلين/ للفتيان والناشئين
- دموع التائبين وعبرات المنيبين(مجموعة قصص واقعية)
- الرحيل: تأمّلات لما في الموت والقبر من العظات
- فأنذرتكم ناراً تلظّى (أخبار الهاوية وعذاب الزبانية)
- مآسي وآلام المعاصي (مجموعة قصص واقعية)
- النصائح والعظات في تربية البنين والبنات
- والله يدعو إلى دارِ السلام (نظرات في نعيم الجنّات)
- وقفات وتأمّلات في حياة التابعيّن والتابعيّات
- ومضات نيّرات في حياة الصحابة والصحابيّات
- رسائل إلى مؤمنة
- العفاف
- زاد على الطريق
(آيات وأحاديث خاصة بالمرأة وشيء من فقهها وفوائدها)
- حدائق المعارف ورياض اللطائف
(كتاب جامع لما تحتاجه المرأة المسلمة من علوم الشريعة)
- ومضات في طريق الداعيات إلى الله
- التحفة الساطعة في صفات الزوجة الصالحة
- الدرة النقية في صفات المؤمنة التقية
- وقفات مع مؤمنة
- حتى لا تنهدم الأسرة
- الطريق إلى السعادة
- أختاه ... إلى أين المصير؟
- الإكليل في شرح حديث جبريل

جمع وتحقيق وتنسيق:

- الجامع الصحيح في فتاوى المرأة المسلمة
(من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية)
- الرسائل الزكيّة في الزهد والأعمال القلبيّة
(من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية)
- رياض الجنّة في الحث على التمسك بالسنّة
(بحوث ومقالات وفتاوى للأئمة الأعلام :ابن باز/الألباني/ابن عثيمين)
- الكلمات الذهبيّة في الخطب المنبريّة
- أنيس التائبين وسراج السائرين
- موسوعة أحكام النساء :
المجموعة الأولى (أصول الإيمان)
المجموعة الثانية (العبادات)
المجموعة الثالثة (النكاح وتوابعه)
المجموعة الرابعة (اللباس والزينة)
المجموعة الخامسة (الآداب والأخلاق)
- سفينة النجاة
- أحكام الطفل
- فتاوى أركان الإسلام
- إرشاد المحتار إلى الجواب المختار
- القول السديد في بيان حقيقة التوحيد
رسالة في العلو
(من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية)
- ظلال الجنة في الاعتصام بالكتاب والسنة
(من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية)
- جواهر البيان في أصول الإيمان
- جنى الجنان في الوصية بالقرآن
- اتحاف أولي الظفر بدروس إمامي العصر:
(الإمام ابن باز، الإمام ابن عثيمين)

تحقيـق:

- جامع العلوم والحكم – للحافظ ابن رجب الحنبلي
- العبوديّة – لشيخ الإسلام ابن تيمية، ويليه كتاب:
قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق.
- مختصر زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيّم الجوزيّة . اختصار: الإمام محمد بن عبد الوهاب

تقديم واعتناء: فتح القدير 1 / 2 – للإمام محمد بن علي الشوكاني